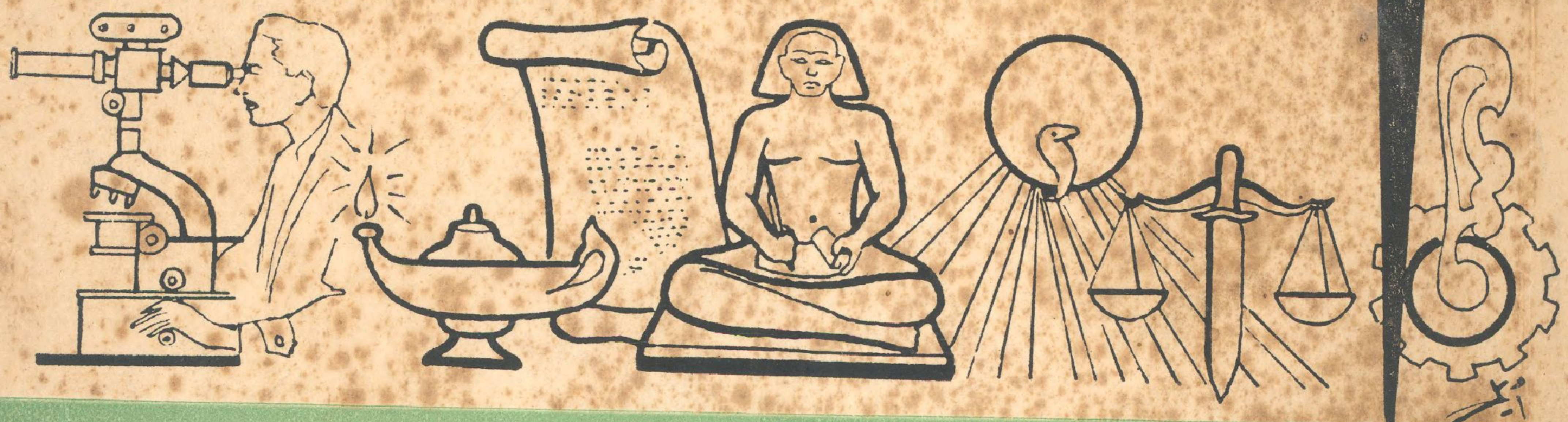


مکتبۃ المحاضرات  
(۲)

# مستقبل الحضارة

تأليف  
ج. دی بولیس



ترجمہ : لمعی لمطیع  
تقديم : ماهر نسيم

الناشر  
دار الكرنيك



اهداءات ٢٠٠٣

أسرة المرحوم الأستاذ/محمد سعيد البسيوني

الإسكندرية

مستقبل الحضارة

خطبة الجمعة ٢٩ من شهر ربيع الأول

مكتبة الحضارات  
(٢)

# مستقبل الحضارة

تأليف  
ج. دي بوليس

ترجمة : لمعي لمطيعي  
تقديم : ماهر نسيم

الناشر  
**دار الكرنيك**  
للنشر والطبع والتوزيع  
عمادة رئيس - ميدان رئيس (باب الحديد) القاهرة



هذه ترجمة كتاب :

**THE FUTURE OF THE WEST**

تأليف

**J. G. de BEUS**

الناشر

**Harper & Brothers Publishers, New York**

✱

**Copyright, 1953, by**

**J. G. de Beus**

✱

**The selections from :**

**THE DECLINE OF THE WEST,**

**by Oswald Spengler are reprinted by permission of:**

**ALFRED A. KNOPF Inc.**

**Copyright, 1926, 1928, by :**

**ALFRED A. KNOPF INC.**

هذه الترجمة مرخص بها من المؤلف ودار «هاربر» للنشر : وحقوق  
الطبع والنشر بالعربية في شتى أنحاء العالم العربي محفوظة لدار «الكرنك  
للنشر والطبع والتوزيع» بالقاهرة .

ولا يجوز الاقتباس من هذه الترجمة إلا بإذن كتابي من :

الناشر  
دار الكرنيك للنشر والطبع والتوزيع  
عمارة رئيس : ميدان رئيس (إبراهيم) القاهرة

## محتويات الكتاب

صفحة

تقديم : بقلم ماهر نسيم . . . . . ٩

### الجزء الأول : حياة الحضارة وموتها :

- ١ — نشوء الحضارات وانهارها . . . . . ١٩
- ٢ — وجهة نظر روسية : نيكولاى دانييلفسكى . . . . . ٢٦
- ٣ — رأى شبنجلر فى الحضارات . . . . . ٣٧
- ٤ — شبنجلر : (العسكرى والمفكر) . . . . . ٦٩
- ٥ — رأى أرنولد توينبى فى الحضارات . . . . . ٨٣
- ٦ — مناقشة آراء توينبى . . . . . ١٠٠
- ٧ — التركيب : طابع الحضارات . . . . . ١٢١

### الجزء الثانى : التطور الحالى للحضارة الغربية :

- ٨ — أين نقف ؟ . . . . . ١٤١
- ٩ — الأخطار الرئيسية الثلاثة أمام الحضارة الغربية . . . . . ١٦٩
- ١٠ — قوة أوربا الخلاقة . . . . . ١٧٩
- ١١ — قوة أمريكا الابتكارية . . . . . ١٩١

### الجزء الثالث : الأوضاع المقبلة :

- ١٢ — العالم الواحد المقبل . . . . . ٢١١
- ١٣ — الطريق السلى : امتزاج الشرق والغرب . . . . . ٢١٥
- ١٤ — طريق العنف : إذا وقعت الحرب . . . . . ٢٢٢
- ١٥ — مصير أمريكا . . . . . ٢٣٧
- ١٦ — دور أوربا . . . . . ٢٤٧



## تقديم

بقلم

ماهر نسيم

يسعدني أن أقدم هذا الكتاب إلى القراء العرب الأفاضل ، إيماناً مني بأن المادة التي يحويها إنما هي زاد طيب ينقع غلة الباحثين ويزود طلاب العلم بالمزيد من المعارف والآراء التي تلقى مزيداً من الضوء على نشوء الحضارات وانهارها ، وتشرح طبيعة العلاقات البيئية والثقافية والسياسية والاقتصادية التي تؤثر في الحضارات سواء بطريق مباشر أو بطريق غير مباشر ، وسيان في ذلك أن يؤدي هذا التأثير إلى ازدهار الحضارة أو إلى انهيارها .

وما يجعاني أشعر بمزيد من السعادة والفخر وأنا أقدم هذا الكتاب إلى القراء العرب الكرام ، ما أعليه من أن المؤلفات التي عالجت آراء « شبنجلر » ، الفيلسوف والمؤرخ الألماني المعروف - في الحضارات ، قليلة جداً إن لم نقل لا وجود لها على الإطلاق . ومن ثم يحق لنا جميعاً أن نحسن وفادة هذا الكتاب الذي يعالج آراء « شبنجلر » ، على نحو موضوعي لا يفتقر إلى النظرة الأكاديمية أو المنهج العلمي . فمؤلف هذا الكتاب - وهو باحث هولندي - قد حرص في كتابه هذا، على أن يعود إلى التاريخ

ويستقرى الأحداث ويستعرض كل الآراء بصرف النظر عما تنطوي عليه من صواب أو خطأ ؛ كل ذلك توطئة للرد على هذه الآراء والبرهنة على صحتها أو إقامة الدليل على فسادها بمقتضى شواهد من التاريخ وقضايا منطقية تستند إلى الحقائق وترتكز على خلاصة تجارب المفكرين وذوى الدراية .

ولم يقنع مؤلف هذا الكتاب بمجرد عرض آراء « شبنجر » ، والرد عليها ، فقد اقتضته النظرة العلمية أن يناقش آراء مؤرخين وفلاسفة قدامى ومحدثين ، من أمثال « دانييلفسكى » ، المفكر الروسى القديم الذى اهتدى منذ حوالى مئة سنة إلى بضع قواعد تتحكم فى مصير الحضارات ومستقبلها ؛ ومثل « أرنولد توينبى » ، المؤرخ والمفكر الإنجليزى الذى أسهم بقسط كبير فى وضع الأسس الجوهرية لنشوء الحضارات وانهارها ؛ ومثل « سودوكين » ، الباحث الاجتماعى المعروف الذى بذل جهداً كبيراً لتفسير « خط سير » الحضارات من خلال الظواهر الاجتماعية .

زد على ذلك أن مؤلف هذا الكتاب قد حرص على أن يأخذ نفسه بمقتضات العلم والبحث أخذاً شديداً ، فتأى بنفسه عن الانحياز لحضارة ما دون أخرى ، وآثر أن يكون محايداً منصفاً فشهد بالفضل لذويه ودافع عن أولئك الذين ظلمهم المؤرخون المتحيزون ، كما صحح بعض الوقائع التى شابتها شوائب الخلط والارتباك .

صحيح أن المؤلف قد حاول بكل ماوسعه من جهد أن يدافع عن الحضارة الغربية . . . . . وصحيح أنه حاول أن يقيم الدليل على أن هذه الحضارة لا تحتاز مرحلة انهيار أو ذبول بقدر ما تحتاز مرحلة تحفز جديد ينقلها إلى طور

حضارى آخر أكثر ازدهاراً وتنوعاً ... كل هذا صحيح ؛ غير أنه من الصحيح أيضاً أنه لم يحاول أن يحكم على الحضارات الشرقية بالموت ، ولم يحاول أن ينكر الدور التاريخى الخطير الذى لعبته هذه الحضارات . ومن ثم ، جاء رأيه فى نشوء الحضارات وانهارها موضوعياً ومحايداً .

بل إن حياد المؤلف فى هذا الصدد هو الذى حدد له منهجه فى البحث والدراسة وجعله يقف موقفاً وسطاً لا هو فى أقصى اليمين ولا هو فى أقصى اليسار ... فالمؤلف ، من ناحية ، لم يأخذ بوجهة النظر « الغيبية » التى تحمل معتنقها على أن يؤمنوا بأن العالم يتطور — إن خيراً وإن شراً — بمقتضى قوة لا يد للإنسان فيها ؛ وهو ، من ناحية أخرى ، لم يأخذ بوجهة النظر « الديالكتيكية » المادية التى تزعم بأن العوامل الاقتصادية وحدها هى التى تتحكم فى تطور الحياة وقوانين البشر . وهكذا رفض المؤلف أن يأخذ بوجهتى النظر المتطرفتين اللتين تنكران ما للإنسان من أثر فى الكون الذى يعيش فيه . وهداه هذا الموقف إلى أن الإنسان هو جوهر الحضارات ، فهو الذى يقيم أسسها الأولى ، وهو الذى يطورها ، وهو الذى يهدمها ويقضى عليها إذا شاء ذلك ، ومن ثم يجب أن يكون « الإنسان » هو الشغل الشاغل للباحثين فى الحضارة ، بدلاً من أن يقصر البعض كل همهم على دراسة الظواهر الاجتماعية أو الاقتصادية أو البيئية بمعزل عن الإنسان ، وبدلاً من أن يركز البعض اهتمامهم فى دراسة تاريخ الحضارات ذاته كما لو كان هذا التاريخ يتحرك ويتطور من تلقاء نفسه ، وكأن الإنسان الذى صنع هذا التاريخ وخلق تلك الحضارة ، لا أثر له فى هذا التاريخ !

والواقع أن هذه النظرة «الإنسانية» الواعية التي اتخذ منها مؤلف هذا الكتاب ركيزة يشيد فوقها هذا «البيان» العلى المتين ، لهى نظرة سليمة ؛ فليس ثمة شك فى أن «الإنسان» هو الذى ابتدع الحضارة ، وهو الذى أضاف إليها أو انتقص منها، وهو الذى يحدد مصير هذه الحضارة عن طريق سلوكه الإرادى وشتى العوامل البيئية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية التى لا تعدو - بدورها - أن تكون من صنع الإنسان ، أو فى القليل ، أثراً من الآثار الذى يؤدى إليها وجود الإنسان فى هذا الكون .

ونحن ، الذين أقام أجدادنا حضارات تليدة لعبت دوراً حاسماً فى التاريخ ، يسعدنا أن نرى مزيداً من الكتب التى تمجد «الإنسان» وترفع من شأن «الإنسانية» ؛ فحضارة أجدادنا كانت ، بدورها ، حضارة «إنسانية» رفيعة تعنى بروح الإنسان وجسده ؛ ومن ثم حفلت بتعاليم وإرشادات تحث «الإنسان» على أن يكون صادقاً وأميناً وعادلاً ووفياً وصابراً وطاهر الذيل ونقى السريرة ؛ كما حفلت بتعاليم أخرى تحث الإنسان على أن يرعى شئون دنياه وآخرته على نحو يجعله سعيداً فى حياته «الفانية» على الأرض ومعجداً فى حياته «الأبدية» فى السماء !

ولا يعنى ما ذكرت فيما سلف أننى أوافق مؤلف هذا الكتاب على كل ما جاء فى كتابه من آراء ؛ فليس كل فرد منا رأى به الخاص ومعتقداته الخاصة . غير أننى أشارك مؤلف هذا الكتاب إيمانه بالإنسان وتمجيده للإنسانية ورفضه الأخذ بالآراء المتطرفة - سواء أكانت فى أقصى اليمين أم فى أقصى اليسار - فيما يتعلق بنشوء الحضارات وانهارها . كما أننى أشاركه رأيه القائل بأن مصير الحضارة الحالية إنما يتوقف علينا نحن . . . . فنحن

نستطيع أن ندفع بعجلة هذه الحضارة إلى الأمام ، كما نستطيع أن ندفع بها إلى الخلف . . . . ولكن منطق « الإنسانية » - وهو منطق سليم - لن يسمح لأحد بأن يدفع بعجلة الحضارة إلى الخلف ؛ لأن الحضارات ، كما قال مؤلف هذا الكتاب ، قد تزدهر وقد تنهار ؛ قد ترتفع إلى أعلا وقد تهبط إلى أسفل ، ولكنها لا تعود إلى الخلف على الإطلاق . . . .

\*\*\*

وفي الختام ، يسعدني أن أقدم هذا الكتاب - الذي يعتبر الأول من نوعه في العالم العربي إلى القراء الكرام ، داعياً الله - عز وجل - أن يوفقنا جميعاً إلى ما فيه الخير والسلام ؟

ماهر نسيم



مستقبل الحضارة



# الجزء الأول

## حياة الحضارات وموتها \*

\* آثرنا هنا الترجمة الحرفية لكلمتي Life, Death لأن المؤلف يدخل في نقاش مع شبنجلر حول تطبيق هاتين الكلمتين بمعناها الخالص ، على الحضارات ( المترجم ) .



## — ١ —

### نشوء الحضارات وانهارها

درج المؤرخون الغربيون ، منذ القرن الثامن عشر ، على اعتبار تاريخ البشرية تطوراً واحداً مستمراً ، وخطاً متصلاً ؛ وهم يعتبرونه ، عادةً ، تطوراً واحداً ثابتاً مع روح العصر . وفي دراسة التاريخ ، كان المجتمع الغربي يُتخذ كنقطة يعود المؤرخون منها إلى الخلف ؛ وكان يُعتبر أيضاً بمثابة النهاية التي بلغها التاريخ السابق كله ؛ وكانت الأحداث التاريخية التي جرت في العالم ، خلال العصور ، واتخذت أسماء « التاريخ القديم ، و « العصور الوسطى ، تُعامل على أنها مجرد تمهيد لتاريخ أوربا ، الذي كان بمثابة البحر الذي تصب فيه جميع أنهار الماضي ؛ وكما كان المفهوم عن العالم قبل كوبرنيكوس « cobernicus - ، وهو أن الأرض تعتبر ، أوتوماتيكياً ، مركزاً للكون - كذلك كان تصور التاريخ على أنه خط مستقيم يفسر الأحداث التاريخية لسكل الأزمنة والشعوب ، سواء وقعت في الصين أو في المكسيك ، في القرن الرابع قبل الميلاد أو في القرن التاسع عشر بعد الميلاد ؛ يفسرها على أنها جزء من عملية واحدة متماسكة تؤدي إلى التاريخ الحديث للعالم الغربي .

وخلال المائة عام الأخيرة أو نحوها ، أُغفل هذا الرأي الذي يقول إن الحضارة الغربية هي مركز التاريخ ، وذلك تحت تأثير الاكتشافات التي أزاحت الغطاء عن قصة العصور التي طال عليها النسيان ، وأقامت الدليل

على أن مفهوم « الخط الواحد » لا يتفق مع حقائق التاريخ .

فمن ناحية ، ليس صحيحاً أن تاريخ البشرية يشكل عمليةً تقدميةً واحدةً مستمرةً ، إذ أننا نلاحظ ، في التاريخ أن مناطق معينة أنتجت ، في مراحل معينة ، ما يُطلق عليه عادة « حضارة » ، أو « ثقافة » . وهذه الحضارات محدودة من ناحيتي الزمان والمكان ؛ أو ، على الأقل ، هناك فترات وأماكن تزدھر فيها الحضارات ، وأخرى تذوي فيها .

فقد نشأت حضارة في وادي النيل ، وازدهرت هناك ، وانتشرت إلى ما وراء حدود ذلك الوادي ، ولكنها لم تصل مثلاً إلى إنجلترا أو الصين أو يرو . وبعد حياة استمرت حوالي ثلاثة آلاف عام ، أخذت في الذبول التدريجي كحضارة متميزة لها طابعها الخاص ، وفي النهاية أفسحت المجال لعصر - في تلك المنطقة - لا يمكن أن يُطلق عليه أنه عصر حضارة . وبالمثل تلك الحضارة التي نشأت في روما ، وانتشرت في القرن الأول الميلادي في منطقة البحر الأبيض المتوسط ، وبالشرق الأوسط ، وأوروبا الغربية ، ثم تفككت بعد ذلك ، وحل محلها عصر مظلم استمر من القرن الخامس تقريباً حتى القرن التاسع . وثمت حضارات أخرى أعقبتها عصور مظلمة مماثلة أو سبقتها .

وقد دفع ذلك كثيراً من المؤرخين إلى الاعتقاد بأن تطور الحضارة لم يكن عبارةً عن تقدم غير متقطع ، وأنها نشأت في مناطق معينة وفي فترات معينة ثم انهارت إما مؤقتاً لتظهر مرة أخرى ، وإما اختفت تماماً .

وفي الوقت ذاته ، كانت اكتشافات العصور الحديثة أقوى دليل

على أن مجتمعات أخرى ، في عصور سحيقة وبلاد بعيدة ، مرت بتجارب مشابهة لتجاربنا .

وهكذا أصبحنا ننظر إلى الحضارة الغربية على أنها واحدة من حضارات وجدت أو لا تزال موجودة ، مثلما أصبحنا نعتبر الأرض كوكباً من كواكب كثيرة حول الشمس .

إلا أن ذلك لا يعنى بالضرورة أننا ننكر التقدم ، فإن كل حضارة تبرز في ذاتها واحداً أو أكثر من خطوط التقدم الطويلة التصاعدية ، ولكن حتى عندما تختفي حضارة ما ، فإن الإبداعات القيّمة التي أنتجتها في ميادين الأساليب العملية ، والعلم ، والفن ، ترثها حضارة تالية وتستخدمها . . . وهكذا استعارت الحضارة الحديثة الشيء الكثير من حضارتى اليونان والرومان القديمتين في مجالات الأخلاق ، والفلسفة ، والهندسة المعمارية ، والأدب ، وأنظمة الحكم ، والقانون .

وأخيراً ، تستطيع كل حضارة تالية ، أن تصل ، بل إنها كانت تصل فعلاً ، في حالات كثيرة ، إلى درجة أعلى من درجات التحكم في البيئتين الإنسانية والمادية ، وبالتالي حققت أعمالاً روحية أو جمالية أعظم من سابقتها . كذلك لا تحط وجهة النظر هذه — عن الحضارة — من قدر الناس أو الشعوب ، فتجعل منهم أدوات يعيث بها القدر ؛ وليس من شأنها أن تجعل الجهد البشرى معدوم القيمة ، فالتاريخ زاهر بأمثلة عن أمم وقادة غيروا مجرى التاريخ بإرادتهم الصلبة ، وأوقفوا عملية تدهور الحضارة ، أو قادوها إلى مجد جديد .

ومنذ اكتُشِف تشابه معين في مجرى حياة الحضارات المختلفة ،

بدأ البحث عن دليلٍ على مستقبل الحضارة الغربية وذلك بمقارنتها — أو بمقارنة بعض مظاهرها ، بخصائصها الجمالية أو السياسية — بالحضارات الأخرى ، لمحاولة إدراك ما يختلف في جعبة التاريخ فيما يتعلق بها .

والحق أن هذا الكتاب لا يستهدف عرض هذه النظريات جميعاً ، أو إصدار أحكام عليها ، فقد تولى غيرنا هذا العمل ، وهم أكثر قدرة عليه منا ( ومن أحدث الأمثلة التي نسوقها للقارئ كتاب « الفلسفات الاجتماعية في عصر الأزمة — تأليف بيتريم سوروكين ، (١) ) لكثير من الفلسفات التي تدور حول أزمة عصرنا . وتختلف تلك الدراسة عن الكتاب الحالي من حيث أنها بحث عملي يهتم الطلاب المتخصصين في الفلسفة ولكنها لا تحاول أن تطبق نتائج البحث العلمي على حضاراتنا الراهنة .

ثم إن مثل هذه المحاولة خليقة بأن تجعل هذه الدراسة تتضخم إلى أن تتخذ حجم دائرة معارف تزين رف كتب القارئ ، وتثقل كالحجر في معدته الأدبية . وفوق كل شيء ، فإن مثل هذه المحاولة خليقة بأن تجعل لهذا الكتاب غاية تختلف عن تلك التي نعتزم الوصول إليها ، فيصبح بحثاً عملياً شاملاً مكتوباً لقلة من المثقفين ، وليس هذا هو ما يحتاجه عصرنا أكثر من مما يحتاج إلى غيره ، فهو يحتاج إلى الإيمان بالواجب التاريخي لحضارتنا وإمكانياتها ؛ وإن بحثنا الحالي ليأمل أن يسهم في هذا الإيمان . وإذا أريد لهذا البحث أن يثمر ، فيجب أن يظل محدوداً ، وأن يكتب بلغة يفهمها القارئ العادي .

---

(١) Social philosophies of an age of crisis- Pitirim Sorokin

ولقد اقتصر ت بعض دراسات التاريخ المقارنة على مجال الأشكال الجمالية محاولةً بذلك إثبات التشابه في تطور مختلف الفنون في إطار كل حضارة .

فالمؤلف البريطاني السير فلاندرز بترى-Sir Flanders Petrie-مثلاً، يرى أن هناك تتابعاً نسقياً تبرز فيه أشكال الفن في كل حضارة ، من مرحلة التعبير القديم إلى مرحلة التعبير الحر الدسم . ويرى أيضاً أن التتابع الذي تظهر أشكال الفن مزدهرة فيه هو ، قبل كل شيء ، الهندسة المعمارية والنحت ويعقبهما على التوالي الرسم فالأدب فالموسيقى فالميكانيكا فالعلوم ، ويحيط في آخر الأمر ما أسماه « الثورة » . . أما الكاتب الألماني بول ليغيتي Paul Ligeti ، فيرى أن تطور الحضارات جميعاً بدأ « بالمرحلة المعمارية ، التي تنطوي على الترتيب والجهد والقانون والنظام والدين ، ثم تستمر خلال « مرحلة لدائن » وهذه المرحلة بمثابة توحيد لمراحل سابقة وأخرى لاحقة ، تتجه بعدها إلى « مرحلة الرسم » التي تعبر عن التقدم ، والحرية ، وقابلية الحركة ، والاضطراب ، والمادية ، والانتقاع ، وسيادة العقل على الإيمان .

وهناك مؤلفون آخرون قدموا نظريات تقدمية تؤكد أن جميع أشكال الفن تمر ، بداخل كل حضارة<sup>(١)</sup> ، بأطوار متماثلة من حيث المولد والنمو والذبول ، مثل : المرحلة القديمة ، ثم المرحلة الكلاسيكية ، وأخيراً مرحلة التدهور .

ولقد لخص مفكر ، واسع الاطلاع في التاريخ ، النظريات الخاصة بالقيمة

---

(١) سنحافظ هنا على ترجمة كلمة Phase بالطور ، وكلمة Stage بالمرحلة ، لا في كلمة طور من مدلول كيني وكلمة مرحلة من مدلول زمني ( المترجم ) .

المحدودة لكل هذه النظريات التي تحاول أن تقيم تشابهاً في تطور الفن في الثقافات المختلفة ، في العبارة التالية :

[ من الصعب القول بوجود أوجه شبه كثيرة بين أنظمة الفن في حضارات مختلفة في المسائل الصغيرة والكبيرة ] .

ويختلف عن ذلك تماماً ، القول بأن المراحل الرئيسية لتاريخ جميع أنظمة الفن واحدة ، وبأنه يوجد تتابع موحد لهذه المراحل ، ومن ثم فإن الخط البياني لكل أنظمة الفنون يتوافق فيه نفس التناسق من الناحية العملية بما في ذلك ذروة مجدها في الحقبة الكلاسيكية وانحدار الاتجاه في الفترات الأولى ( القديمة ) ، والفترات الأخيرة ( بعد الكلاسيكية ) ، ويبدو لي أن هذا الزعم يستدعي نقاشاً ، إذ أن هناك ما يؤكد هذا الشك .

بيد أنه إذا لم يُبالَغ في هذه القواعد ، فإنها تكون ذات قيمة تأملية عالية هامة . وذلك لأنها تزيل ، إلى درجة لا بأس بها ، ذلك الغموض الكشيف الذي يكتنف الأحداث التاريخية غير المفهومة . . . وليس من شك في أن كثيراً من التعميمات السابقة تكون صحيحة تماماً ما دامت لا تتخطى حدودها المشروعة .

وفيما عدا فلسفات التاريخ الجمالية هذه التي يقتصر مجالها على التعبير الفني للحضارات ، حاولت فلسفات أخرى كثيرة تقييم الأزمة الحالية للحضارتنا بإزاء الأساس الأعرض للتاريخ في جميع مظاهره وتجارب الحضارات الأخرى ، واجتذبت هذه الفلسفات أعظم اهتمام في عصرنا لأنها تمس

ما يشعر الناس غريباً بأنه لُبُّ الموضوع : هل يحمل التاريخ في ثناياه دليلاً على مستقبل الحضارة الغربية ؟

وللأسباب التي بينها آفناً ، سنقتصر ، في هذا الكتاب ، على التفسيرات التاريخية لأزمة حضارة القرن العشرين ، لما يبدو من أنها أكثر أهمية بسبب قيمة محتوياتها من ناحية ، ونتيجة التأثير الذي أحدثته على عقول جيلنا من ناحية أخرى ؛ ولن نشير إلى المؤلفات الأخرى إلا عندما يتلاءم ذلك مع خط المناقشة العام ، وبذلك يمكننا أن نفيد - في المجالات العلمية التي طرقها الآخرون - بما قاموا به من عمل ، ونعتمد على نتائجهم كلما بدت سليمة ، بعد تأمل دقيق .

وإذ نركز على أساس علمي موثوق به ، فإننا سنحاول تقدير الحقيقة التي حولنا ، وسنحاول أن نتأمل آفاق المستقبل .

والواقع أن ذلك يعني أننا سنحاول أولاً أن نعثر على خصائص معينة لنشوء الحضارات وانهارها ( الجزء الأول ) ، ثم نقيس عصرنا الحالي بهذه الخصائص ( الجزء الثاني ) ، ثم ، وأخيراً ، نستخلص النتائج فيما يتعلق بمستقبل الحضارة الغربية ( الجزء الثالث ) .

## - ٢ -

### وجهة نظر روسية : نيقولاى دانييلفسكى

ليس من شك فى أن الفكرة القائلة بأن التاريخ يعيد نفسه — بالنسبة لنشوء الحضارات وانهيارها — ليست بدعة من بدع زماننا ، فقد آمن الفلاسفة الرواقيون - أتباع زينون - ومكيافلى « Machiavelli » ومونتاني « Montaigne » وغيرهم بفكرة مماثلة ، إلا أن أحداً منهم لم يحاول أن يختبرها بدقة إزاء الحقائق التاريخية .

وكان أول من انتقد هذه الفكرة على نحو بسيط هو الفيلسوف الإيطالى جيوفانى باتيستا فيكو « Giovanni Battista Vico » ، الذى وضع نظرية « الدورات التاريخية » ، ففى رأيه أن كل أمة مرت بدائرة مماثلة ، حيث نشأت من « عصر بطولة » ، بربرية الأحاسيس . ثم انتقلت إلى طور الحضارة الحقيقية . . . . . وبعدئذ أصيبت بالانتكاس ، وعادت إلى « بربرية التأمل » المضمحلة بشكل لا يتصوره العقل ، وأغلقت بعد ذلك دورة الحضارة — فقط لتتلوها دورة جديدة مشابهة لسابقتها ، ولكن بقيم حضارية وثقافية جديدة ، ومن ثم فإنها تكون أكثر دسماً من سابقتها .

ومضى على ذلك من الوقت مائة وخمسون عاماً ، قبل أن تحدث مقارنة أخرى أكثر دقة بين حضارات مختلفة : وحتى هذه المقارنة تمت خبط عشواء أثناء إجراء دراسة تعالج موضوعاً مغايراً .

ففي عام ١٨٦٩ ، أعد نيقولاى دانييلفسكى « Nikolai Danilevsky » - وكان موظفاً ناهياً في الحكومة الروسية - دراسات حول موضوعات متشعبة كثيرة : فن التاريخ إلى اللغات ، ومن النظرية الداروينية إلى انخفاض قيمة الروبل الروسى ، ونشر في مجلة زاريا « Zaria » سلسلة من المقالات بعنوان « روسيا وأوروبا : وجهة نظر في العلاقات السياسية بين العالم السلافى والعالم الجرمانى - الرومانى » . وأثارت هذه المقالات اهتماماً بالغاً في روسيا فور نشرها ، ولكن ترجمتها الفرنسية لم تنشر حتى عام ١٨٩٠ ، والألمانية حتى عام ١٩٢٠ ، أما الترجمة الإنجليزية فلم تظهر بعد ، ولذلك فإن آراءه ليست معروفة كثيراً حتى الآن في العالم الأنجلوسكسونى . غير أن تلك الآراء واسعة المجال وذات طابع تغلغلي بحيث يمكن أن نعتبر نيقولاى الرائد الروحى لحليفتيه المشهورين فى هذا المضمار وهما : شبنجر « Spengler » ، وتوينبى « Toynbee » ، وإن كان أحدهما لم يشر إليه ، ولعل ذلك راجع إلى أنه لم توجد - فى ذلك الحين - أية ترجمة لكتاباته باللغة التى كان يعرفها كل واحد منهما .

ولم تكن غاية مقالات دانييلفسكى ، كما هو واضح من العنوان ، إيجاد فلسفة مقارنة للحضارات ، وإنما كانت ، أساساً ، تأملاً للعلاقات بين أوروبا وروسيا ، وإيضاحاً لأسباب ما يشوب هذه العلاقات من عداوة ، ولماذا بقيت هكذا خلال الأجيال . وينسب الكاتب هذه الحقيقة إلى الكراهية الفطرية التى تكنها أوروبا لروسيا ، وإلى أن أوروبا تعتبر روسيا بلداً غريباً عنها . ويرجع هذا الحقد - بدوره - إلى حالة الانهيار التى تعانىها الحضارة الأوروبية فى الوقت الذى تنهض فيه الحضارة الروسية .

إن الصورة التي رسمها المؤلف الروسي للروح المعادية التي أبدتها أوروبا نحو روسيا على مر القرون ، وعدم الثقة التي ترد بها على إخلاص روسيا ، لهو أمر أكثر أهمية اليوم ، على الأقل من ناحية المفهوم الذي تقدمه عن الطريقة التي تنظر بها العقلية السلافية إلى أوروبا . ومهما يكن من أمر ، فإن هذا الجزء من دراسة دانييلفسكي لا يتناسب — على نحو مباشر — مع موضوع هذا الكتاب ؛ لذلك سنقتصر على أن نوصي جميع المهتمين بالعلاقات بين روسيا والغرب بأن يقرأوا ما كتبه هذا المؤلف .

وعلى هامش الصورة التي رسمها لهذه الخصومة بين أوروبا وروسيا ، أقام دانييلفسكي نظريته الخاصة بتطور ما أسماه « الأنماط التاريخية — الثقافية » وهو ما سنطلق عليه نحن « الحضارة » .

يقول المؤلف الروسي :

[ ليست الحضارة الأوروبية هي الحضارة العالمية بآية حال من الأحوال — كان هذا الرأي جديداً في ذلك الحين <sup>(١)</sup> — وهي ليست أيضاً بالحضارة الديناميكية أو الحضارة التقدمية الوحيدة . إنها حضارة من حضارات كثيرة تحتوى فقط على منطقة الحضارة الجرمانية الرومانية ، وقد نشأت معظم الحضارات الأخرى ، بما فيها الحضارة الإغريقية « Hellenic » — إلى حد ما —

---

(١) العبارات الموضوعة بين علامتي اعتراض (—) ومن وضع المؤلف .

خارج أوروبا . وهذا ما فعله الروس ، لأن  
روسيا لا تتبع أوروبا باعتبارها جزءاً أو حتى  
فرعاً من حضارتها ، ولم تسهم بأي نصيب في  
حياة أوروبا وتجاربها ، ولكنها استمتعت  
بكيان خاص بها [ .

ومن ثم ، فبعد أن هاجم دانييلفسكى « الانطواء والتركيز على الذات ،  
الذات كان يميز — حتى ذلك الحين — رأى الغرب في التاريخ والحضارة ،  
اتجه إلى بسط أبحاثه ، فقال إن مجموع تاريخ البشرية يتألف من عدد من  
الأنماط التاريخية — الثقافية المختلفة ، وإن لكل منها خصائص ذاتية ، ودوراً  
في رصيد البشر الحضارى . ويميز دانييلفسكى اثنتى عشرة حضارة ، هى — حسب  
الترتيب الزمنى : الحضارة المصرية ، فالصينية ، فالأشورية — البابلية ،  
فالفينيقية — الكلدانية أو السامية القديمة ، فالهندية ، فالفارسية ، فالعبرانية ،  
فال يونانية ، فالرومانية ، فالعربية أو السامية الجديدة ، فالجرمانية —  
الرومانية أو الأوربية . أما في نصف الكرة الغربى فهناك حضارة المكسيك  
وبيرو وقد واجهت كلتاها انهياراً عنيفاً بغير أن تكتملا مجرى حياتهما .

ويقسم دانييلفسكى القبائل والشعوب البشرية إلى ثلاث مجموعات حسب  
الدور الذى تلعبه بالنسبة للحضارة . أما المجموعة الأولى فتضم أولئك الذين  
يشكلون القوى الإيجابية ، أى القوى الخلاقة التى أنتجت الحضارات السابقة  
ذكرها ، وتضم المجموعة الثانية الشعوب التى تلعب دوراً سلبياً أو هداماً ،  
مثل المغول والهنون والترك فى الأزمنة الغابرة . وتضم المجموعة الثالثة

الشعوب التي لم تبلغ مستوى الحضارات ، ولا تلعب دوراً في هدمها ، وهي تشكل الجماهير غير المتبلورة التي لا تصنع تاريخاً سواء في الاتجاه الإيجابي أو السلبي ، وإنما تستخدمها القوى التاريخية الإيجابية أو السلبية كأداة سلبية لنشاطها وعملها . فهو يقول في ذلك ما يلي :

[ وإلى جانب أنماط الثقافة الإيجابية للحضارات ، توجد في العالم البشري عوامل مؤقتة ومتقطعة مثل « الهون ، و « المغول ، والترك القدامى ، الذين أدوا دورهم التخريري وساعدوا الحضارات التي كانت في سبيل التدهور ، على الانهيار ، وشتتوا بقاياها ، وهكذا عادت إلى حالة العدم التي كانت عليها أول الأمر ، ثم لم تلبث أن اختفت ، ويمكننا أن نطلق عليها «العوامل السلبية» ، في التاريخ ، بيد أنه يحدث أحياناً أن تلعب المجموعة البشرية الواحدة دوراً إنشائياً وتخليقياً ، مثلما فعل الجرمان . وأخيراً هناك قبائل أو شعوب تتوقف وثبتها الخلافة لسبب ما ، في مرحلة مبكرة ، ومن ثم فإنها لا تكون عوامل تاريخية إيجابية أو سلبية ، وإنما هي تمثل فقط « عناصر في نشوء السلالات ، ونوعاً من عوامل غير عضوية تدخل

فى التكوينات التاريخية أى الأنماط التاريخية  
— الثقافية . . . وليس من شك فى أن هذه  
القبائل تزيد من تنوع الأنماط التاريخية  
وثنائها ، ولكنها لا تشكل فى حد ذاتها  
أى تفرد تاريخى .

« وفى بعض الأحيان ، تتحلل  
الحضارات المتدهورة إلى مستوى المادة  
السلالية هذه ، إلى أن يظهر مبدأ إنشائى  
خلاق جديد يربط عناصرها بتخليط من  
العناصر الأخرى ، ويكون منها بنى تاريخياً  
جديداً ، وبذلك يصل بها هذا المبدأ الجديد  
إلى حياة تاريخية مستقلة فى شكل طراز  
تاريخى — ثقافى جديد . ومن الأمثلة على  
ذلك ، الشعوب التى أقامت الإمبراطورية  
الرومانية الغربية ، فقد أصبحت « مادة  
سلالية » بعد تحلل الإمبراطورية ثم ظهرت  
مرة أخرى فى شكل جديد يُعرف بالشعوب  
الرومانية بعد أن تعرضت لتأثير المبدأ  
الجرمانى .

« صفوة القول : إن للدور التاريخى  
الذى يلعبه الشعب أو القبيلة ثلاثة وجوه :

فهو إما أن يكون دوراً إيجابياً خلافاً من الطراز التاريخي — الثقافي ( حضارة ) أو دوراً هداماً — وهو ما يعرف بالعقوبات الإلهية التي تدفع بالحضارة من ذروة النشاط إلى هوة الشيخوخة والعذاب ، أو الدور الذي يخدم أغراض الآخرين كعادة سلافية .

ويعنى دانييلفسكى بعد ذلك فيشكل خمسة قوانين ومتشابهات عامة ، تنطبق على جميع الشعوب في أطوار التقدم القابلة للمقارنة — من بينها قانون معين ( القانون الرابع ) يؤكد أهمية تنوع واستقلال المادة السلافية للحضارة ، وهو هام جداً في عصرنا الراهن ، ومن الجائز أن تزداد هذه الأهمية في المستقبل ، ولهذا سنعود إلى التحدث عنه في الجزء الأخير من هذا الكتاب — وما يهمنا هنا من أمر هذا القانون هو أن دانييلفسكى ، الذي كتب رأيه قبل « توينبي » بثلاثة أرباع القرن ، وضع المبدأ القائل بأن « الحضارة هي الوحدة الحقيقية للدراسة التاريخية .. ولهذا يستحيل أن نجد — في اليونان القديمة — تاريخاً خاصاً لاثينا أو إسبرطة منفصلاً عن نطاق الحضارة اليونانية ، وكذلك في أوروبا ، تتعذر دراسة تاريخ فرنسا وألمانيا وإيطاليا خارج المجرى العام للحضارة الأوروبية .

ومن ناحية أخرى ، تكون للدول التي لا تدخل في نطاق حضارة واحدة ، صفة مشتركة ضعيفة ، وفي معظم الأحيان ، تكون تواريخها مستقلة بعضها عن البعض الآخر .

وفيما يتعلق بموضوع هذا الكتاب ، فإن قانون داينلفسكى الخامس هو أهم قوانينه جميعاً . إن هذا القانون ينص على ما يلى :

[ إن مجرى تطور الأنماط التاريخية —  
الثقافية شبيهٌ بمجرى حياة الأنماط الدائمة  
التي تستمر مرحلة نموها بلا نهاية . ولكن  
فترة ازدهارها وإثمارها تكون قصيرة  
نسبياً فيصيدها الإنهاك والعقم بصفة نهائية ]

وفي صياغة هذا القانون ، يدعى المؤلف أن النمط الثقافى — التاريخى  
يمر — عادةً — بثلاثة أطوار من النمو هى :

١ — الطور الأول ، أو القديم : وهو مرحلة المادة السلافية التى قد تستمر  
آلاف السنين وتنتهى بالانتقال من شكل الحياة العشوية ( السلافية )  
إلى مجتمع منظم .

٢ — الطور الثانى ، أو المرحلة المتوسطة . ويتضمن عملية بناء  
الاستقلال الثقافى والسياسى ، وهو طور تجميع وتنظيم القوى الخلاقة  
تمهيداً للطور الثالث .

٣ — الطور الأخير ويطلق عليه المؤلف اسم « مرحلة الحضارة » :  
وفى هذه المرحلة يبلغ النمط الثقافى — التاريخى أوج ازدهار طاقته  
الإنتاجية الخلاقة ، وتحقيق مثله العليا فيما يتعلق بالفرد والرفاهية الاجتماعية .

وهذا الطور قصير نسبياً — من أربعة إلى ستة قرون تقريباً — لأن نشاطه الخلاق أشبه ببالوعة تستنزف قواه ، وليست هناك حضارة وهبت ، امتياز التقدم اللانهاى ، نظراً لأن كل شعب يُنهك ويُستنزف قواه الخلافة فى النهاية . وبالتالي ، فإن هذا الازدهار يتبعه ، لا محالة ، انحدار الحضارة وتفككها ، وهى حالة كان ينبغى أن يعتبرها دانييلفسكى مرحلة رابعة ، ولكنه لم يفعل ذلك . . . وتبدأ عملية التحلل تلك ، ككثير من عمليات الطبيعة ، قبل أن تصبح ظواهرها الخارجية ملحوظة بوقت طويل ، فكما يبلغ الصيف ذروة حرارته عندما يبدأ النهار فى القصر مرة أخرى ؛ وكما تحدث أعلى درجات حرارة النهار بعد أن تتجاوز الشمس أوجها ؛ وكما تكون أعلى نقطة فى حياة الإنسان فى منتصف العمر بعد انتهاء مرحلة أقصى طاقة الإنتاجية ؛ كذلك يبدأ انهيار الحضارة ، وهى لا تزال بعد مزدهرة وتبدو للعيان فى أوج قمتها .

ويدعى المؤلف أيضاً ، وهو يشير إلى أوروبا بصفة خاصة ، أنه كلما ازداد ضعف القوى الخلاقة ، ازدادت الرغبة فى التوسع ونمت الرغبة فى السيطرة على العالم .

ويتبدى الانحطاط إما على شكل حالة من التبدل والجمود والاكتفاء الذاتى ، وهى حالة تنطوى على تقليد أشكال الماضى بلا نهاية باعتبارها مثلاً أعلى متحجراً ، أو يظهر فى فترة تسودها متناقضات سياسية واجتماعية تمزق الجسد والروح معاً ، وهى فترة منازعات ويأس ، وعادة ما ترقد هذه الفترة فى النهاية إلى حالة « التبدل والجمود » .

تلك هي الخصائص الرئيسية لفلسفة دانييلفسكى العامة من حيث اتصالها بدراستنا هذه . وكما سيتضح من الفصول القليلة التالية فإن كل واحدة منها تشكل — على وجه التقريب — نواة لفكرة تناوّلها فيما بعد « شبنجر » ، وإلى حد ما « توينبي » ، بالتوسع . ووجوه التشابه بينهم بارزة نظراً لأن الآخرين لم يكونوا يعلنان بأفكار دانييلفسكى . ونظراً لأن دانييلفسكى لم يعتبر نفسه أوروبياً ، فإنه كان يكتب من وجهة نظر حضارة مختلفة .

وعلى أساس الأفكار التي أوجزناها فيما سلف ، وصل دانييلفسكى إلى التفسير الذي قدمه للعداء الفطري بين الحضارة الأوروبية والحضارة السلافية الروسية ؛ وتكبر الأولى الثانية بحوالى خمسمائة عام . وكانت الثانية تنتقل آنذاك من طورها الثانى إلى طور الحضارة أو الازدهار ، بينما كانت الأولى قد بلغت نهاية هذه المرحلة .

وفى رأى دانييلفسكى ، أن تدهور الحضارة الأوروبية بدأ مع بداية القرن السابع عشر ولكن التدهور ظهر جلياً فى القرن التاسع عشر كما يتبين من ضعف الإبداع وتدهور الدين وما صحب هذا التدهور من محاولة متزايدة من جانب أوروبا للسيطرة على العالم فى الميادين السياسية والاقتصادية والثقافية . ولما كانت أوروبا تسعى إلى فرض ثقافتها على العالم كله ، لم يكن من المستطاع أن تنمو الصداقة بينها وبين الحضارة الروسية الفتية التي تضطلع برسالة تاريخية هي كبح جماح شهوة أوروبا فى السيطرة . ويقول دانييلفسكى إنه يوم تستقر أوضاع أوروبا الداخلية فلن يمكن تجنب الحرب بينها وبين السلافيين المتحدين ، وسوف تخرج الكتلة السلافية من هذه الحرب منتصرة على أوروبا الهرمة منهوكة القوى لتلعب دورها فى زعامة العالم .

والواقع أن هذه النظرية مألوفة الآن أكثر مما كانت عليه الحال في الوقت الذي كتبت فيه ، وليس من شك في أنها تبرر التقدير الذي أسبغته عليها فيلسوف معاصر روسي المولد هو « سوروكين » الذي قال :

[ بدأ دانييلفسكي سرد آرائه على هيئة نشرة من طراز ممتاز ، ولذلك أظهرت محتوياتها السياسية ببراءة جعلتها تصبح بحثاً ممتازاً عن فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع الحضاري ، وانتهت بأن اتخذت شكل فقررة لمحة وصحيحة — بشكل غير اعتيادي — عن الاستدلال والتنبؤ السياسي ، وليس من العسير على المرء ، عند قراءة أجزائها السياسية ، أن يفتن إلى التشابه الواضح بين آراء دانييلفسكي بشأن العلاقات الروسية الأوربية من ناحية وآراء الحكومة السوفيتية في الموضوع نفسه من ناحية أخرى ، فإذا استبعدنا المصطلحات الماركسية ، وتفصيلات أخرى مكملية ، تبين لنا أن إيديولوجية القادة السوفيت فيما يتعلق بالعلاقات الروسية الأوربية متشابهة مع آراء دانييلفسكي ]

## — ٣ —

### رأى شبنجلر في الحضارات

كان أوزوالد شبنجلر شخصيةً فذةً ، ففي رأسه غريب التكوين الشبيه بالبيضة أو كرة البلياردو ، تكونت نظرية عن حياة الحضارات وموتها ، كان لها تأثير كبير جداً على الفكر الحديث .

ولقد أحدث كتاب شبنجلر المسمى « انهيار الغرب » ، الذي نبتت فكرته في رأسه من قبل وكتبه ونشره بعد الحرب العالمية الأولى ، تأثيراً عميقاً في أوائل السنوات العشرينية على أوروبا التي كانت تتفض من الإنهاك ، وترتعش بعنف نظراً لما أصابها في صميم سيادتها بوصفها القائد الطبيعي للعالم ، وبوصفها مصدر كل إنتاج ذهني وصناعي ومصدر رؤوس الأموال . وللأسباب ذاتها تجدد الاهتمام ، بعد الحرب العالمية الثانية ، بمؤلفات شبنجلر ، وتبدى ذلك في عدد من الدراسات الجديدة وفي إعادة طبع كتبه الأصلية في ألمانيا ، والولايات المتحدة ( وحتى في أوروبا نفسها ) ، حيث كان لاسمه وقع مخيف وحيث يتعرض الكثيرون لخطر الوقوع فرائس لفكرة « انهيار الغرب » ، التي تصيب بالشلل القراء القلائل لكتابته .

ومهما يكن من أمر ، فإن عدداً كبيراً من القراء قد راحوا يبحثون في ذلك الكتاب - الذي يتكون من مجلدين - عن إجابة شافية لقلوبهم . ولئن

كان المفروض أن قراءة أى بحث يدور حول مثل هذا الموضوع تُعتبر قراءة عسرة ، ففي هذه الحالة ، تضاعفت صعوبة القراءة نتيجة لظرفين إضافيين ... ذلك لأننا إذا صرفنا النظر عن موضوع الكتاب نفسه ، فإن أسلوب الكتاب - وهو على خالص - أسلوب جاف ومعقد . وبالإضافة إلى ذلك ، فإن مادة الكتاب معقدة نظراً لاختلاطها بعناصر تنبع من نظرة المؤلف الشخصية للحياة ، واسكنها غربة تماماً على الموضوع لأن شبنجر كان روسياً وعسكرياً بمعنى الكلمة ، والأفكار التى سبق أن كوّنّها فى ذهنه - وهى تنطق بعنف لا هوادة فيه فى كل صفحة من صفحات كتابه - تشهد على موقف شبنجر من الحياة ، وهذا سبب إضافى يوضح لماذا يبدو هذا الكتاب غير مقنع ، بل ومنفر إلى حد ما ، فى نظر القارىء العادى فى أى بلد ديمقراطى . وقد أدى ذلك - لسوء الحظ - إلى طمس ثروة الحقائق والأفكار الموجودة فى هذا الكتاب عن أعين جمهرة الناس فى كثير من الدول وبالأخص تلك التى تتكلم اللغة الإنجليزية . بيد أنه إذا حاول المرء غربة كتابات شبنجر بدلا من تفسيرها ، فإن يلبث أن يرى صورتين مختلفتين لشبنجر تبرزان من ثنايا هذه المؤلفات الضخمة : إحداهما لشبنجر الأوتوقراطى العسكرى رائد الاشتراكية القومية ، والأخرى لشبنجر العالم ، المفكر ، الفيلسوف ، الملهم ... والأولى هى شخصية الأب الروحى لهتلر ، والثانية هى شخصية الابن الروحى لجوته . ولا ريب فى أن هذه الشخصية المزدوجة المتنازعة أحدثت تأثيرها الدائم فى روح شبنجر مثلما فعلت طبعاً فى روح الشعب الألمانى كله ، ويمكن أن يُستشف ذلك فيما يديه من عنف وسورة فى نبذ المفاهيم الهادئة ، مثل عدم الانحياز ،

والأخلاقية ، والمثالية ، والفلسفة ، فإن الرجل الذى يخشى التأثر بمثل هذه المفاهيم هو وحده الذى يستطيع أن يرفضها بمثل هذا العنف الذى لا ضابط له .

إن المتأمل المنصف الذى يحاول أن يفرق بوضوح ، على قدر المستطاع ، بين هذين الجانبين فى إنتاج شبنجر ، لن يلبث أن يجد أنه من الممكن فصلهما إلى حد كبير . فإن التشابه العام فى تطور مختلف الحضارات الذى يحاول أن يثبته يمكن قبوله ، ولكن دون قبول تقدير الاستحسان أو الاستهجان الذى يضعه شبنجر فى مختلف أطوارها ، وبغير قبول جميع الأمثلة التى يستخدمها ، أو المواقف المتطرفة التى يحاول أن يدفع نظامه إليها ..

ولكى نحاول فصل هذين الطورين سنبين فى الفصل التالى عدداً من المفاهيم الأساسية التى يقوم عليها تقدير شبنجر الشخصى للأزمة والحقائق والأشخاص ، وهى مفاهيم يمكن إعتبارها تحاملاً — غير مقبول — على حضارة لها جذورها فى الإيمان الدينى ، وحرية الإنسان .

فإذا استبعدنا حواشى هذا التحامل ، فإن الإطار القوى التأثير الذى يقارن شبنجر الحضارات بداخله ، يظل متماسكاً .

فما هو هذا الإطار ؟

## مبوهر فلسفة شبنجر عن الحضارات

إذا اخترنا فلسفة شبنجر إلى أبسط صورها فإنها تصبح على النحو التالي :

إن الحضارات ، شأنها في ذلك شأن جميع القوى الطبيعية ، تتبع نمطاً مشتركاً ، من المولد ، والنمو ، والانحدار ، والموت ، ومن ثم فمن الممكن أن نجد تشابهاً بين مجريات حياة الحضارات المختلفة ، وأن نعقد مقارنة بين المراحل المتتالية لكل حضارة كما تتمثل في سياستها وإقتصادها ودينها ، وفنّها ، وعملها والنواحي الأخرى في المجتمع المنظم ، وقد أجرى شبنجر هذه المقارنات بمئات الأمثلة ، أما تأثيراتها فذهلة أحياناً ، وباعثة على السخرية أحياناً أخرى ، وعلى هذا النحو أنشأ رأيه في « مورفولوجيا الحضارة » وهو علم حياة الحضارات وموتها .

فإذا كان بحث شبنجر الأساسي صحيحاً ، فإن هذا العلم لا يمكننا من إجراء مقارنات بين مراحل ماضية للحضارات لحسب ، وإنما يمكننا أيضاً من التنبؤ بمستقبل حضارتنا ، وهذا هو ما فعله شبنجر فأحدث بذلك مثل هذا التأثير العميق في عالمنا الغربي . ولكي يمكن الحكم على نتائجه ، يجب أن نتأمل أولاً الطابع العام للحضارات كما رسمته يد شبنجر البارعة . لقد نما شبنجر نحو جوته في مقاله « Geistesepochen » ، فيز بين أربعة أطوار متعاقبة للثقافة : طورها الإبتدائي ، ثم المبكر ، فالتأخر ، فالمختصر . إلا أن شبنجر يستعمل كلمة « ثقافة » وحدها للتعبير عن المرحلتين « المبكرة » ،

و « المتأخرة » ، أى مرحلتى الازدهار والإثمار ، ويحتفظ بكلمة « الحضارة » ،  
للمرحلة الأخيرة ، أى مرحلة العقم والتجبر . . . فالثقافة فى تعبيره  
اللغوى هو ما يطلق عليه معظم الكتاب « الحضارة الحية » . والحضارة فى  
تعبيره اللغوى هى ما قد يطلق عليه معظم الكتاب الآخرون « الحضارة  
المتحضرة » .

وتسبق مولد « الثقافة » فترة تُعرَف باسم « فترة ما قبل الثقافة » ، وهى  
فترة تتوسط ثقافتين من الناحية الزمنية أو المكانية ، وفى هذه الفترة يولد  
الناس ، ويعيشون ، ويحيون ، ويعملون ، ويموتون كالعادة ، إلا أن نظام  
المجتمع لا يأخذ أثناءها شكل المنظم ، ولا ينتج أية ديانة ، أو فن ، أو علم  
على قدر من الأهمية بحيث يشكل « ثقافة » . إنه مجتمع « لا تاريخ له » ، حسبما  
عبر شبنجلر عنه ، ومعنى ذلك أنه لا يحتوى على أحداث ذات أهمية لتطور  
الحضارة ، ولو أنه يشتمل ، بلا ريب ، على أحداث هامة بالنسبة لمعاصرى  
تلك الفترة .

فبالنسبة لحضارتنا الغربية ، فإن فترة « ما قبل الحضارة » تتمثل فى العصر  
الواقع ما بين عامى ٥٠٠ و ٩٠٠ بعد الميلاد . وفيما يتعلق بالحضارة الكلاسيكية  
فإنها تتمثل فى العصر الواقع ما بين ٦٠٠ و ١١٠٠ بعد الميلاد .

ويتضح مولد إحدى « الثقافات » ، بظهور أسلوب قوى وبسيط فى مجال  
الفنون أو العلم أو الدين ، ويقترن مولد الثقافة عادةً بمولد الأسطورة ذات  
الأسلوب الرفيع ، مثل « الفيدا » ، فى الهند ، وملاحم هوميروس فى اليونان ،  
وأساطير القرون الوسطى الجرمانية فى أوروبا . وإستناداً إلى هذه الأعراض ،  
يمكن أن يُحدد مولد الثقافة الكلاسيكية القديمة بأنه تم حوالى عام ١١٠٠

قبل الميلاد ، بينما تم مولد الثقافة الأوربية حوالى عام ٩٠٠ بعد الميلاد .  
وتتميز الفترة الأولى أو المبكرة في المجال السياسى بالإقطاع ، إذ أن  
الأرض هى المصدر الرئيسى للإنتاج ، ومن ثم فإن الريف ، ومالكه ،  
وحاكمه ، والنيل الإقطاعى تصبح لهم السيطرة السياسية ، أما المجال الروحى  
فإنه يتميز بمولد مثالية الفروسية الدينية . ومن الناحية الإقتصادية ، فإنها  
تكون زراعية أساساً ، ذلك لأن « المدينة » لا تزيد فى هذه الفترة عن كونها  
سوقاً أو حصناً . ويؤدى الصراع الذى ينشب بين الأرقاء وبينهم وبين مالك  
الأرض إلى تفكك النظام الإقطاعى تدريجياً ، ويؤدى بالتالى إلى قيام دول  
ارستقراطية وإلى نشأة المدن ؛ وبذلك تنتهى الفترة الأولى ، ويتمثل هذا  
التطور فى حكم « أسرة شو » المبكر فى الصين ( ١٣٠٠ — ٨٠٠ ق . م ) ، وفى  
أوروبا فى الإمبراطورية الجرمانية — الرومانية ، والصليبيين والصراع بين  
الإمبراطورية والباباوية ( الفترة القوطية : من ٩٠٠ — ١٥٠٠ ميلادية ) .  
وبنشأة المدن ، تبدأ مرحلة جديدة هى « مرحلة الثقافة المتأخرة » ،  
وتتمثل هذه المرحلة عند اليونان فى الفترة الأيونية ( ما بين ٦٥٠ ، ٣٠٠ ق . م ) ،  
وتتميز بازدهار دولة المدن ، وتبلغ ذروتها فى عصر بركليس  
الذهبي ، أما فى روما فتتمثل فى استبدال حكم الملوك بحكم النبلاء ، وما أعقبه  
من الصراع بين النبلاء والعامة . أما فى الحضارة الغربية فتتمثل فى فترة  
« الباروك » ( ١٥٠٠ — ١٨٠٠ ) ، غير أن أصلها يجب أن يُرجع إلى مدن  
عصر النهضة فى إيطاليا وفرنسا ، ومدن « هانسا » فى شمال غرب أوروبا .  
وقد انتهت هذه الفترة بالنصر النهائى الذى أحرزته الجمهورية الثالثة بعد  
الثورة الفرنسية . بينما تتمثل فى الصين فى الفترة الأخيرة لحكم « أسرة شو »

( ٨٠٠ — ٥٠٠ ق . م ) التى تعتبر نهايتها متمثلة فى سقوط حكم «أسرة شوء» فى عام ٤٤١ ق . م . وهو حدث يشبه الثورة الفرنسية .

إن العلامة المميزة لهذه الفترة « المتأخرة » ، هى ازدهار المدن وتفوقها . ولم يبرز أحدٌ هذه الظاهرة مثلاً أبرزها شبنجر حينما قال « إن تاريخ العالم هو تاريخ المدينة » ، وفيما يلى ما قاله فى هذا الصدد :

[ ومن النتائج القاطعة أن كل الحضارات الكبرى هى حضارات المدن ، فإن الإنسان الأعلى فى العصر الثانى هو حيوان مرتبط بالمدينة . وهنا يكمن المعيار الحقيقى لتاريخ العالم الذى يميزه بشكل قاطع عن تاريخ الإنسان — إذ أن تاريخ العالم هو تاريخ الإنسان المتمدين — وتستند الشعوب والدول والسياسات والدين وجميع الفنون والعلوم إلى ظاهرة واحدة أساسية من الظواهر البشرية ، هى المدينة . .

« ولكن المعجزة الحقيقية هى مولد روح المدينة . . فإن ما يميز المدينة عن القرية ليس هو حجمها ، بل وجود روح فيها ، [ المجلد الثانى ، الفصل الرابع .

ولقد أوجدت المدن الطبقة البورجوازية التى تستولى تدريجياً على السلطة

السياسية والاقتصادية والعسكرية ، وتتولى زمام القيادة من الطبقتين الأصليتين في كل ثقافة ، وهما طبقتا النبلاء الإقطاعيين ورجال الدين . وفي ميدان الفن والعلم تتمخض هذه الفترة عن عدد من الفنون المدنية الواعية تتولاها أيدي أفراد موهوبين . إنها فترة الأساتذة العظماء ، وقد تمثلت في عظماء النحاتين والمعماريين والفلاسفة في القرن الخامس في اليونان ، وفي عظماء الرسامين في المدارس الإيطالية والهرلندية ، والموسيقيين الألمانين ، ودعاة الإصلاح والإنسانية ، وجاء من بعدهم أنصار مذهب التعقل الإنجليز في القرن السابع عشر ، ورجال دوائر المعارف الفرنسيون في القرن الثامن عشر ... ففي المدينة :

[ كلما ازداد الإنسان ضعفاً زادت حدة إحساسه وقوة عقله ، وتحوّل الإنسان إلى كائن ذكي حر كالقوم الرّحل الذين أصبح يحاكيمهم ، ولكنه أكثر تقيداً في حركته عنهم ، وأشدّ برودةً منهم ، وتصطبغ سائر الفنون والأديان والعلوم بالصبغة الذهنية ببطء ، وتصبح غريبة عن الأرض ، غير مفهومة عند الفلاح ، ]

وفي النظام الاقتصادي والمفاهيم الاقتصادية في المدن ، يصبح المال قوة مستقلة ، وتنقطع صلته بالأرض . وهكذا فإن العملية كلها تتمثل ، باختصار ، في انتصار المدينة على الريف ، وانتصار المال على الأراضي

العقارية ، وانتصار المثقفين على التقاليد ، والجمهير على الاجناس صاحبة الامتيازات .

وفي النهاية ، ندخل في الطور الذي يطلق شبنجر عليه اسم « الحضارة » ، وهي فترة فناء كل ثقافة ، إنها قترتها النهائية ، ولكنها الأقل خلقاً ، وهذه الفترة هي أهم الفترات من وجهة نظرنا لأن الحضارة ، كما يقول شبنجر ، قد دخلتها مع مجيء نابليون .

ويمكن تقسيم هذا الطور ، من الناحية السياسية ، إلى فترتين منفصلتين واضحتين . وأحسن صفة يمكن أن تطلق على الفترة الأولى ، هي الاسم الذي أطلقه التاريخ الصيني عليها : فترة الدول المتنازعة ؛ وعنها يقول شبنجر ،

[ يسمى المؤرخون الصينيون الفترة ما بين

٤٨٠ — ٢٢٠ ق . م « فترة الدول المتنازعة » ،

وقد بلغت ذروتها في قرن لم تنقطع فيه الحروب بين كتل الجيوش مقترنة بانتفاضات اجتماعية

رهية ، ومنها تولدت دولة شين « Ohin » ،

(الرومانية)؛ وعليها قامت أسس الإمبراطورية

الصينية ، وعرفت مصر هذا الطور فيما بين

١٧٨٠ و ١٥٨٠ ق . م ، الذي شغل الهكسوس

آخر قرن فيه ، وعرفته الثقافة الكلاسيكية

في عهد شارونيا « Ohaeroneo » ، (٣٣٨) ،

وفي أشد فترات الذعر ، من عهد جراسي

Gracchi (١٢٣) إلى أكتيوم (٣١ ق . م) .

أما عالماً أوربا الغربية وأمريكا فإن مصيرهما جاء في القرنين التاسع عشر والعشرين .

« خلال هذه الفترة ، يتغير مركز الجاذبية ، كما تغير في الفترة التي توسطت أتيكا ولاتيوم ، وكما تغير من « هوانج - هو ، في « هو - نان فو ، إلى « يانج - تسي ، ( إقليم هوباي العصري ) [ المجلد الثاني ، الفصل الثاني ، القسم الخامس .

ولم يكن في استطاعة الكاتب ، حينما كتب ماسلف ، أن يضيف إلى ذلك — ولو أنه من المحقق أنه تنبأ به — أن مركز ثقل العالم الغربي لن يلبث — بعد ثلاثين عاماً — أن ينتقل بدوره ( عبر المحيط الأطلنطي ) .

إن فترة « الدولة المتنازعة » التي تستمر عادةً ما يقرب من قرنين ، تنتهي بإحراز إحدى القوات المتنازعة النصر النهائي ومن ثم يمتد سلطانها تبعاً لهذا النصر - بشكل أو بآخر - إلى سائر المنطقة التي انتشرت فيها حضارتها ، وولدت « الدولة الكبرى » وولد معها الطور الأخير للحضارة . وخلال هذه الفترة ، كان العالم المتحضر كله يحكم بطريق مباشر أو غير مباشر على نحو رستمي أو غير رستمي ، بطريقة شرعية أو حسب الأمر الواقع ، من نقطة مركزية واحدة ؛ يحكمه شخص غالباً ما كان قائداً فائق القدرة سواء أكان يحمل لقب قيصر أو إمبراطور أو مغولي أو أي لقب آخر . . ولم تعد تحدث حروب « دولية » ، بداخل الإمبراطورية ، وهي الحروب التي تقع

بين ما تعودنا أن نطلق عليه «دولا» ، ومن ثم يمكننا أن نقول إنه كان عصر «سلام روماني» . . . وفيه اتخذت الحروب شكل مناوشات صغيرة على طول الحدود ليلقوا «بالبرابرة» في البحر خارج الإمبراطورية . . . هذا من ناحية ، ومن الناحية الأخرى ، أخذت الحروب شكل صراع داخلي من أجل العرش ، وشكل «الحروب الخاصة» و «ثورات القصر» ، «وانقلابات» أو منافسات شخصية أو «منازعات» بين العصابات والجماعات .

إن هذا الطور ، الذي يعد بمثابة «شتاء الحضارة» والذي يطلق شبنجر عليه ، الحضارة ، — ابتغاء امتبعاد الأطوار السابقة — يتكون — من ثم — من فترة من الحروب العظمى تعقبها فترة من الحضارة السلمية الواسعة ، وبالإضافة إلى الاتجاهات السابق ذكرها ، يصف شبنجر بدقة الظواهر التالية كعامل مميز لطور السلام العالمي .

## خصائص طور الحضارة الأخير عند شينجيه

### (١) السلام العالمى والقيصرية :

لما كانت منطقة الحضارة كلها خاضعة لسيطرة سلطة واحدة ، وفى نهاية الأمر خاضعة لسيطرة رجل واحد ، فليس ثم مبرر « لحروب قومية » . ومهما يكن من أمر ، فإن ذلك لا يعنى بحال من الأحوال نهاية إراقة الدماء ، فقد استبدلت « الحروب القومية » بالحروب « الخاصة » التى تستهدف الاستئثار بالسلطة الشخصية فى الدولة كلها أو فى جزء منها : تلك هى فترة القياصرة ، والأفراد الأقوياء ، والديكتاتوريين ، والحكام العسكريين : فترة الشيكنج .

وقد بدأ ظهور هؤلاء الحكام فى فترة الدول المتنازعة ، ولكنهم وجدوا فرصتهم الكاملة عندما استقر طور السلام العالمى ، أى عندما تخلت الأمم عن رغبتها فى السلطة ، وتولى الأفراد زمام هذه السلطة .

[ ومع السلام العالمى — سلام  
السياسة العليا — تراجع السيف فى  
التاريخ وعاد حكم « التحايل » مرة أخرى ،  
ومن تلك الفترة وما بعدها ، كانت هناك  
تواريخ خاصة ومطامع خاصة من القمة إلى  
القاعدة — من متاعب الفلاحين التافهة ،

إلى منازعات القياصرة المرعبة في سبيل  
السيطرة الخاصة على العالم ]

[ وكانت الحروب في فترة السلام  
العالمى حروباً خاصة ، وهى أشد رعباً من  
حروب أية دولة ، لأنها عديمة الشكل ، بالنظر  
إلى أن السلام العالمى — الذى كان يوجد  
غالباً — يتضمن نبذ الحرب من جانب  
الأغلبية الساحقة ، وبالإضافة إلى ذلك  
يتضمن أيضاً استعداداً تاماً للخضوع للآخرين  
الذين لا يرفضون فكرة الحرب ]

[ وعلى هذه المقدمة الروحية ، نشأت  
قرصنة ( فيكنج ) أخرى ، وانتقلت حالة  
البقاء « من الناحية الشككية » من الأمم إلى  
عصابات وبطانات المغامرين ، وأشباه  
القياسرة والجزالات المنشقين ، وملوك  
البرابرة وغيرهم ] — المجلد ١ ، الفصل ١١ ،  
القسم العاشر .

وكان السلام العالمى يمثل — غالباً — قراراً من جانب واحد ، ولهذا  
كان لحالة السلام الرومانى Pax Romana :

( ٤ - مستقبل الحضارة )

[ بالنسبة للأباطرة العسكريين الأواخر  
وزمرة الملوك الجرمان ، كان للسلام العالمى  
معنى عملى واحد هو أن هذه المرحلة  
أوجدت شعباً من مائة مليون من السكان  
أصبح هدفاً لجماعات المحاربين الصغيرة  
الراغبين فى الحكم ، وقد اقتضى هذا السلم  
تضحيات سلمية ، تبدو خسائر معركة كاناي  
تافهة بجانبها . . وهكذا تنتقل عوالم بابل  
والصين والهند ومصر من يد فاتح إلى يد فاتح  
آخر ، وتدفع دماءها فى سبيل هذا النزاع ،  
وذلك هو السلام عندهم .

« وهكذا فإن أى زعيم قوى الإرادة  
يجمع مائة ألف مغامر حوله ، كان يستطيع  
أن يفعل ما يريد » [المجلد ٢، الفصل السادس

### (ب) المدينة العالمية :

لم يتبأ أحد بنشأة المدينة العالمية الضخمة ، أو يصف سحرها وقبضتها  
الوحشية الخداعة المتحجرة مثلها فعل شبنجر ، فقد وصفها بعبارات بليغة ،  
وقال إن تلك المدينة تأخذ معها إلى — نهاية كل حضارة — الجمال المتحضر  
والجاذبية المزدهرة التى لا تقاوم . . . قال :

[فى النهاية ، ينشئ الرمز الهائل ، ووعاء  
الذهن المتحرر تماماً ، المدينة العالمية ، وهى  
بمناطة المركز الذى ينتهى فيه تاريخ العالم  
وتطوى صفحته . . إن حفنة من الآماكن  
الهائلة فى كل حضارة تحرم الأرض الأم من  
ثقافتها ولا تقيم لها وزناً ، تحت الاسم المثير  
للغضب «الأقاليم» ، فالأقاليم الآن هى كل  
شئ — الأرض والمدينة ، الصغيرة منها  
والكبيرة — فيما عدا منطقتين أو ثلاث .  
ولم تعد هناك طبقات نبلاء ، وبورجوازية ،  
وأحرار ، وأرقاء ، وهيلينيين وبرابرة ، ومؤمنين  
وغير مؤمنين ، وإنما أصبح هناك مدنيون  
وريفيون ] — (المجلد ٢ ، الفصل الرابع) .  
وهكذا أوجدت المدينة العالمية طرازاً بشرياً يعتبر خاصية أخرى للفترة  
الآخيرة من كل ثقافة .

(ح) عدم الاستقرار الذهني :

يقول شبنجلر :

« طالما ظل البيت متمتعاً بتلك القدسية التى اكتسبها باعتباره المركز  
الفعلى الأصل للأسرة ، فإن علاقته القديمة بالأرض لا تنقطع تماماً ، إلا  
أنه حينما تنقطع هذه العلاقة أيضاً ، وتزاول جماهير المستأجرين وشاغلي

المنازل حياة متعطلة ، وينتقلون من مأوى إلى آخر كالصيادين ورعاة الزمن الغابر ، فهنا يستكمل التحول الذهني نموه . .

وثمة ملاحظة أخرى يضيفها شبنجلار ، وهي ملاحظة هامة في عصرنا الحاضر . إنه يروى كيف أن ديودورس Diodorus يخبرنا عن ملك مصرى مخلوع تدهور إلى درجة أنه أقام في أحد الطوابق العليا بمنزل حقير في روما .

يقول شبنجلار :

[منذ زمن بعيد جداً ، ولد الريف المدينة وغذاها بأحسن دماثة ، أما الآن فإن المدينة الضخمة تمتص الريف الهزيل وتبتلع جموع الناس بشراهة وبلا توقف حتى تهك وتموت في خضم الريف المهجور . وكلما اصطاد ذلك الجمال الآثم لهذه الأعجوبة الأخيرة للتاريخ ، ضحية فإنه لا يدعها تفلت من يده . إن القوم البدائيين يستطيعون الإفلات من الأرض والترحال ، غير أن الرجل المولود في المدينة لا يستطيع ذلك أبداً ، لأن الحنين إلى المدينة الكبيرة أقوى من أى حزن يكابده الإنسان بالنسبة للقرية . وإن الإنسان ليعتبر المنزل إحدى تلك المدن الهائلة ، ولكن أقرب القرى إليه تعتبر غريبة عنه ، ومن ثم فإنه يفضل أن يموت على الإفريز ، على أن يعود إلى الريف ] - (نفس المجلد)

### (د) إنخفاض نسبة المواليد :

وهناك ظاهرة أخرى تصاحب عصر المدن العالمية ، وتلك هي تدهور نسبة تزايد عدد السكان ، وفي النهاية تبدأ عملية تناقص عدد السكان التي قد تمتد قروناً ، ويضع عقم الإنسان المتحضر نهايةً لمسرحية الحضارة .

ويرى شبنجلر أن هذه الظاهرة تتحول "ميتافيزيقي" نحو الموت ، وذلك لأن الإنسان ، كجنس ، لم يعد يرغب في الحياة ، وهكذا أصبحت الحياة نفسها أمراً مشكوكاً فيه ...

[وعندما يبدأ التفكير العادي لأناس ذوي ثقافة عالية في اعتبار موضوع «إنجاب الأطفال» ، موضوعاً قابلاً للتأييد أو الاستنكار ، تحدث أكبر نقطة تحول .

«وعندما يستدعي الأمر تقديم التعللات كلها فيما يتعلق بموضوع الحياة ، تصبح الحياة كلها موضع بحث . وعند هذه النقطة يبدأ تحديد النسل بحرص ، ففي العصر الكلاسيكي أبدى السكاتب بوليبيوس Polybius أسفه على هذه التجربة مثلباً أسف لدمار اليونان ؛ وحتى في عصره ، كان هذا الأمر قد توطد منذ أمد طويل في المدن الكبرى ، وأصبح شائعاً بشكل رهيب في العصر الروماني الذي

جاء بعد ذلك . وفي بادىء الأمر ، كان اليوس  
الاقتصادي الذي ساد تلك الأزمنة هو  
التفسير لهذه الظاهرة ، ولكنه سرعان  
ما اختفى تماماً [ — المرجع ذاته .

ونتيجة لهذا التطور ، نجد أن المدن العالمية تصبح ، عند نهاية كل  
حضارة ، كالمدين الريفية في مرحلة مبكرة ، قليلة السكان ، ولا تسكنها في  
آخر الأمر غير جماعات صغيرة تستخدم كتل الصخر كأوى مثلبا فعل  
الإنسان البدائي في العصر الحجري .

[ كانت باتاليبوترا — Pataliputra  
عاصمة أزوكا Asoka — مجموعة كبيرة من المنازل  
الخربة غير المأهولة عندما زارها الرحالة الصيني  
« هوين — تشانج » ، Hien-tsang ،  
حوالي عام ٦٣٥ م .

« ونقرأ لرغيل كبير من الكتاب  
الكلاسيكيين ، إبتداءً من بوليوس فصاعداً  
عن مدن قديمة مشهورة تحولت شوارعها  
إلى صفوف من خرائب شاغرة متداعية ،  
تختال فيها قطعان الماشية ؛ وتتحول  
المدرجات والملاعب إلى حقول ، تتناثر فيها  
الأعشاب والتماثيل هنا وهناك . . . لقد  
كانت روما في القرن الخامس من عصرنا

أشبه بقربة ولكن قصورها الملكية كانت  
لا تزال قابلة للسكنى [ — المرجع ذاته

### (هـ) التفوق الذى أعقبه اضمحلال المال :

وبظهور المدن ، مصحوبةً بتفوق المدينة العالمية ، واختفاء كل الروابط  
بالأرض ، وسيادة الاتجاهات الذهنية ، بلغت النقود — المال — ذروة  
سلطانها ... لقد وجدت النقود أصلاً لتقدير القيمة ، وذلك بالنسبة للأشياء  
ذات القيمة الحقيقية فى ذلك الوقت ، كالأرض والماشية والمنازل  
والرقيق ، ولكن الرابطة بين هذه القيم الأصلية بدأت تضعف بنمو المدن  
وتعقد النظام الاقتصادى حتى أصبحت النقود فى آخر الأمر تُعتبر قيمةً فى  
حد ذاتها ، مرغوباً فيها أكثر من تلك الأشياء التى وجدت النقود أصلاً  
لتقدير قيمتها .

[ لم يعد الذهب يقدر بالبقرة ، وإنما  
أصبحت البقرة تقدر بالذهب ] —  
(المرجع ذاته) .

غير أن قوة النقود لم تلبث أن اندحرت — فى عصر الملكية  
والإباطرة — أمام قوى الدم والسيف .

[ لقد قضى مجيء القيصرية على  
ديكتاتورية النقود وسلاحها السياسى —  
الديمقراطية ... وبعد الانتصار الطويل  
الذى أحرزه اقتصاد المدينة العالمية ومصالحها

على القوة السياسية الخلاقة ، ظهر الجانب  
السياسى للحياة بعد هذا كله كأقوى  
الجانبين ، وهكذا انتصر السيف على النقود ،  
وأخضعت إرادة السيد إرادة المغتصب مرة  
أخرى [ - المجلد ٢ ، الفصل ١٤ .

### (و) إختفاء الابتكار :

إختفت الروح الخلاقة فى طور الحضارة الأخيرة ، فقد بلغت الحضارة  
شكلها النهائى ، ولم يظهر إبتكار جديد كبير ، لا فى الفن ولا فى الدين ولا فى  
السياسة ، وسادت الحياة النزعةُ الذهنية والتجارية . وعلى الرغم من أن العلم  
قد يزدهر ، وقد يكثر الحديث وإنفاق الوقت والنقود على الفن أو الدين  
أو السياسة ، إلا أنها سرعان ما تفقد دافعها الإبتكارى ، بعد أن تتخذ  
الأشياء شكلها النهائى . ومع أن تغيرات واختلافات كثيرة كانت لا تزال  
تظهر بينها ، إلا أن الأشكال الجديدة تماماً لم تعد تظهر ، فقد حُلَّت جميع  
المشكلات الكبرى ، ولم يعد الصراع يدور حول الأفكار كما حدث  
فى طور « الثقافة » وإنما تحول تماماً ليدور حول السلطة .

[ فى التاريخ ، ونقصد التاريخ الأصيل :  
تاريخ طبقات الرجال الممتازين ، كان الصراع  
الذى يدور القتال من أجله ، وأساس النضال  
الحيوانى من أجل السيادة ، هو تحقيق شيء  
روحى ، وترجمة فكرة ما إلى شكل تاريخى .

حتى . وينطبق هذا بالمثل على اصطراع  
الأساليب الكبرى في الفن ( القوطي وعصر  
النهضة ) وفي الفلسفة ( الرواقيون  
والأبيقوريون ) ، وفي المثل العليا السياسية  
( حكم الأقلية والطفيان ) ، وفي الأشكال  
الاقتصادية ( الرأسمالية والاشتراكية ) ،  
يبد أن التاريخ اللاحق جاء خلواً من هذا كله.  
وكل ما تبقى هو الصراع الخالص من أجل  
السلطة ، ومن أجل نفع حيواني . . وبينما  
كانت السلطة من قبل تخدم دائماً الفكرة  
بطريقة أو أخرى ، فصيما يتعلق بالحضارة  
المتأخرة ، كان أكثر أوهام الفكرة إقناعاً  
بمجرد قناع يخفي وراءه كفاحاً حيوانياً خالصاً  
( المجلد الثاني ، الفصل ٢ ) .

[ وعندما جاء عصر الملكيات ، لم تعد  
هناك مشكلات سياسية ، فقد قبل الناس الموقف  
على علاته وساسوا أمورهم حسب القوى  
الموجودة . وفي فترة الدول المتنازعة ،  
خضبت أنهار الدماء طرقات جميع المدن  
العالمية لكي تتحول حقائق الديمقراطية  
الكبرى إلى وقائع ، كذا لكسب الحقوق

التي تبدو الحياة بدونها غير جذيرة بالاستمسك  
بها، وما كادت هذه الحقوق تُسكتسب ، حتى  
أصبح من العسير دفع الأحفاد ، حتى باستخدام  
العقاب ، إلى الانتفاع بهذه الحقوق . وبعد  
مائة سنة أخرى ، لن يستطيع حتى المؤرخون  
فهم المجادلات القديمة ، لأن أصحاب السمعة  
الطيبة في عصر القياصرة كادوا يكفون  
عن الاشتراك في الانتخابات [ - المجلد  
الثاني ، الفصل ١٢ )

ويرى شبنجر أن هذا النقص في الابتكار والخلق قد أصبح خاصية من  
خصائص عصرنا الذي يشكل جزءاً مهماً يُعتَبر في قاموسه اللغوي - فترة الحضارة ،  
ويمكن مقارنة عصرنا بعصر روما القيصرية لا بعصر أثينا في عصر بركليس .  
[ إن ما يمارسه الناس اليوم على أنه فن ،  
ليس إلا عجزاً وزيفاً ، فأينما تلفت ، فهل  
تستطيع أن تجد الشخصيات العظيمة التي تبرر  
الزعم بأنه ما زال هناك فن يُعتَبر ضرورة  
محتومة ؟ وأينما تلفت ، فهل تستطيع أن تجد  
المهمة الضرورية الواضحة في حد ذاتها التي  
تنتظر مثل هذا الفنان ؟ ...  
« إننا نجوس خلال المعارض والفرق  
الموسيقية والمسارح ، فلا نجد سوى إسكافين .

مجتهدين وأغنياء مزعجين يسرهم أن ينتجوا شيئاً ما للسوق ، شيئاً « يستهوى » الجمهور الذى لم تعد الموسيقى والمسرحية فى نظره ضرورات روحية [ — ( المجلد الأول ، الفصل ٨ )

وينطبق هذا القول على الإسكندرية وروما أيضاً .

[ كان لدى الإسكندرية أيضاً ممثلون يعبرون عن المشاكل ، وفنانون تفضلهم البلاد على « سوفوكليس » ، ورسامون خلقوا اتجاهات جديدة واستطاعوا أن يهروا جمهورهم بنجاح .

« إن جميع تماثيل روما ، سواء أكانت للذكور أو للإناث ، استمدت من نماذج هيلينية قليلة ، واستخدمت هذه التماثيل التى نُسخَت فى كثير أو قليل طبقاً للسلوك الأصيل ، فى نحت تماثيل بلارأس أو أطراف ، وصُنعت الرؤوس بلا شكل محدد بواسطة صنّاع بسطاء تتوافر فيهم المهارة . . . ولمدة ١٥٠٠ عام ( من عهد أمازيس الأول إلى عهد كليوباترا ) تكاثرت النماذج المصرية على النمط ذاته . . . ولهذا انطوت تحت الفصل

الآخر من جميع الثقافات ] — ( المرجع ذاته ) .

### ( ز ) حالة التدين الثانية :

من الظواهر النهائية لكل حضارة ما أطلق شبنجلر عليه ، حالة التدين الثانية ، ، وهي العودة إلى أشكال متغيرة إلى حد ما من الإحساسات الدينية التي كانت سائدة في الأيام المزهرة . ولكي نفهم هذه الحركة ، من الضروري أن نذكر التطور الذي تقدمت خلاله الحياة الروحية في ذلك الوقت : يزدهر الشعور الديني ، في الأيام المزهرة ، بكل ما كان عليه من قوة وبساطة أولية ، وعندما تنحو الكنيسة إلى الجمود ، وتضل عن معنى الإيمان الأصلي ، يحاول الإصلاح أن يعيدها إلى سيرتها الأولى ، وتعقب هذه الفترة فترة أخرى من الزمت والتعصب الأعمى للتقوى ، تحاول في الغالب فرض دينها على الآخرين عن طريق السياسة . وتوجد بين ثنايا الزمت بذور التعقل التي تظهر في كل فترة متأخرة : أمثال عصور كونفشيوس وبوذا وسقراط وروسو ؛ وفي أعقاب هذه الفترة تأتي النزعة المادية .

ويلخص شبنجلر هذا التطور في العبارات التالية :

[ترادف الثقافة دائماً الإبداعية الدينية ، فكل ثقافة عظيمة تبدأ بنزعة قوية تنشأ من ريف ما قبل التحضر ، وتُنقَل إلى مدن الفن والثقافة ، وتنتهي بالاتجاه المادي في المدن العالمية ] .

وكرر فعل لهذا التعقل المتطرف ، وهذه الحالة الذهنية ، بدأت تظهر أشكال من الأساطير ، وحالات من حالات الاستمتاع بسحر المسائل غير المعقولة ، وغير الطبيعية ، والمنفرة ؛ بل إذا استدعى الأمر ، المسائل التي تدل على السخف ، مثل عبادة سيراييس Serapis في الإسكندرية ، وعبادة إيزيس Isis في جمهورية روما ، والتنجيم الكلداني ، وكلها طرز وأشكال من الاسترخاء ، و « الإبداع » ، وهي بمثابة « النظريات والمبادئ » ، في عصرنا . وهي تبين لنا الحاجة إلى « حالة التدين الثانية » ، التي تظهر في كل الحضارات ذات الشكل المكتمل ، باعتبارها « الدور الضروري المقابل للقيصرية التي تُستعبر التشكيل السياسي للحضارة الأخيرة » :

[ ينشأ كل « عصر إستارة » من تفاؤل لا حد له بالعقل — ذلك التفاؤل الذي يقترن دائماً بنوع من المدن الكبرى — ثم يتحول إلى تشاؤم لا صفة له أيضاً .. وبذلك تُستنزف إمكانيات الفيزياء كوسيلة نافعة لفهم العالم ، ويلوح الجرع للميتافيزيقا في الأفق من جديد ] — (المجلد الثاني ، الفصل التاسع) إن حالة التدين الثانية لا تولد في الطبقات العليا ، بل تولد في الجماهير ، والأمثلة على ذلك : — أسطورة بان — كو Pan-ku في الصين بعد عام ٢٠٠ ق.م ، ومذهباً فينشنو Vishnu وشيوا Shiwa في الهند حوالي عام ٣٠٠ ق.م . وعلاوة على ذلك فإن القيصرية ذاتها أوجدت في الإمبراطورية الصينية مثملاً فعلت في الإمبراطورية الرومانية — نوعاً من عبادة الإمبراطور ...

وأخيراً ، فإن حالة الدين الثانية تنتهى بنشوء عقائد الفلاحين ، وتبدو مرة أخرى بلا تاريخ ، ويختفى التناقض بين التقوى الوطنية والدين العالمى . وتمر القرون بلا أهمية . . . ثم تظهر أشكال جديدة من الدين القديم ، ثم تتغير ، وتزداد نمواً مثلما حدث عند نشوء البوذية ، والكونفوشوسية والطاوية التى تشكل دين الصين .

وفى رأى شبنجلر أن الحضارة الغربية ما زالت متأخرة عدة أجيال عن فترة « حالة الدين الثانية » التى سوف تأخذ — طبقاً لنظريته — شكل العودة إلى المسيحية القوطية .

### نهاية الحضارة — العودة إلى المجتمع الذى لا تاريخ له

وباختفاء القدرة على الابتكار ، تتحلل الحضارة الفيزيائية والروحية وتتهار فى النهاية . وفى إحدى فقراته المثيرة ، يصف شبنجلر المجتمع الذى يسود بعد ذلك ، فيقول :

[وبقيام الدولة المنظمة ، يستلحق التاريخى على ظهره بعد أن ينهكه الأعياء ويستسلم للنوم . ويعود الإنسان فيصبح نباتاً مرة أخرى ، ويلتصق بالتربة ، ويصيبه العقم ، ولكنه يكون قادراً على الاحتمال . وتعود القرية التى لا تحسب حساباً للزمن ، والفلاح « الخالد » للظهور . فينجب الفلاح أطفالاً ،

ويبذر البذور في الأرض — الأم؛ ويصبح  
الناس أشبه بمحشيد كافٍ منهمك في العمل، تهب  
عليه عاصفة الأباطرة العسكريين. وفي منتصف  
الأرض توجد المدن العالمية القديمة، كالأوعية  
الخالية من الروح، التي انطفأت، حيث يقبع  
بداخلها، يبطء، الجنس البشري الذي لا قاريخ  
له، ويعيش الناس لمجرد الحصول على قوت  
يومهم، لا يصابون من النجاح والثروة إلا قدراً  
تافهاً، ولكنهم صابرون.. وتداس الجماهير  
تحت الأقدام في منازعات الغزاة الذين يتقائلون  
من أجل السلطة وغنائم هذا العالم. ولكن  
الباقين على قيد الحياة يملأون الفجوات بخصوبة  
بدائية (هي التناسل) وهم صابرون على العناء.  
وبينما يوجد، في الطبقات العليا، تعاقب أبدى  
من النصر إلى الهزيمة، فإن الموجودين في القاع  
لا يكفون عن الصلاة بكل ما في حالة التدين  
الثانية من تقوى، تلك الصلاة التي تتغلب على  
جميع الشكوك في كل عصر. فهناك، في الأرواح،  
يصبح السلام العالمي، والسلام الإلهي،  
ونعمة الرهبان وذوى الشعر الأشيب  
والماسكين، حقيقة واحدة — هناك فقط.. لقد

أيقظ هذا كله العمق في إحتمال العذاب الذى لم يعرفه مطلقاً الإنسان التاريخى فى الألف عام من تطوره. ويعود السكائن ، الذى لا يزال مقدساً ، إلى الظهور فى نهاية التاريخ العظيم فقط . إنها مسرحية نبيلة من حيث انعدام هدفها ، إنها نبيلة ومعدومة الهدف كتحركات النجوم ، ودوران الأرض ، وتعاقب الياصلة والبحر ، والجليد والغابة البكر على سطحها .. إتنا قد ندهش لها وقد نرثى لحالها أيضاً .. ولكنها موجودة على كل حال ] - ( المجلد الثانى ، الفصل الحادى عشر ) .

### الحالة الراهنة للحضارة الغربية

يرى شبنجلر أن الحضارة الغربية تجاوزت « الفترة الأخيرة للثقافة » ، وعصر سيادة المدينة البورجوازية . ويرى أيضاً أن البورجوازية - وهى الدورة الثالثة - كسبت نصرها النهائى بمجىء الثورة الفرنسية ، وهكذا شهد القرن التاسع عشر أوج الديمقراطية والبرلمانية ، والنزعة العقلية ، والمال ، والنقد الذى أخذ يتضاءل منذ ذلك الحين سواء عن وعى أو بلا وعى ، وسواء ويأدراك أو بلا إدراك .

[إن البرلمانية تعاني انهياراً تاماً في الفترة الحالية . . . فمع بداية القرن العشرين تتجه البرلمانية (حتى الإنجليزية) بسرعة نحو الدور الذي كان مخصصاً للملكية في أحد الأوقات : إنها بسبيل أن تصبح متفرجاً مشدوهاً يتفرج على جمهرة المؤمنين بها ، ففي الوقت الذي ينتقل فيه مركز جاذبية السياسة الكبرى ، من الناحية القانونية ، من التاج إلى ممثلي الشعب ، فإنه من الناحية الفعلية ينتقل من ممثلي الشعب إلى جماعات غير رسمية وإلى إرادة شخصيات غير رسمية ، — ( المجلد الثاني ، الفصل ١١ ) .

« ويدخل في ذلك عصر الصدام الهائل الذي نجد أنفسنا فيه اليوم . إنه عصر الانتقال من النابوليونية إلى القيصرية ، وهو طور عام من أطوار التطور ، يمثل على الأقل قرنين من الزمان ، ويمكن أن يوجد في كل حضارة ، — ( المرجع ذاته ) .

« وأما بالنسبة لنا ، فإن عصر الدول المتنازعة ، بدافع نابليون وحكومته الاستبدادية المتعسفة . وكان رأس نابليون أول من أنتج : — في عالمنا هذا — فكرة السيطرة على العالم

( ٥ — مستقبل الحضارة )

عسكرياً؛ وهى فكرة تلقى رواجاً... ولئن كان القرن التاسع عشر فقيراً نسبياً فى الحروب الكبرى—والثورات—وامتطاع أن يتغلب على أسوأ أزمائه بالطرق الدبلوماسية والمؤتمرات، فإن ذلك يرجع، على وجه التحديد، إلى الاستعداد المستمر المفرغ للحرب، مما جعل المتنازعين يخشون النتائج فى اللحظة الأخيرة، ويرجعون إتخاذ القرار النهاى مرة تلو المرة، فعمدوا إلى استبدال الحرب بتحركات شبيهة بتحركات قطع الشطرنج... غير أن القرن التالى (أى القرن العشرين) سيكون فعلاً قرن الدول المتنازعة، فهذه الجيوش ليست بديلاً عن الحرب بل هى وسائل الحروب ذاتها لأنها تريد الحرب. وفى مدى جيلين، سيكون هؤلاء الجنود هم المستحوذون على جميع وسائل الحياة مجتمعة. فى الحروب التى سيشنونها لورثة العالم كله سوف تكون القارات كلها مشتبكة فى الحروب... ستدخلها الهند والصين وجنوب إفريقيا وروسيا والبلاد الإسلامية، وجميع الشعوب. وسوف تمارس فنون جديدة ويطبق تكتيك مضاد أيضاً.

ولسوف تتصرف مراكز القوة العالمية في  
الدول الأصغر حسبها يحلو لها — في أراضيها ،  
واقتصادها ، ورجالها — وكل هذا الذي يبدو  
الآن مجرد أقاليم ، وغايات سلبية ، ووسيلة إلى  
غاية ... كما مصائرهما معدومة الأهمية بالنسبة  
لهذا الزحف الكبير . وبين هذه الكوارث  
البدامية ، والفزع ، ترتفع الصيحة تلو  
الأخرى مطالبة بالعودة إلى الصلح بين  
الشعوب وإقرار السلام على الأرض ، [   
( المجلد الثاني — الفصل ١١ ) .

إن بعض هذه النبؤات ليبدو دقيقاً — بشكل غير مستحب —  
وبالأخص حين يرد في كتاب سبق التفكير فيه من قبل ، وكتب إبان  
الحرب العالمية الأولى ، وينطبق هذا القول على الوصف الذي قدمه شبنجلر  
لخصائص الحروب في فترة الدول المتنازعة:

[ في كل ثقافة ، سارفت الحرب — في تردد —  
وراء تقدم الصناعة ، فما أن تأتي بداية الحضارة  
حتى تتولى الحرب القيادة ، وتسخر جميع  
الإمكانات الميكانيكية لخدمة أغراضها ،  
وتحت ضغط الحاجة العسكرية تفتح مجالات  
جديدة لم تكن قد استغلت بعد ] —  
( المجلد الثاني ، الفصل ١١ ) .

ويقول شبنجلر إن حروب هذه الفترة لم تعد حروباً قاصرةً على الجيوش الصغيرة نسبياً، وإلى أن يعلن أحد الأطراف المشتبكة فيها أن قواه قد استنزفت ، فإنها تظل حروب جيوش كبرى ، وبالمعنى العصري ، حروباً شاملة .

ومن وجهة نظر شبنجلر ، فإن مكاننا والدور الذي يجب أن نلعبه في الحضارة الغربية رهن تماماً بمشيئة القدر ، وفيما يلي الرسالة الكئيبة التي أوردتها في ختام كتابه :

[ أما بالنسبة لنا ، نحن الذين وَضَعْنَا القدر في هذه الثقافة ، وفي هذه اللحظة من تطورها — اللحظة التي يحتفل المال فيها بانتصاراته الأخيرة ، وحيث تزحف (القيصرية) المقدر لها النجاح بهدوء وبخطى ثابتة، فإن إتهامنا — الإرادة وغير الإرادة في وقت واحد — محدد لنا في حدود ضيقه ، وبعبارة أخرى إن الحياة لا تستحق البقاء فيها ، فنحن لا نتمتع بحرية الوصول إلى هذا الغرض أو ذاك ، وكل حرية نتمتع بها مقصورة على أداء ما هو ضروري ، أو عدم الإقدام على أي شيء مطلقاً، ولسوف تهم المهمة التي حددتها الضرورة التاريخية لصالح الفرد أو ضده ] — (المجلد الثاني — الفصل الرابع عشر) —

## - ٤ -

### شينجلر العسكرى - والمفكر

حاولنا أن نقدم فى الفصل السابق الخطوط العريضة ، لفلسفة شينجلر فيما يتعلق بحياة الحضارات وموتها . ومن سوء الحظ أن الخطوط العامة لهذا البناء العظيم فى كتاب شينجلر ، غالباً ما تحجبها عن أنظار القارىء مجموعة من التحيزات الصارخة التى تغلف واجهة آرائه ، تماماً كما يجب ستار لافتات النيون التصميم الهندسى لبناء فاخر فى قلب المدينة العصرية .

ومن المهم أن نسلط الضوء على هذه التحيزات الصارخة وأن نكشف عن حقيقة أنها لا تهدد بإخفاء رأى شينجلر فى الحضارات فحسب ، بل لأنها تؤثر أيضاً ، وبقوة ، على تقديره لعصرنا الراهن وعلى نتائجها فيما يتصل بمصير حضارتنا . ومن ثم فإن علينا أن نتعقب هنا القسيمات الرئيسية لتقدير شينجلر للقيم معبرين عن ذلك ، بقدر الإمكان ، بكلمات شينجلر نفسه .

#### تحيزات شينجلر

#### فكرة غير ديمقراطية عن المجتمع :

إن فكرة شينجلر عن المجتمع - أقصد المجتمع فى أية مرحلة من مراحل الحضارة - فكرة بعيدة تماماً عن الديمقراطية ، ذلك لأن المبدأ الأساسى

لليمقراطية ، وهو أن الناس جميعاً ولدوا متساوين ولهم حقوق متساوية ؛ هذا المبدأ غريب على شبنجلر ، ففي رأيه أن كل دولة ، وكل أمة — سواء أكان يحكمها رسمياً ملك أو دكتاتور أو طاغية أو برلمان — تحكمها في واقع الأمر أقلية صغيرة تدفعها رغبة قوية في السلطة : « أرستقراطية » ، بالمعنى الأصيل لهذه الكلمة ، أى الحكم بواسطة الطبقة الأفضل ، ومن ثم ، ففي رأيه أن المواطنين ينقسمون بالضرورة ، دائماً ، وفي كل مجتمع إلى جماعتين مميزتين هما : الأقلية الحاكمة ، والأغلبية المحكومة :

« إن وحدة الحياة — هي حتى في حالة الحيوانات — تنقسم إلى أمرين ومأمورين ، (المجلد ٢ الفصل ١٢) .

إن شبنجلر لا يجهل تماماً قيمة النظام الديمقراطي ، والعصر الديمقراطي . ولكنه عاجز عن أن يعتبرهما أكثر من مجرد طور عابر في كل ثقافة . وهو غير مقتنع — على أى وجه من الوجوه — بالقيمة الأساسية للديمقراطية أو بحقيقتها . وبما يتفق مع ما يدعيه بالنسبة للحقائق التاريخية ، عدم إبدائه أى رأى حول « عدالة » أو « سلامة » أى شكل معين من أشكال الحكومات ، بيد أن القارىء لا يستطيع أن يتغافل عن أن شبنجلر شخصياً يفضل النظام الطائفي وينبذ الديمقراطية ، ولهذا فإنه غير قادر على أن يرى في الديمقراطية أكثر من مجرد نظام تتخذ منه طبقة جديدة — هي طبقة البورجوازية وما تتمتع به من قوى موروثة هي المال والتعليم — رداءً تلبسه

لتخفي وراءه رغبتها في الاستئثار بالسلطة وحكمها للأغلبية المسلوكة بالإرادة التي تملك الحرية إسماء فقط في ظل النظام الانتخابي .

وهكذا يرتكب شينجلر الخطأ الذي أودى بجميع الحكام المستبدين في التاريخ . فمع أنه صحيح أن كل أمة في العالم تحكمها فعلاً أقلية صغيرة ، فإن شينجلر يتغاضى عن حقيقة واضحة هي أن هذه الأقلية سواء أكانت من البلاط أو الكهنة أو من نبلاء الإنقطاع أو رؤساء مدنيين أو قادة برلمانيين أو زعماء عمال ، فإنها لا يمكن أن تسمح لنفسها بالوقوع في خطأ جسيم هو تجاوز حدود معينة لما تشعر الجماهير بأنه حق وعدل . ففي جميع الأزمنة ، وفي جميع الأمم ، ثارت الجماهير في نهاية الأمر ضد ما اعتبرته ظلياً أو قسوة أو خطيئة ورجساً أو سوء إدارة ، ويدل ذلك على أنه يجب على الأقلية الحاكمة لا أن تستمد سلطتها - طبقاً للمثل العليا الديمقراطية ، وبالمعنى الدستوري والأخلاقي - من جمهرة المواطنين فحسب بل يجب عليها أن تفعل ذلك حتماً . . . إنها لا تستطيع أن تهمل - على طول المدى - الحاجة الفطرية للعدالة والمصلحة الذاتية التي تتحكم في مشاعر الجماهير ، والتي تؤدي أحياناً إلى حدوث تغييرات غير متوقعة أو حتى مناقضة لإرادة الطبقة الحاكمة .

### عدم الإيمان بحرية الصحافة :

وتمشياً مع هذا الاتجاه الفكري ذاته ، يعتقد المؤلف الرأي القائل بأن حرية الصحافة المزعومة في الديمقراطية ليست سوى طريقة عصرية للتأثير على الجماهير وقيادتها ، وأن الأحزاب السياسية خليقة بأن تتدخل إلى مجرد أدوات للسلطة فقط لمصلحة السياسيين :

[إستطاعت السياسة الأنجلو - أمريكية  
المعاصرة أن تخلق ، عن طريق الصحافة ،  
مجالاً واسعاً من التوتر الذهني والمالي ، يحتل  
فيه كل شخص المكان المخصص له بدون  
وعى . ويجب على كل فرد أن يفكر ، ويرغب  
ويعمل مثلما يفكر الحاكم ويرغب ويعمل ،  
طبقاً لما يراه مناسباً] - (المجلد الثاني - الفصل ١٢)

وفيما يتعلق بمالك إحدى الصحف البريطانية الكبرى ، يقول شبنجر :  
[ . . . . يحتفظ ديكتاتور الصحافة  
بعبودية قرائه وخضوعهم لمقالاته الرئيسية ،  
وبرقياته ، وصوره . فما تريده الصحافة هو  
الصحيح ! . . إن قادة الصحافة هم الذين  
يضعفون ، ويغيرون الحقائق ، ويدّلونّها ،  
وإن ثلاثة أسابيع من العمل الصحفي  
تسكفي لجل الجميع على الأخذ بالحقيقة  
المحرقة ] - ( نفس المجلد ) .

ومع أن هناك قسماً من الحق في قول شبنجر من حيث تأثير بعض الصحف  
الكبرى الذي يتجاوز الحدود أحياناً ، فإن هذا القول خاطئ قطعاً من حيث تعميمه  
إطلاقاً ، كما ثبت في عامي ١٩٤٠ و ١٩٤٨ حينما جاءت نتائج انتخابات  
رئاسة الولايات المتحدة مغايرة تماماً لجميع تقديرات الأغلبية الساحقة من  
رجال الصحافة الأمريكية .

### تفوق الشخص العامل على الشخص المفكر :

يرسم شبنجلر خط تفرقة قوياً بين الشخص القدرى أو « إنسان الواقع » — وهو عنده الرجل السياسى — من ناحية ، والشخص العقائدى أو المفكر من ناحية أخرى . وهو لا يخفى — عندما يناقش هذا الموضوع — احترامه العميق للأول ، واحتقاره للأخير ( المجلد الثانى — الفصل الأول ، القسم الخامس ) .

[ ثم رجال يولدون قديرون مسبيون . .  
وهناك عالم بأسر يفصل بين الإنسان  
الحى — الفلاح والمحارب والسياسى والقائد ،  
والرجل الدنيوى ورجل الأعمال وكل شخص  
يرغب فى الرخاء ، وفى أن يحكم ، ويقاىل ،  
ويغامر ، والمنظم ، والمقاوم ، والمغامر أو المقامر  
أو المستخف — وبين الرجل الذى شاء له  
قوة عقلية عظيمة ، أو شاء له ما فى دمه من نقص  
أن يكون « مثقفاً » — القديس ، والكاهن ،  
والعالم ، والمثالى ، والمفكر — ومن النادر  
أن يوجد إنسان ذو أهمية لم يغلب عليه  
هذا الجانب أو ذاك .

« وأخيراً فإن الرجل الإيجابى فقط  
هو الرجل القدرى الذى يعيش فى عالم

الواقع: عالم السياسة ، عالم القرارات العسكرية والاقتصادية حيث لا قيمة للأفكار والنظم، فهنا يكون للضربة الذكية تأثير أقوى من تأثير النظريات والاستنتاجات الذكية ، وهنا يكمن معنى الازدراء الذى يديه الساسة والجنود فى جميع الأزمنة نحو « مسطرى الحبر ، والمغرمين بالمطالعة » الذين يتوهمون أن تاريخ العالم وجد من أجل الفكر والعلم أو حتى من أجل الفن ] — ( المجلد الثانى ، الفصل ١ ، والفصل ٤ ) .

وفى رأى شبنجلر أنه ليس لأفلاطون أو روسو أى تأثير على مجرى التاريخ ، وإنما الذين كان لهم هذا التأثير هم الرجال العاملون أمثال الإسكندر وقيصر و نابليون .

ويمكننا أن نقصر حديثنا فى هذا المقام على ملاحظتين هما أولاً: هل كان فى استطاعة نابليون أن ينجح لو أنه لم يعتمد على القوى التى أطلقها فولتير وروسو من عقائدها ؟ وهل كان فى استطاعة لينين وستالين أن يصلوا إلى النتائج التى بلغاها لو أنهما لم ينجحا فى جنى ثمار الزرع الذى وضع كارل ماركس بذوره ؟ وفى المقام الثانى ، يغفل شبنجلر احتمال أن العنصرين قد يمتزجان أحياناً فى أحد الرجال . والواقع أنه إذا كانت عظمة السياسى لا تقاس بعدد المعارك التى يخوضها ، وإنما تقاس بالحكمة التى يديها والنتائج المباركة التى تتولد عنها ، فسيبدو عندئذ أن الشخص الأعظم هو ذلك الذى يجمع بين العمل والفكر مثل

دبركليس، و«وليم الصامت»، و«بنيامين فرانكلين»، و«ابراهيم لنكولن»، و«دزرائيلي»، و«توماس مازاريك»، و«ودرو ويلسون»، و«ونستون تشرشل»، و«سان يات سن»، و«غاندي».. وحتى أصنام البروسية أمثال فردريك الأكبر، وبسمارك، وهتلر، فقد لعبوا دورهم يأتقان على المسرح العالمي لأنهم جمعوا بين العمل والفكر. ولقد دفع إصرار شبنجلر على التمسك بإتجاه تفكيره إلى تجاهل تأثير القوى الروحية، وخاصة قوى الدين، على مجرى التاريخ :

[ إن الدين لم يغير أسلوب الوجود يوماً ما ] .

وبذلك لا يكون هناك أى اعتبار — فى نظره — للأخلاق والعدالة، وإنما يكون الاعتبار كله للقوة والسطوة فى السياسة .

ويزعم شبنجلر أن هناك مناعة للسلوك السياسى إزاء الأخلاق ، وهى نعمة محبوبة لدى المفكرين والساسة الألمان ابتداءً من لوثر حتى هتلر :

[ إن السياسى الموهوب يكون فرق الحق

والباطل . . إنه لا يخطئ منطق الحوادث بمنطق

النظم . . ومن المحقق أن له معتقداته التى يعز

بها ، ولكنه يحتفظ بها لشخصه ، ذلك لأن

السياسى الحقيقى لا يتقيد بمعتقداته الخاصة

فى عمله ] — ( المجلد الثانى ، الفصل ١٢ ) .

وليس من شك فى أن جنكيز خان ، وهتلر ، كانا يعتبران نفسيهما فوق

الحق والباطل ، إلا أنه من المحقق أن وليم الصامت وجورج وشنجتون

لم يعتقدا ذلك فى نفسيهما . . ويذهب شبنجلر خطوة أبعد من إدعائه بعدم

ضرورة تمسك السياسة بالأخلاق... إنه يزعم أيضاً أن هؤلاء الذين يدافعون عن العدل والحق معرضون دائماً للهزيمة من جانب الذين يؤمنون بالقوة. إن شبنجر، حين يحاول — بصعوبة — أن يخفي احتقاره لقوى العدل والحق، يجعل نموذج تقديره للقيم يتعارض مع إيمانه بـ «العنصر»، و«القوة الكرونية»، باعتبارهما القوتين الخلاقتين الحقيقيتين، في نظرة :

[إن تاريخ العالم هو ما قررت به خكمة العالم، فقد وقفت هذه المحكمة، دائماً، في جانب الأقوى إلاكثر ثقة بنفسه. ولقد ضحى التاريخ، دائماً، بالحق والعدل في سبيل القوة والعنصر. وأعد نعش الموت الكثيث ليضم الشعوب والرجال الذين آمنوا بالحق أكثر من إيمانهم بالأفعال، وآمنوا بالعدل أكثر من إيمانهم بالقوة] — (المجلد الثاني، الفصل ١٤) .

وبرغم أنه ليس من المستطاع إنكار أن القوة تلعب دوراً هاملاً في التاريخ والسياسة، فإن شبنجر يرتكب الخطأ الذي طالما ارتكبه هتلر، وهو التقليل من شأن تأثير القوى الروحية على طول المدى، الأمر الذي أدى إلى تخطيط هتلر نفسه في آخر الأمر .

تلك هي بعض التحيزات التي يتصف بها تقدير شبنجر للقيم . إن لكل شخص الحق في أن تكون له نظراته الخاصة إلى الحياة، وبمجموعة قيم خاصة أيضاً . إلا أنه عندما يسمح أحد الكتاب لهذه النظرة

وتلك القيم بالتأثير على إنتاجه العلى إلى درجة تجعله يحاول فرضها كقياس عام لجميع الأزمان، وجميع الشعوب، فإن الضرورة تقتضى كل فرد يقبل قيم الأخلاق الفاضلة والشكل الديمقراطي للمجتمع وأن يرفض هذا المقياس بنفس العنف الذى فُرض به، بل إن المرء يكون حينذاك مضطراً أن يفعل ذلك حينما تكون للنتائج التى يقدمها المؤلف مثل هذا التأثير البغيض على الثقة بحضارة بأسرها، مثلما فعل شبنجلر.

### نقاط النقد الرئيسية

#### خرافة النمط فى التاريخ :

إن الإدعاء بأنه من المستحيل، ومن ثم من غير المفيد، للعقل البشرى أن يحاول تعقب نمط أو طابع ذى غرض فى التاريخ، كان دائماً أكثر الحجج تأثيراً، وأكثرها صعوبة من ناحية النقض حيال أية محاولة لتنظيم الحقائق التاريخية فى طابع محدد. وكان لابد من إثارة الاعتراض نفسه مرة أخرى ضد محاولة أخرى كبيرة لاحقة، بذلها هذه المرة مؤرخ محترف أفرد مناقشة خاصة للرد على تلك الحجة. ولهذا سنرجى مناقشة هذا الاعتراض إلى الفصلين السادس والسابع.

#### المبالغة فى استخدام التماثل، بين الحضارات :

تعرض رأى القائل بأن التاريخ عبارة عن حضارات تولد وتنمو وتضمحل وتتهار طبقاً لنمط دائرى دائم، تعرض هذا الرأى لهجوم أساسى... وهنا، كما هى

الحال في نواح كثيرة ، خذل شبنجر هدفه الرئيسي حين رفع فكرة التماثل بين الحضارات المختلفة إلى مثل هذا التطرف ، وحين طبقها على مثل هذه التفاصيل بطريقة لا تبعث على الإثناع وإنما تبعث على السخرية . . . إن المقارنات مفيدة مادامت تطبق على المسائل الأساسية فقط ، إذ لا يمكن لتفاصيل حدثين تاريخيين أن تتشابه مائة في المائة . وهذا هو ما غاب عن شبنجر . . . فحينما حاول أن يدفع بفكرة التماثل إلى إثبات ترادف وقائع وشخصيات معينة في حضارات مختلفة ، ساعد على طمس معالم القضية الحقيقية ، أى وجود تشابه في الاتجاهات العامة ومراحل التطور ، وبمعنى آخر وجود تشابه في « الجوهر الاسامي » بين مختلف الحضارات . وسنتعرض لهذا الموضوع مرة أخرى بشكل أقل خطأ عند التحدث عن نظريات «توينبي» نظراً لأن الأخير قصر التشابه على هذه الأمور الجوهرية . ومن ثم يبدو أنه من الأفضل إرجاء الرد على هذه النقاط إلى أن تتولى بحث آراء «توينبي» في الموضوع .

### رأى شبنجر الأسطوري في التاريخ :

من بديهيات شبنجر أن عالم التاريخ ، بعكس عالم الطبيعة ، مساق بقوى تفوق كل قواعد السببية ، بل وفوق أبحاث التعليل العلمي أيضاً . فالنار يخ — في نظره — تحدده قوة قدرية غامضة . . . إنها قوة القدر بالبنط العريض . ويجب أن يوضع هذا العنصر في الاعتبار عند تقدير قيمة ما وصل إليه شبنجر من نتائج ما دامت هذه النتائج مسؤولة إلى حد

كبير عن تنبؤاته بنهاية كئيبة محتومة لحضارتنا .

إن رأى القائل بأن القدر يحدد كل تاريخ ، ينطوى على موقف حتمى تعسفى . ومعنى ذلك أن لكل حضارة مصيراً محتوماً ، حتى قبل أن توجد ، وعليها أن تتبع ، بصرامة ، طريقاً حدده القدر من قبل ؛ وكل محاولة للتماس من هذا الطريق ليست غير مجدية فحسب بل وسخيفة أيضاً ، كما تضعف بالجنس حسب تعبير شبنجلر . أما الرجل القوى فهو الذى يتقبل مصيره ويتحملة .

والمشكلة ، هى أن البيان الوحيد الذى لدينا إزاء هذا المصير هو مؤلفات شبنجلر الذى لا يعترف بأى تفسير آخر . وعلينا أن نأخذ ما يقوله على أنه إرادة القدر ، ما دام التاريخ — فى رأيه — لا يخضع لقوانين علمية دقيقة ولا يخضع للسببية ، فلا طائل من وراء محاولة استنباط المستقبل من الماضى ، غير أن شبنجلر يحاول دائماً ، وبلا أى أساس ، أن يفعل ذلك على وجه الدقة ، برغم أنه لا يستخلص نتائجه من سببية حوادث يمكن إدراكها ، بل يستخلصها من نمط معين يكشف عنه التاريخ ، ومن ثم يفترض أن القدر هو الذى أراد هذا النمط . ثم إن هذا الاعتقاد فى الطور الميتافيزيقي إنما هو نظرة ذاتية إلى درجة كبيرة ، ومسألة اعتقاد شخصى أكثر منها نظرة علمية . ومهما يكن من أمر ، فإن إنكار كل إمكانية للإدراك المعقول ، ومطالبة الجنس البشرى بالخضوع للقدر خضوعاً أعمى — كما يفسره شبنجلر من ناحية أخرى — إنما هو تصرف لا يرضى به غير القليلين جداً .

وسواء أقبل المرء خطة بشرية سامية فى قصة الجنس البشرى أم لم يتبناها

قالهم أنها زخرة بجهود محددة للأفراد والجماعات والأمم ، ويقدر ما نستطيع الحكم فإننا نقول إنها غيرت مجرى الأحداث .

### المبالغة في استخدام اصطلاح الحياة العضوية :

إن الصفة الحتمية لرأى شبنجلر عن التاريخ ، القوية فعلاً بسبب إيمانه بقوة القدر ، تزداد قوةً بسبب فكرته العضوية الصارمة عن الحضارات : فهو لا يثنى الحضارات بكائنات عضوية فحسب ، بل ينسب إليها صفات من المفروض أن تكون للنبات أو الكائن البشرى ، لأن إستعاراته عن المولد والشباب والنضوج والموت ، والربيع والصيف والخريف والشتاء وإطلاقها على الحضارات تتخذ معنى أبعد كثيراً من مجرد المقارنة .. إنها تتخذ صفة الخاصية الملزمة ، فبدلاً من أن يستخدمها كشيء ملائم يجعل أفكاره أكثر وضوحاً ، فإنه يلتزم باستعاراته هذه ، ويصبح عبداً لها بدلاً من أن يكون سيدها ، فإن لحضاراته حياتها الخاصة ، وهى تتخذ لنفسها مواقف خاصة تجاه الثقافات الأخرى ، وتستخدم السياسة والأمم للوفاء بما هو مقدور عليها .

وإذ يعتبر شبنجلر الحضارات كائنات حية ، فإنه يختزل الإنسان إلى أداة معدومة الإرادة فى أيدي الحضارات ، أى فى يدى القدر ، ومن الجهالة حقاً — حسب هذه الفكرة — أن يرفض الإنسان الامتثال لقرار الموت الذى أصدره القاضى شبنجلر على الحضارة الغربية باسم عدالة القدر الخالدة . ١١

وبعد هذا كله تبقى حقيقة لا تدحض ، وهي أن مؤلفات شبنجر جذابة ، لا تقتصر أهميتها على روعتها ، بل تشمل أهميتها الخطوط العريضة التي وضعها للحضارة ، إذ ندر أن تتجمع العبقرية والبدع الرومانتيكية وتمتزج ببعضها في مؤلف واحد مثلما تجمعت في مؤلفات شبنجر . . . ويقول « هويزنجـا Huizinga إن القارئ الناقد يشعر دواما كما لو كان يؤخذ إلى قمة جبل عظيم ويتولى إرشاده شخص تومض عيناه يريق الجنون .

فلو أن شبنجر استخدم نظاما أكثر صلة بالعلم في مؤلفه الخاص ، لبدا موضوعه العام عن النمط الموحد لجميع الحضارات أكثر وضوحا وإقناعا . . لقد أجهد نفسه في محاولة إبراز متناقضات سوداء وبيضاء ، حيث توجد فقط ظلال لضوء وظلام ، وأجهد نفسه في التفرقة الشديدة ، بين المسائل المتباينة ، والإستمرار في الموازنة بين التفاصيل الصغيرة ؛ وقدم آراءه على أنها وحى من القدر ، وشخص الحضارات ككائنات عضوية ، غير أن هذا كله لا يفسد القيمة المقنعة لقضاياه إذا ما جردت من هذا الوهن ، وتحولت إلى قضاياه معقولة : فالواقع أن هناك تشابها عاما في تطور الحضارات ، كما سنرى في الفصول التالية ، وتلقى هذه القضايا تأييدا قويا من الحقائق ومن أعمال الآخرين .

وعلاوة على ذلك ، فإن تنفيذ آراء شبنجر التي أوردناها في هذا الفصل لا يفسر الحقيقة المهمة ، وهي أن هذا الرجل بدأ تسجيل أفكاره قبل أن تندلع نار الحرب العالمية الأولى ، ورأى مقدما بثاقب نظره مجيء الحروب العالمية القادمة ، وديمقراطية الجماهير والديكتاتوريين العظام ، ونمو المدن العالمية ، وموجة الجذب والعقم ، ونهوض روسيا وآسيا . . .

وقد أيدت جميع هذه التطورات ، التي لم تكن دلائلها الأولية ملحوظة تماماً قبل الحرب العالمية الأولى ، نبوءات شبنجر أثناء الحقب التالية . وفيما يتعلق بهذه التطورات ، فإنها أدلة لا تُدحض على سداد التخطيط العريض الذي رسمه شبنجر لتطور الحضارات .

أما ما لم تثبته هذه التطورات ، فهو صحة القيم التي لم يربطها شبنجر بأزمة وظواهر معينة ، وذلك على أساس نظريته الخاصة المعادية للديمقراطية ، وهي لا تثبت أيضاً أن الطور الأخير من الحضارة هو أكثر أطوارها فقراً ، وفوق هذا فإنها لا تثبت أيضاً أن قيمة ذلك الطور واستمراره محدودان من قبل ، وليس في مقدور الإنسان أن يضيف إليهما ولا أن يحذف منهما .

## رأى «أرنولد توينبي» فى الحضارات

وبعد قرابة عشرين عاماً ، على الجانب الآخر من القنال الإنجليزى ، أخذ مؤرخ آخر مساوٍ لشبنجلر، إن لم يفقه عظمة وإتساع أفق ... نقول أخذ على عاتقه أن يسبر غور القوانين التى تتحكم فى نشوء الحضارات وانهارها . وإذا كان شبنجلر لم يتخل عن نزعة الألمانية عندما تناول المشكلة ، فإن «توينبي» لم يتخل بدوره عن نزعة البريطانية .. وقد حاول شبنجلر، سواء عن وعى أو بلا وعى ، أن يصوغ طابعاً صارماً يجب على جميع الحضارات أن تتواءم معه، فتتطور — كما يزعم أنه حدث فعلاً — فى رأيه ، طبقاً للقوانين لا مفر منها كالكائن العضوى . أما «توينبي» فقد إتبع ، على العكس من ذلك ، منوال الطريق البريطانى المجرب ، وذلك بدون ، أو على الأقل بغير ، أن تكون لديه أية أفكار سابقة .

وبالإضافة إلى ذلك الاختلاف الذى ينبع من الشخصية القومية ، يوجد اختلاف آخر شديد الصلة به ، هو اختلاف وجهتى النظر — ذلك لأن شبنجلر رجل عسكرى قبل كل شئ أما توينبي فرجل مدنى قبل كل اعتبار . وسوف نعود إلى هذا الاختلاف فى الفصل السابع .

غير أنه برغم هذه الاختلافات متأصلة الجذور ، فإن توينبي يدرك أيضاً وجود تشابه معين فى تطور مختلف الحضارات ، مما يدفعه إلى أن يرسم فى خطوط عريضة نموذجاً عاماً — يجب أن يكون قابلاً للتغيير — لهذا التطور

مغايراً لذلك الذى وضعه شبنجلر ، فدعنا نحاول ، من تتبع الخطوط الرئيسية لأفكاره — على أساس معلوماتنا ، وعلى أساس الوقائع المتجمعة لدينا فى مجلداته الضخمة (دراسة التاريخ) — أن نتبع الخطوط الرئيسية لأفكاره .

يبدئ فى توينبى جميع الحضارات المعروفة ، فى مجال دراسته ، وقد ميز منها ثلاثين حضارة . ومن هذه الحضارات الثلاثين ، إحدى وعشرون حضارة أتمت نموها ، وخمس حضارات يطلق عليها اسم « حضارات موقوفة » ، وصل نموها إلى نقطة ما وتوقف قبل أن تبلغ مرحلة النضوج ، أما الأربع حضارات الباقية فولدت ميتة ، ويسمياً ( حضارات مجهضة ) .

وتوجد بين الإحدى والعشرين حضارة المكتملة النمو ، سبع حضارات ما زالت قائمة كمجتمعات حية ، وتلك هى : الهندية ، والإسلامية ، والشرق الأقصى ، والبيزنطية أو المسيحية الأرثوذكسية فى جنوب شرق أوروبا ، والفرع الروسى من هذه الحضارة ، والحضارة الغربية . أما الحضارات التى قضت نموها بعد أن سبقت الحضارات سالفة الذكر فن بينها : الفرعونية ، والسومرية ، والمكسيكية ، والبابلية ، والإيرانية ، والهيلينية ....

### الحركة الإيقاعية فى الحضارات

وبينما يقيم توينبى حجته المكتملة فى بطل وعظمة ، تتكرر نغمة أساسية فى أشكال مختلفة كثيرة ، ولهذا فإنها تستحق الذكر قبل أن نتعرض لأفكاره الخاصة بحياة الحضارات .. إنها نغمة الحركة الإيقاعية المستمرة :

حركة الارتفاع والانخفاض ، وأرجحة البندول التي تبدى طوال مراحل تطور الحضارة ، كما هي الحال في الأمة أو الفرد ، وهي الحركة التي يُشعر بتأثيرها في المراحل الحرجة على وجه الخصوص . وتظهر هذه الحركة الإيقاعية بأشكال مختلفة في نظريات توينبي .

إن الشكل الرئيسى هو « التحدى والرد عليه » ، ففي مجرى تطور المجتمع نراه يواجه ، باستمرار ، صعاباً تهدد كيانه ووجوده ، ويحدد رده عليها مستقبل المجتمع . وإذا كان الرد مناسباً لمواجهة التحدى ، فإن حياة ذلك المجتمع سوف تستمر مزدهرة بفضل القوة الداخلية والخارجية المستمدة من نجاحه . أما إذا لم يستطع المجتمع مواجهة التحدى بنجاح ، فإنه يفقد قيمته الأصلية ، أو هيبته الخارجية ، أو رفاهيته المادية ، وربما بلغت خسارته حداً يشكل النهاية الفعلية لذلك المجتمع .

إن هذه العقبات والردود المتكررة عليها تشكل ارتفاعات وانخفاضات — أو ، بدقة أكثر — إنخفاضات وارتفاعات في حياة المجتمع ، لاتحدث فقط خلال طور النمو ، وإنما تتعداه إلى طور التحلل ... ويميزها توينبي ، في الطور الأخير ، على أساس أنها عملية « التحفز » و« ضم الصفوف » . وليس ثم اختلاف جوهري كبير بينها وبين التحدى والرد . أما الاختلاف الرئيسى فيوجد خلال مراحل المولد والنمو ، حيث يكون الرد أعظم من التحدى ، مما يدفع بالحضارة إلى مستوى أعلى في كل مرة ، بينما لا تستطيع مرحلة « ضم الصفوف » تعويض الانتكاس خلال « أطوار الاضمحلال » ، وبعبارة أخرى: إن توينبي يرى أنه لاالنمو ولا التحلل يمثلان عملية إرتفاع أو تدهور

غير متقطعة ، وإنما الأرجح أن كلا منهما يتشكل بموجب تعاقب الحركات « الثانوية ، الصاعدة والهابطة ، وهي التي تبين ، في تكاملها ، حركة « بدائية ، للصعود أو الهبوط خلال فترات النمو أو الانحلال على التعاقب .

ويميز المؤلف أحياناً حركة إيقاعية ثالثة في حياة المجتمع ، وتلك هي حركة « الانسحاب والعودة ، وهي حركة إيقاع عام في الطبيعة ، وتعتبر خاصة من خصائص الابتكار . فقد تنسحب ( تحتفي ) البذرة في التربة ولكنها سرعان ما تعود إلى الظهور في شكل النبات المتطور ، وبالمثل فإن الفرد أو المجتمع ، أو الأمة ، أو الحضارة قد تحتفي في بعض الأوقات ، وتمر بعملية تنقية داخلية أو تطور ، ثم لا تلبث أن تعود أكثر غناء وقوة في رفقة مثيلاتها ، ويقدم توينبي أمثلة كثيرة على هذه الظاهرة ؛ وسنشير إلى بعضها فيما بعد . . . .

هذا فيما يتعلق بالحركة الإيقاعية التي يشير توينبي إلى تتبعها بداخل حياة كل حضارة على النحو الذي توجد عليه في جميع أشكال الحياة على الأرض . غير أنها حركة إيقاعية ثانوية على كل حال تتخذ مكانها داخل إيقاع أكبر ، هو حركة دائرية للحضارات من ظهور وتطور ، واختفاء . وتشكل هذه الحركة النخمة الأساسية لدراسة توينبي الرائعة . فقد قسم هذا الموضوع إلى أربعة أجزاء تعالج ، على التعاقب ، مولد الحضارات ، ونموها ، وانهارها ، ثم تحللها .

### مولد الحضارات

يرى توينبي — على النقص من كثير من المؤرخين السابقين له — أن مولد الحضارة لا يعزى إلى تفوق جنس بشري معين ، أو إلى ظروف ملائمة بشكل غير عادى ، بل يعزى إلى ظروف قاسية بشكل غير عادى . وتشكل هذه الظروف تحدياً للمجتمع ما ، فيحاول هذا المجتمع أن يواجه هذا التحدى ويرد عليه من أجل البقاء أو المحافظة على مستوى وجوده ، فإذا ما واجه التحدى بنجاح ، وتغلب عليه ، فقد يؤدي هذا المنشط أو الحافز إلى زيادة تحسين قوته الداخلية وقدرته الخلاقة إلى درجة كبيرة بحيث يؤدي ذلك إلى مولد ما نطلق عليه — عادةً — إسم « الحضارة » .

إلا أنه ينبغي أن تؤكد أنه برغم ضرورة وجود نوع من الموهبة والقدرة على الابتكار بالنسبة للدور الذى يلعبه المجتمع الذى يواجه تحدياً ما حتى يستطيع أن يواجهه بنجاح ، فإن توينبي لا يقبل ، بأى وجه من الوجوه ، التفسير العنصرى الذى ينسب مولد إحدى الحضارات إلى التفوق الفطرى أو هبقرية جنس أو شعب معين ، وإنما ينسبه ، إلى حد ما ، إلى مجموعة من الظروف التى تعتبر بمثابة التحدى . . . هذا من ناحية ، كما ينسبه ، من الناحية الأخرى ، إلى صفات مجتمع ما وتأثيرها على مجتمع آخر مما يحدث ما يشبه المعجزة فى التاريخ كمولد الحياة الفيزيائية فى عالم الطبيعة . . .

وكأمثلة على عملية الولادة تلك ، يشير توينبي ، بصفة خاصة ، إلى الحضارتين المصرية والسومرية ، إذ يعزو نشأة كل منهما إلى تغير المناخ الذى حوّل الأراضى العشبية وسهول إفريقيا وآسيا الخصبة الندية إلى صحراء

جافة مجربة يتعذر فيها على سكانها الاستمرار في حياة الصيد . . . ولم يكن وادى النيل ولا الفرات ولا دجلة مكانا يؤدي إلى الرخاء ، والدليل على ذلك موجود في الحالة البدائية الفقيرة التي ظل عليها سكان أعالي وادى النيل والفرات حتى يومنا هذا ، فهم يعيشون في ظروف تشبه تلك التي عاش فيها مؤسسو الحضارات المصرية والسومرية الأولين .

وتم مثال آخر على بحث توينبي ، موجود في الحضارة الصينية التي لم تنشأ أصلا في وادى اليانجتسي الخصيب ، بل نشأت في وادى النهر الأصفر بمستنقعاته وفيضاناته .

ويمكن تفسير أصل الحضارات التي نتحدث عنها بأن قبيلة ما أو أمة ما أجبرتها الظروف — حين جعلت مواطن إقامتها التقليدية غير ملائمة للحياة — على بذل جهد صادق لتحويل وديان المستنقعات المشار إليها إلى أراض خصبة ؛ وعند ما تبين نجاح جهودها أصبحت الظروف المواتية التي خلقتها بمثابة الرحم الذي ولدت فيه القوى المنتجة الطليقة لهذه الأمم ، مانسميه « الحضارة » . . .

### نمو الحضارات

يرى توينبي أن نمو الحضارة ليس مجرد عملية بيولوجية أوتوماتيكية بسيطة تجري في أعقاب مولد الحضارة . ويثبت ذلك أن عدة حضارات توقفت عند حد معين في مجرى حياتها ، وقد يحدث ذلك مثلا ، عندما يكون

التحدى المواجه شديداً إلى درجة تجعل المجتمع يستنزف طاقته كلها في محاولة الرد عليه ، ومن ثم فحتى إذا نجح الرد ، فإن القوى المنتجة المتخلفة بعد ذلك قد لا تكون كافية للمضى في النمو . . .

فإذا كان نمو الحضارة لا يتبع بالضرورة مولد هذه الحضارة أوتوماتيكياً ، فما هي إذن الخصائص التي يمكن أن نميز بها مثل هذا النمو ؟

حينما يتصدى توينبي للإجابة على هذا السؤال ، فإنه يستبعد أولاً بعض الاحتمالات الظاهرة . فهو مثلاً لا يرى في التوسع في السيطرة على الأراضي أو الشعوب — سواء أكان توسعاً سياسياً أو عسكرياً — ولا في السيطرة على البيئة المادية ( التحسن الفني ) ظاهرة أو دليلاً على النمو وإنما الأرجح لديه الحالة العكسية : إن التاريخ يبين لنا أن أعظم توسع إقليمي لحضارة ما ، يحدث ، عادة ، في المرحلة المبكرة من مراحل التحلل ، حيث يكون من المحتمل أن يؤدي التحسن الفني إلى وأد الحضارة ، كما يحدث في حالة الحضارات « المتوقفة » ، وذلك لأن التحسن الفني يمتص جميع طاقات النشاط ، وبذلك يصبح المجتمع عبداً لهذا التحسن بدلاً من أن يكون سيده .

وتعتبر الخاصية الإيجابية للحضارة النامية ، في رأى توينبي بمثابة عملية «أثيرية» Etherialization روحية ، ففي كل مجال من مجالات التطور : في اللغة والملابس والفنون العملية والعلوم ، يرى توينبي ميلاً مستمراً إلى التبسيط ، ولذلك فإن أقل طائفة تكفي لحل مشكلات الحياة المادية الخالصة ، ويصبح في متناول اليد تدبير مزيد من النشاط للأعمال « الروحية » ، وطبقاً لذلك ، يطرأ تغيير على المجال الذي يجري فيه التحدى والرد عليه . وفي هذه الحالة يستمد

التحدى من الظروف المادية قدراً أقل من النشاط ، بينما يستمد قدراً أكبر ، من المنازعات الاجتماعية والروحية التي تجرى بداخل المجتمع ، ومن ثم تصبح عملية النمو إحدى عمليات « التشكيل الذاتى » ، أو « تقرير المصير » .

وتلعب حركة الانسحاب ( الإختفاء ) والعودة ، دوراً هاماً فى هذه العملية ، وقد ذكر توينبى أمثلة كثيرة لما اعتبره اختفاءات مؤقتة سواء من جانب المجتمعات أو « أقليتها الخلاقه » . فأتينا مثلاً ، لم تلعب دوراً فى الإستعمار اليونانى العام الذى استمر فيما بين القرن الثامن والقرن السادس قبل الميلاد ، غير أنها عادت بعد ذلك فقامت بدور الزعامة فى مجموعة الدول اليونانية ، وبرزت إيطاليا من المجتمع الإقطاعى فيما بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر ، حيث أتمت الانتقال من المجتمع الزراعى إلى المجتمع المدنى التجارى والصناعى ، وكانت إنجلترا إبان فترة عزلتها النسبية عن أوروبا ، أى فيما بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر ، قد أرست قواعد الديمقراطية البرلمانية والمجتمع الصناعى الحديث . ويرى توينبى أنه يجب علينا ألا نغفل عن احتمال أن تكون عزلة روسيا الحالية عن العالم عملية مماثلة للاختفاء المؤقت .

عند هذا الحد من رواية توينبى ، يظهر مفهوم لا يتعدى خطأ جانبياً فى اتجاه تفكيره العام ، إلا أنه يعتبر رأياً من تلك الآراء المتبلورة الخلافة التى يزخر بها بحثه ، ونعنى بذلك دراسته عن العلاقة بين المجتمعات وقادتها ، سواء أكان القادة أفراداً أم جماعات ، وبرغم أن توينبى يرفض وجهة النظر القائلة بأن المجتمع كائن حى ، والفرد عضو فيه ، ويرفض أيضاً الفكرة القائلة بأن المجتمع ليس أكثر من مجرد مجموعة من الأفراد ؛ برغم هذا فإنه

يشير إلى أنه لا يمكن لأحد أن ينكر أن مصدر كل عمل في كل مجتمع هو الأفراد ، أو أقليات صغيرة تشكل ، أقلية خلاقة ، وأن المشكلة التي تواجهها هذه الأقلية إزاء الأكثرية السلبية غير الخلاقة هي كيفية نشر آرائها ووضعها موضع التنفيذ ، ولما كان الجمهور عاجزاً عن المضى في نفس التجربة من الناحيتين الذهنية والروحية على النحو الذي تفعله الأقلية الخلاقة ، فإن أحسن ما يمكن عمله هو أن يقبل الجمهور موقف القادة ونظرتهم وأن يعمل على تقليدها . ويطلق توينبي على هذه العملية ، المحاكاة Minesis .

وهنا يوجد تفسير أكثر دهاءً وإقناعاً ، وأكثر واقعيةً في نهاية الأمر للعلاقة بين القادة والجمهور ، من تقسيم شبنجلر العسكري الفج لجميع المجتمعات إلى حاكين ومحكومين ، سيد ورقيق ، متبوع وتابع بالنسبة للسلطة . وقد يميل المرء لأول وهلة إلى اعتبار الخلاف خلافاً في الدرجة والتفسير لا في الجوهر الرئيسى ، لأن الحقيقة التي يقبلها كل من شبنجلر وتوينبي هي أنه توجد في كل مجتمع أقلية تحكم فعلاً ، وأغلبية تدعن وتطيع . . ومهما يكن من أمر ، فإن أمانة الأغلبية تقوم على قواعد مختلفة اختلافاً أساسياً في الرأيين . وتظهر نتائج هذه الاختلافات بوضوح فيما يختص بتدهور الحضارات وتحللها ، فهي — عند توينبي — ظاهرة أساسية للتحلل لأنه حينما تصبح الأغلبية القيادية غير جديرة بتولى القيادة الخلاقة فإنها تفقد تأثيرها على الرعية ، ومن ثم تحاول الاستمرار في قيادتها بإجبار الرعية على طاعتها طاعة عمياء . . أما شبنجلر فيرى عكس ذلك تماماً ، إنه يرى أن الطاعة للقادة طاعة عمياء ، ضرورة للمجتمع الصحيح ، وأن فقدان هذه الطاعة العمياء مسألة خطيرة ، وهكذا فإن الطاعة العمياء القائمة على القوة في الوقت

الذى تعتبر فيه ضرورية لحضارة ما ، تعتبر سبباً للاضمحلال بالنسبة  
لحضارة أخرى .

ويقودنا هذا القول إلى المرحلة التالية في حياة الحضارة : وهى التدهور  
الذى يسبب التحلل .

### تدهور الحضارات

ومرة أخرى يبدأ توينبى برفض تفسيرات عديدة قدمها مؤرخون  
أوائل عن هذه الظواهر .

ومن ثم فليست أية قوة خارجية هى التى تسبب تدهور المجتمع . وعلى ذلك  
فإن حقيقة أن قوات عسكرية أو سياسية خارجية هى التى تهزم المجتمع  
أحياناً ، ليست سوى دليل على فساد هذا المجتمع من الداخل : فإذا ما ظهرت  
أخطار مماثلة خلال تطور النمو فإنها لا تدرأ بانتصار فحسب ، بل إنها غالباً  
ما تشكل منها يثبت أنه سلم للصعود إلى مستوى أعلى .

كذلك لا يقبل توينبى التفسيرات الحتمية للتاريخ ، ولا النظرية  
القاتلة بأن الحضارة تتدهور بالضرورة ، بعد فترة معينة من الاضمحلال  
العنصرى أو الروحى .

وفضلاً عن ذلك ، فإن ما يستمد من آرائه سالفه الذكر هو أنه مثلما  
لا يدل تحسن الفن أو اتساع نطاق السيطرة على البيئة ، على نمو إحدى  
الحضارات ، فإن اضمحلال الفن أو تركيز السيطرة الجغرافية على البيئة  
البشرية لا تشكل فى حد ذاتها — أو تثبت — تدهوراً .

إن ما يشكل التدهور هو : الفشل المطرد في الرد على التحدى الخارجى ، وقد تكون الأسباب التى ينشأ منها هذا الفشل كثيرة : كأن يتحول التقليد الذى تقوم به الجماهير إلى تقليد أوتوماتيكى أو إلى أداء إجبارى ، وقد تفشل الأشكال القديمة فى صلاحيتها لأغراض جديدة . وقد يسبب الرضى الذاتى أو عبادة الأشخاص أو النظم أو الفنون العملية ، فقدان القدرة على الابتكار .

وفى جميع هذه الحالات المختلفة يكون لب التدهور شيئاً واحداً : لم تعد الأقلية الخلاقة قادرة على إيجاد قوة خلاقة كافية لمواجهة التحدى فى ذلك الوقت المعين . ونتيجة لذلك فإنها تفقد جاذبيتها وسحرها على الجماهير ، ومن ثم فإنها تضطر إما إلى الاستمرار فى ممارسة قيادتها بالقوة أو بالاستمرار فى التقليد الذاتى الأوتوماتيكى وهو تقليد أجوف . وهكذا تصبح الأقلية الخلاقة أو القيادية ، أقلية مسيطرة أو قاهرة ، لأن الجماهير ، أو على الأقل جزءاً منها ، تكف عن الخضوع لها ، وكما تكف عن تقليدها للأقلية ، فتشعر بأنها باتت خارج محيط المجتمع وحضارته ، فتأخذ موقفاً معادياً له ، وتصبح - كما يطلق عليها توينبى - بمثابة « بروتارىيا داخلية » . وهكذا تحدث ثغرة فى الوضع السياسى ، وتصعد فى الوحدة الاجتماعية ، وهذا هو بدء التحلل . وبهذا تدخل الحضارة فى مرحلتها الأخيرة : مرحلة التحلل .

### انحلال الحضارات

هل يؤدى تدهور الحضارة بالضرورة إلى تفككها ؟ . إن الإجابة على ذلك هى كلا . . وهناك بديل لذلك : وهو أنه إذا مُدَّت الثغرة والتأم

الشمول بدرجة كافية فإن عملية الاضمحلال قد تتوقف ، وتدخل الحضارة في مرحلة الجمود التي قد تستمر قروناً ، وهذا هو ما حدث بالنسبة لحضارتى مصر القديمة والشرق الأقصى . وعلى كل حال ، إذا لم يكن التحلل قد تغلغل في برعم الحضارة ، فإنه يمضى في طريقه الذى يتميز بعدة ظواهر عامة بالنسبة للطور الأخير لسائر الحضارات .

خصائص الطور الأخير للحضارة فى رأى « توينبى »

إنشقاق الوضع الاجتماعى . البروليتاريا الداخلية والخارجية

يظهر الانقسام المشار إليه قبل كل شئ فى الوضع الاجتماعى بين الأقلية المسيطرة ، و البروليتاريا الداخلية ، . ويكمل هذا التحدى النابع من الداخل لزعامه المجتمع المتحلل ، تحدى من الخارج يأتى من جانب « البروليتاريا الخارجية » ، وتواجه كل حضارة تحدياً وخطراً خارجياً دائماً من جانب حضارات وجماعات أخرى... وكلما استمر نمو الحضارة واستمرت قوتها ، فإنها لن تستطيع أن تواجه التحدى وتتغلب عليه فحسب ، بل إنها تزاوُل أيضاً تأثيراً على الجماعات المحيطة بها ، بواسطة « إشعاعاتها » ، ونتيجة لذلك ، تتبع تلك الجماعات قيادة هذه الحضارة سواء بوعى أو بغير وعى ، إلا أنه حالما يحدث التدهور ، ينتهى تأثير ظاهرة « الإشعاع والانجذاب » على الجماهير الخارجية بدرجة أكبر مما يحدث للجماهير الداخلية ، وتتاح الفرصة أمام عملية « التحدى والرد عليه » فتواجه الجماعات الخارجية المجتمع بعقبات جديدة ، وعندما تفشل الأقلية المسيطرة فى مواجهتها ، فإنها تفقد تأثيرها على الجماهير

الخارجية ، ومن ثم تتحول تلك الجماهير إلى « بروليتاريا خارجية » حسب تعبير توينبي ، أى أنها تصبح مجموعةً واسعة النطاق تشعر بأنها « خارج » المجتمع وذلك لكونها أقل امتيازاً من الناحيتين الاقتصادية والسياسية ، ومن ثم تصبح خصماً للمجتمع .

ويتميز بنيان الحضارة الإجتماعى والسياسى فى فترة التحلل بانقسام الوضع السياسى إلى ثلاث فئات : أقلية مهيمنة ، تعارضها بروليتاريا داخلية ، وبروليتاريا خارجية . . . وقد يكون الانقسام أفقياً فقط ، وعندئذ يشكل إنقساماً إجتماعياً ومذهبياً عبر الحدود ، وقد يكون عمودياً ، أى يتخذ شكل فضال بين المناطق المقسمة جغرافياً أو حسب المعاهدات . وقد يختلط الشكلان معاً كما هى الحال فى عصرنا هذا .

### الانشقاق فى الحياة الروحية :

ويقترن الانشقاق فى الحياة الإجتماعية ، بالانشقاق فى الحياة الروحية ، وهو أيضاً أحد خصائص تحلل المجتمع ، ويحس به الفرد كما يحس به المجتمع ككل ، وتستبدل القدرة على الابتكار إما بالتخلى عنها أو بالتحكم فى النفس ؛ ويستبدل التقليد بالاستشهاد ، ويحل الإحساس بالانقياد والإثم محل « الوثبة » الخلاقية السابقة ، يأخذ الإحساس باللبلة والوحدة محل الإحساس السابق بالأسلوب ، ويحل التغير الذى كان علامة على النمو مكانه للنمط الواحد ، وهو علامة الاضمحلال .

وكعلاج لذلك ، فإن المجتمع الآخذ فى التحلل يبحث عن مفر فى أشكال هروبية مختلفة مثل « الهروب إلى القديم » كحالة للعودة إلى الماضى

و مثل « المستقبلية » كحالة للوثوب إلى مجتمع المستقبل الفاضل ، و مثل « الانفصال » كحالة للاختفاء من العالم على النمط الذى حددت فيه تعاليم بوذا ، و مثل « التجلى » كحالة للعثور على المجتمع الفاضل وراء هذا العالم ، كما هى مجسدة فى تعاليم المسيح .

وإزاء تفكك المجتمع ، قد تجد هذه المواقف الروحية كلها تجسماً لها فى الأنبياء الذين يكونون بمثابة المنقذين ، و من ثم فقد ميز « توينبى » النماذج التالية من المنقذين :

« العبرى الخلاق » ، و « المنقذ بحد السيف » — وهما موجودان بين مؤسسى ومدعى الدولة العالمية — و « المنقذ بالعلاج الزمنى » وهو الشخص الذى يعد بتحسينات وذلك بالعودة إلى الماضى أو التطلع إلى المستقبل . . و « الفيلسوف المقنع فى قناع الحاكم » وهو علاج أفلاطونى ؛ وأخيراً الإله المجسد فى الإنسان ، وهو المنقذ الوحيد الذى يهزم الموت .

### عصر المتاعب :

يولّد التحلل والانشقاق الملازم له ، فترةً من المصادمات السياسية والاجتماعية ، تُعرف فى إصطلاحات توينبى بـ « عصر المتاعب » فتقع أعمال حربية واسعة النطاق بين الدول القوية ، والمجموعات المتحالفة ، والمذاهب ؛ وهو ما نطلق عليه — فى اللغة العصرية — الحرب الشاملة ، أى التى تشمل حياة الأمة بأسرها ، وتؤثر عليها تأثيراً قوياً يستمر حتى النهاية المريرة ، ولا يكتفى بمجرد إلحاق الهزيمة بالخصم ، وإنما يهدف إلى إفنائه وإفناء قاداته قناء تاماً .

ويستنزف عصر المتاعب قوى الأمم والجماعات المحاربة ، ويولد بين الجماهير تطلعا متزايدا إلى السلام والاستقرار قبل كل شيء . وهكذا يمهّد هذا العصر الطريق إلى الظاهرة التالية في عملية التحلل ، وهي قيام الدولة العالمية بواسطة الدولة — أو القسم الأقوى — التي تتمكن في نهاية الأمر من توطيد زعامتها على المنطقة بأسرها التي تسود فيها الحضارة بعد ذلك . .

### الدولة العالمية والكنيسة الجامعة :

لما كانت الدولة العالمية تعنى فرض حكم الأقلية المسيطرة على البروليتاريا الداخلية المتذمرة ، فإنها تحمل في ثناياها بذور تدميرها . . إن الدولة العالمية هي الرد الذي تقدمه الأقلية المسيطرة على التحدى الذي توجهه البروليتاريا الداخلية والخارجية لحكمها . . ومهما يكن من الأمر ، فإن البروليتاريا لا تشعر بأى ارتياح من ناحية الدولة العالمية ما دام لم يعد في مقدور الأقلية المسيطرة أن تحقق حكماً مرضياً جذاباً بدرجة كافية ، ومن ثم تبحث البروليتاريا عن مذهبيات وعقائد خاصة بها وتسعى إلى تطويرها ، وتتطور إحدى هذه العقائد إلى « الكنيسة الجامعة » ، التي تعتبر رد البروليتاريا الإيجابي على التحدى الذي واجهتها به الأقلية المسيطرة في الدولة العالمية .

وقد تظل الدولة العالمية قائمةً زمناً طويلاً ، وتحافظ — خلال هذه الفترة — على إبقاء الحضارة في حالة جمود . . . أما الكنيسة الجامعة فتبقى مدة أطول ، وقد تُعمر بعد الحضارة ذاتها ، بيد أنه لا الدولة العالمية ، ولا الكنيسة الجامعة بقادرة على تغيير عملية التحوّل هذه ، بل بالعكس ،

تكون الكنيسة الجامعة - بحكم معارضتها لعقائد وأسس الأقلية المسيطرة - ميالة إلى تقويض أسس الحضارة حتى لو تساهلت الأقلية المسيطرة مع الكنيسة ذاتها ، أو تمسكت بها كما حدث مع الدين المسيحي في الطور الأخير من الامبراطورية الرومانية .

### عصابات البرابرة الحربية :

تقوم البروليتاريا الخارجية ، بدورها ، بالرد على قيام الدولة العالمية ، وذلك بتشكيل عصابات محاربة من البربر تحت قيادة الأبطال الذين يؤمنون بأن أيديولوجيتهم متمثلة في عبادة البطولة وشعُر الملاحم ، فتداهم هذه العصابات حدود الدولة العالمية بلا انقطاع ، وهذا العمل ظاهرة أخرى للمرحلة الأخيرة من الحضارة .

وأخيراً ، تستسلم الدولة العالمية بما تجسده من حضارة لمزيج من عوامل التعويض من جانب الكنيسة الجامعة وغزوات عصابات البربر ، ويكون ذلك نتيجة لضعفها . . . . وفي النهاية ، تخسر الأقلية المسيطرة معركتها ضد البروليتاريا الداخلية والخارجية إذا كان ردها على هذه العقبات غير مناسب ، وبذلك تُطوى صفحة الحضارة .

### عصر البطولة :

بهذا الحدث يتكس المجتمع ويعود إلى مرحلته البدائية حتى ينبثق فجر حضارة جديدة ، ومن ثم يعتبر توينبي هذه المرحلة «مرحلة فراغ وانتقال» بين حضارتين ، وتتميز بتحركات واسعة من جانب قبائل البربر وشعوب الامبراطورية العالمية السابقة التي انتزعت من أماكن إقامتها . .

إنها فترة تحوّل « العامة » ، وتمكن تسميتها أيضاً « عصر البطولة » ، لأن الغلبة فيها لأبطال الحرب الذين يوجدون في المرحلة الأولى لكل مجتمع .

وفي هذه المرحلة يختفي جزء كبير من الحضارة السابقة ، وإن كانت لا تختفي كلها . . . وهنا تبدأ الكنيسة الجامعة التي أوجدتها البروليتاريا الداخلية ، في القيام بدور تاريخي لا يمكن تقديره لأن الكنيسة الجامعة لم تكن في الواقع من الحضارات القديمة ، ولهذا فإنها لا تموت معها . . . إنها تختفي فقط أثناء هذه الفترة ، ثم تعود للظهور كقوة مولدة لحضارة جديدة . . . إنها بمثابة « الشرقة » ، يُحفظ فيها جوهر الحضارة حتى تتولد منها حضارة جديدة ذات جمال أعظم وتطور أسمى ، وبهذا تتم الدورة الخالدة للحياة والموت ، فتموت الحضارة ، غير أنها — حين تموت — تولد جنيناً تنبثق منه حياة جديدة أكثر غناء ، وما أن تبسط هذه المعجزة نفسها أمام العين البشرية ، حتى تجعلنا نشعر بالعجز أمام لغز حاول الإنسان أن يحمله حلاً منذ أن بدأت شعلة العقل تتوهج في ذهنه : فلماذا ؟ وما معنى ذلك إذا كان هناك معنى أو غرض على الإطلاق ؟ وإذا كان هناك غرض ، فهل تستطيع العين البشرية أن تتبينه ؟ .

إن ذلك يقودنا رأساً إلى أعماق جذور النقد الذي يمكن أن يوجه إلى مؤلفات توينبي ، والذي يستحق اهتمامنا قبل أن تستخلص منه أية نتائج .

## مناقشة آراء توينبي

ينبغي ألا يدهشنا أنه ، في الوقت الذي أصبحت الحضارة الغربية تشكك فيه في ذاتها وفي مستقبلها ، أثارت تعاليم توينبي احتمالاً كبيراً واجتذبت أتباعاً ندر أن كان لها مثيل في المجال التاريخي . .

كانت الهزة التي أحدثها كتاب شبنجر "اضمحلال الغرب" ، في السنوات العشرينية ظاهرة نموذجية لما حدث بعد الحرب العالمية الأولى . وقد خلق التأثير الأكبر الذي أحدثته الحرب العالمية الثانية إحساساً أعظم بالآزمة في العالم الغربي ، فقد استتبع التوسع الجغرافي وتغير مجال العمل العسكري ، توسع وتغير مماثلان في مجال المصالح ، ووجد شبنجر مجاله مبدئياً في القارة الأوروبية ، بينما وجد توينبي في العالم الأنجلوسكسوني .

لقد كانت المناقشة التي أثارها توينبي دقيقة ، والنقد متعدد ، ومع ذلك فإن معظم ناقديه أحنوا رموسهم تقديراً لإلمامه الشامل في مجال التاريخ ، وعمق نظرته ، ونبوغه في التخطيط ، فإن أحداً لم يستطع - أو حتى يحاول - التغلب عليه أو منافسته فيما أنشأ على قدم المساواة .

ولكى نحكم على القوة الحقيقية لهذا البرج النظري الشاخص ، يبدو أنه من الضروري ، أن نتأمل مجال النقد الذي أحاط بنظريته .

### نقاط النقد الأساسية

ليس في التاريخ نمط ، وليس له غرض :

إن النقد الأساسي للنمط الذي رُسم في كتاب «دراسة في التاريخ» ، هو أن مجرى التاريخ بترائه الهائل ، وتنوعه الأبدي ، لا يمكن أن يُختزل إلى مجرد نمط قياسي لا أكثر ولا أقل ، وقد أثير هذا الاعتراض تقريباً من جانب جميع الذين نقدوا كتابات توينبي وإن اختلفت درجاته . والرأى الشائع بين معظم مؤرخي القرن الماضي ، وبين كثيرين من مؤرخي القرن الحالي ، أن التاريخ يتغير دواماً ، ومن ثم يستحيل التنبؤ به ، ولهذا يذهب الذين يقولون إنه ليس في قدرة البشر أن يتبينوا أن للتاريخ معنى ، إلى أنه لا يمكن إذن إدراك هذا المعنى ، وبينما يوافق آخرون على أنه من الممكن ، بل من الواجب على المؤرخ ، أن يحاول تمييز معنى في التاريخ ، فإنهم يزعمون أن ذلك المعنى يمكن أن يثبت نمطاً جامداً ، أو غير مرن يكرر نفسه بلا هوادة .

ويرد توينبي على ذلك بأنه ، هو أيضاً ، لا يؤمن بالنمط الجامد غير المرن ، وأنه لم يحاول إطلاقاً إيجاد مثل هذا الطابع ، وعلى العكس ، يصير توينبي على أن طريقة تناوله للموضوع تجريبية خالصة ، وأنه إذا كان هذا التناول قد أدى إلى اكتشاف تناسق معين في تطور الحضارات ، فينبغي ألا يفسر هذا التناسق إطلاقاً على أنه بشكل طريقاً غير قابل للتغيير ، وأنه قدّر على جميع الحضارات أن تسلكه . ويصر من ناحية أخرى ، وبنفس القوة ، على أنه لا شأن له بما يطلق عليه «الرأى الذى لا معنى له

في التاريخ ، وهو الرأي الشائع بين المؤرخين الغربيين منذ أجيال قليلة ، ،  
وأنه ليس هناك سبب يمنع الإنسان من أن يحاول إيجاد معنى لحقائق التاريخ ،  
ففي مناقشته التي أذيعت بالراديو مع الأستاذ « جيل » Geyl الذي يرى  
أن ذلك عمل مستحيل ، قال توينبي : « إتنا لا يمكن أن نقبل مثل هذه الدعوة  
للهزيمة ، لأنها ليست جديرة بعظمة عقل الإنسان ، وقد دحضتها أعمال  
العقل الإنساني في الماضي ... وإن مهمة إيجاد معنى للتاريخ هي إحدى  
الضرورات الملحة في أيامنا هذه . »

ويعتبر هذا الاختلاف في النظرة العامة حول ما إذا كان يمكن ،  
أو كان من الواجب ، أن تفسر التاريخ بحيث يكون له معنى أم لا ، هاماً  
جداً ، لأنه يحدد أساساً موقف المرء تجاه نظريات توينبي ، فأولئك الذين  
يقولون إن التاريخ لا يعبأ بتفسيرات لها معنى في العقل البشري ، يجدون أنه  
من العسير أن يقبلوا تخطيط توينبي للخطوط العريضة التي تتطور  
الحضارات على أسسها ، وأصعب من ذلك قبول حتمية شبنجلر البيولوجية ،  
أو مادية ماركس التاريخية .

وبالنسبة لموقف الفرد إزاء مسألة « وجود معنى للتاريخ أو عدم وجود  
معنى له ، فمن الواضح أن عقيدة الإنسان ومفاهيمه الروحية تحددها  
إلى درجة كبيرة ، ولهذا فإنها تتحدى المناقشة العلمية .

### الانحياز المسيحي عند توينبي :

إن هذا القول ينتهي بنا إلى السبب الثاني الذي استثنى بعض المؤرخين  
تعاليم توينبي من أجله ، على اعتبار أنها ليست نتيجة بحث علمي خالص ،

ولكنها - في التحليل النهائي - فرض تمليه المعتقدات الدينية . ويعبر  
الباحث الاجتماعي الأمريكي ، ١٠٥ . بارنس - H. A. Barnes عن  
هذا اللون بدقة أكثر ، إذ يقول :

[ إن « دراسة التاريخ ، بحث  
عظيم هائل لما أسماه « جورج سانتايانا  
George Santayana ، السيرة المسيحية ،  
كما هي مشروحة عند أوجستين وأتباعه .

ولكى نزيح النقاب عن مأساة لغنة  
الماضى والخلاص الأخير للبشرية ، فإن  
الهدف الأول لتوينبى لم يكن الغرض  
التاريخى المباشر الواعى ]

\* \* \*

[ إن العملية والمراحل التى هلكت  
خلالها المجتمعات بلا إيمان صحيح تشكل  
كلام النظرية والتطبيق فى كتاب توينبى  
المسمى « دراسة التاريخ » .

ولا ريب أنه تبين لكل من قرأ كتب توينبى أن هذا ليس تقديمًا عادلاً  
لتفكيره ، فبينما هو يوضح أن عقائده المسيحية هى التى تتولى إرشاده  
وتوجيهه ، وأن إحياء الحضارة الغربية يتوقف ، فى رأيه ، على إحياء الإيمان

المسيحي ، فإنه من الواضح أن توينبي لا يعزو بأى حال من الأحوال ، سقوط الحضارات الأخرى لفشلها فى اتباع « الإيمان الصحيح » ، كما أن النتائج التى استخلصها عن الأطوار العادية للحضارات ليست مستمدة ، بأى وجه من الوجوه من آرائه الدينية . بيد أننا إذا اختزلنا الادعاء بـ « انحياز المسيحية » ، إلى صفته الحقيقية التى تعتبر « انحيازاً » ، أكثر من مجرد « الانحياز » ، لتبين أن ذلك صحيح أساساً ، ويجب أن يرد عليه . وفى رأينا أنه من المستطاع تقديم إجابتين على ذلك :

أولاهما — أنه يبدو أنه ليس هناك سبب يجعل العالم الذى يسترشد بالإيمان المسيحى عرضةً للتحيز وعرضةً لأن يكون أقل اتصافاً بالصبغة العلمية من الذى يسترشد بالمؤمنين بسلطان العقل ، أو بالقدر ، أو بالمذهب الماركسى ، أو من أى شخص آخر يؤمن بالديمقراطية . ومن ثم فإننا نخلص مما سبق إلى أنه من العسير ، إلى حد ما ، أن نجد — فى مجالات العلم ذات الصلة الوثيقة بمسائل الحياة الرئيسية — إجابة « علمية » ، بحته ، لأن كل عالم يخضع لتوجيه مبادئ معينة أو نظرة معينة أو « انحياز » معين سواء أراد ذلك أم لم يردده ، وبغض النظر عن التسمية التى يمكن أن يختارها المرء ، ومن ثم سنطرح هنا جانباً الموضوع الأكثر عمقاً ، وهو « العلم للعلم » ، وما إذا كان قد أدى إلى حصول الإنسان على مثل هذه الثمرة الثمينة بحيث تعتبر أية روابط أخلاقية مرتبطة بها مرفوضة .

ومن الناحية الثانية ، قد يبدو أنه فى استطاعة الشخص الذى يسعى إلى إثبات الحقيقة التاريخية على أساس الوقائع الخالصة أن يقبل نتائج معينة

من الحقائق التي نظمها توينبي دون أن يقبل المبادئ المسيحية ، بنفس الطريقة التي استطاع بها قبول كثير من نتائج شبنجر دون مشاركة في نظريته العسكرية . . . ويبدو أن قيمة وصدق السواد الأعظم من اكتشافات توينبي ، وبالأخص ما يتعلق منها بتشابه تطور مختلف الحضارات ؛ يبدو لنا أن ذلك لا يتوقف على قبول أو رفض عقيدته المسيحية .

### الحضارات لا تولد ولا تموت تماماً :

وتم تحدّ ثالث أساسي أمام نظرية توينبي — وهو تحدّ يواجه أيضاً نظريات دانييلفسكي وشبنجر . . . ذلك أن الاستعارة الخاصة بالحضارات كالقول بالمولد والنمو والنضج ، والتحلل رغم أنها قد تكون جذابة للوهلة الأولى بسبب بساطتها ، فإنها غير مناسبة ، لأن الحضارات لا تولد ، ولا تموت . وتبعاً لهؤلاء النقاد ، فإن الحضارة ليست نظاماً متكاملاً ، وليست وحدة ثابتة متماسكة ، ولكنها تكتل لظواهر ثقافية : سياسية واقتصادية وعلمية ودينية واجتماعية . . إلخ ، يمكن أن تنتقل من حضارة لأخرى . ومع أن عدداً من هذه الظواهر يتحدّ في فترات معينة ليشكل ما نسميه حضارة ، فمن الجائز أن بعضها وُجد قبل ظهور الحضارة ، أو أنه يحيا بعد اختفائها ، ومعنى ذلك أن الحضارة لا تولد أو تندثر حقيقةً .

وتبعاً لهذا الاتجاه في التفكير ، كما يعبر عنه «سوروكين» Sorokin ، فإن الحضارة الإغريقية — الرومانية مثلاً ، لا تزال على قيد الحياة فيما كتبه الإغريق من كلاسيكيات وما خلفوه من فلسفات ، وفي القانون الروماني وأشكال الحكم الروماني وأساليبه . وإليك شطراً مما قاله «سوروكين» في هذا الشأن :

« إن قيماً كثيرة من « الحضارة » الإغريقية — الرومانية مازالت تقلد وتطبق وتدج في حضارتنا وثقافتنا ونظمنا وعقليتنا وسلوكنا وعلاقاتنا . . إنها تحيا وتعمل وتؤثر فينا ، لأنها أكثر حياة من أحسن كتاب بيع في العام الماضي أو كتب الأدعياء والطرز التي صدرت بالأمس . . إن حضارة من « الحضارات » الكبرى لا تموت برمتها . . وفي استطاعة المرء أن يزعم ، بقدر معقول من التأكيد ، أن نسبة مئوية كبيرة من أية حضارة من الحضارات الغابرة « الميتة » — وهي في بعض الأحيان نسبة مئوية كبيرة جداً — ما زالت حية . »

وإذا تأملنا هذه القضايا بدقة ، فلن نلبث أن نتبين ما فيها من مغالطة . ولئن كان الناس مازالوا يقرأون كتابات هومر وأفلاطون ، ولئن كان القانون الروماني ما زال يدرس ويطبّق ، فإن ذلك لا يعنى أن الحضارة الكلاسيكية ذاتها ما زالت على قيد الحياة . كذلك لا يمكن أن يعنى ارتداؤنا البيجانات وشرابنا القهوة ، أن الحضارة العثمانية ما زالت حية ، إذ أنه من الممكن أن يموت المؤلف وتظل كتبه تلقى رواجاً كبيراً ، وأن يموت الرسام وتظل رسومه موضع الإعجاب . ومن الجائز أن تموت شجرة الشاي وتظل أوراقها تستعمل في صناعة الشاي . وإنما مدار اختبار الحياة أو الموت هو ما إذا كان لا يزال من المستطاع إنتاج أشكال أو منتجات جديدة ، وليس هناك اختلاف في ذلك بين الحياة العضوية والثقافة مهما أسىء استعمال المقارنة في نواح أخرى . . ومنذ اندثرت اليونان وروما لم يكتب أدب يوناني ، ولم توضع طرز معمارية يونانية جديدة ، ولم يوضع قانون روماني جديد . . وفيما بعد ، وجد مؤلفون يكتبون باليونانية واللاتينية ، ومن الممكن

أن يتمكنوا اليوم من ذلك أيضاً ، وفيما بعد أنشأ المهندسون المماريون مباني كلاسيكية جديدة ، وفسر الشراح القانون الروماني وعلقوا عليه ، ولكن أياً من هذا الإنتاج لم يكن « جزءاً » من الحضارة الإغريقية أو الرومانية .. لقد ماتت هذه الحضارة ، لأنها لم تعد تتطور وتنمو وتبتكر ، إنها لا تنتج مظاهر أو مبتكرات جديدة ، أي أنها لم تعد على قيد الحياة ، ولن يغير من ذلك أن كثيراً من مبتكراتها الماضية لا يزال يشكل أجزاء ثمينة من تراثنا الثقافي .

إن الاعتراض الأول من الاعتراضات الرئيسية الثلاثة التي ناقشناها حتى الآن ، وأعني به محاولة توينبي التعسفية إيجاد معنى للتاريخ ، يشكل أيضاً مصدراً لمعظم الاعتراضات التي أثارت على كتابته .

### نبي الكتابة :

وتم لوم آخر وجهه مثلاً الأستاذ « جايل » Geyl في مناقشته مع توينبي التي أذيعت بالراديو ، وهو أن رأى الأخير يميل إلى توليد كتابة لا ضرورة لها بالنسبة لمستقبل الحضارة الغربية .

وأجاب توينبي على ذلك ، بحق ، بأن صفة الكتابة أو « المرح » في إحدى النظريات لا شأن لها في كون تلك النظرية صحيحة أو زائفة ، فإذا أدى التقدير غير المتحيز للحقائق إلى نتيجة « كئيبة » ، فإن من الجبن المحض أن نرفض تلك النتيجة لمجرد أنها كئيبة ..

ومهما يكن من أمر ، فهناك إجابة أساسية جداً على هذه الحجة ، فإن رأى توينبي عن التاريخ قد يولد الكتابة حقاً إذا كان معناه أن حضارتنا مقضى

عليها ، وأنها الآن تمر بمرحلة هبوط في طريق التحلل والتعفن الذي لا مفر منه ، وبعبارة أخرى : إذا كان معناه القضاء والقدر المكتوبان ، وهذا ما يصر توينبي على إنكاره فإنه ، كما قال « يقف عند القطب المضاد من حيث اتصال الأمر بهذا الموضوع المتناهي الأهمية إزاء الفيلسوف الألماني المشهور شبنجلر » من كتاب : هل يمكننا معرفة طابع الماضي ويرى توينبي « أن مجرى التاريخ إن هو إلا نتيجة لعملية التحدى والرد ، وأنه إذا كان هناك كثير منها في تاريخنا الحديث يميز الإحساس بالقلق ، فإن ذلك ينبغي أن يكون حافظاً على العمل ، وليس حكماً بالإعدام لشل إرادتنا ، المرجع نفسه .

#### اختبار أو عرض للأمثلة من جانب واحد :

وثم هجوم آخر على كتاب توينبي يوجه إلى نظريته ذات الجانب الواحد ، ويتخذ هذا الهجوم أشكالاً عديدة مترابطة أشد الترابط .

وأحد هذه الأشكال أن توينبي ، وإن كان يوضح نظرياته بأمثلة كثيرة مأخوذة من تاريخ جميع العصور والمناطق ، فإنه يختار هذه الأمثلة جزافاً من عدد لا نهاية له من الحوادث ليؤيد نظرياته . . . ولهذا فإن في استطاعة أى شخص واسع المعرفة أن يروى أكبر عدد ممكن من الحالات التى تدحض هذه النظريات ، وبعبارة أخرى فإنه برغم أن توينبي يعتقد أنه غير متحيز ، إلا أنه ، فى الواقع ، يختار أمثلة تتلاءم مع قضاياه .

ويذهب نقاد آخرون إلى أن الحقائق التى يختارها توينبي

يمكن أن تعرض غالباً بطريقة تختلف في قليل أو كثير مع النتيجة بحيث أنها لا تستطيع تأييد حجته ، وربما دحضتها . . ومن الأمثلة الملحوظة على ذلك عودة الحضارة المصرية عقب رجوع الحضارة العالمية في الامبراطورية الجديدة في القرن السادس عشر قبل الميلاد ، أى بعد أن تعرضت ، كما قال توينبي ، « للانهار » وحتى بعد أن احتل البرابرة الأجانب أى الهكسوس البلاد . . . . ويفسر توينبي هذه العوده بأنها « تحجر » للحضارة ، وخاتمة تصون الحضارة فترة طويلة بعد تحللها ، غير أن مؤرخين كثيرين لا يستطيعون رفض الرأى الآخر وهو أن الاتجاه الأخير للحضارة المصرية لا يتفق مع تخطيط توينبي ، وأنه يستخدم تفسيراً تعسفياً إلى حد ما حتى يجعلها مناسبة ، وهناك أمثلة أخرى سنذكرها في الفصل التالى تشير إلى نتيجة مماثلة ، بل لقد أحصى الأستاذ « جايل » أمثلة كثيرة منها فى المقال الذى نشره بعنوان « نظام الحضارات عند توينبي » ( Journal of the History of Ideas ) يناير ١٩٤٨ وأعيد نشره فى The Pattern of the Past . وبنفس النغمة يشير معظم نقاد توينبي إلى أنه يقيم نتائجها العامة على تطور الحضارة الهيلينية ، ويحاول أن يجعل جميع المجتمعات الأخرى تتلاءم مع النموذج الهيلينى . . يقول بارنس :

« إنه يستخدم الحضارة الهيلينية كطابع أو نموذج لتكوين نظريته العامة عن جميع الحضارات ونموها وتدهورها ، وهو يحشر حقائقه باستمرار فى قالب أو إطار لا يتلاءم معها دائماً ... »

« إن العيب الرئيسى فى مؤلفات توينبي - بغض النظر عن هدفه واتجاهه

اللاهورى أساساً ، هو أنه بلغ نتائجه الأساسية قبل أن يمر بتركيب التجارب الهيلينية التاريخية ، وبدأ فعلاً عرضه للحضارات الإحدى والعشرين التى فحصها رسمياً ، — ( هـ . ا بارنس ) .

ومعناك شكل آخر للنقد ذاته ، ذلك أن توينبى يحقق الصفاء والبساطة فى صورته بالمبالغة فى تبسيط الدور الذى تلعبه العوامل ، وبذلك يحصل على صورة أكثر وضوحاً وسهولة إدراك ، وجاذبية .. لكن أنراها تطابق الواقع تماماً ؟ . إن جميع المؤرخين تقريباً ، ومن ناقشوا إنتاج توينبى ، أبدوا — بأمثلة عديدة — أنها لا تطابق الواقع فى معظم الأحيان ، ويعبر الأستاذ « لوشر Locher » عن آراء كثير من زملائه فى هذا الصدد عند ما يقول :

[ إن التفسيرات الجامدة الأكثر وزناً من جميع الاعتراضات الأخرى ، هى كما يلى :  
إن توينبى يبسط التاريخ إلى درجة تكاد تصل إلى حد الأساطير ، وبصرف النظر عن عدد الملاحظات الجميلة التى يبدىها ، أو الظلال التى يستخدمها ، فإننا نجد ، المرة تلو الأخرى ، أنه اختزل العمليات المعقدة إلى تفاعل بين قوى قليلة ، تتخذ الجماعات التى تشترك فيه شكل التفكير البسيط والمخلوقات التى تتفعل ] .

واستناداً إلى حجة هؤلاء المؤرخين ، وعلى أساس الحقائق التاريخية ،

يبدو أنه مما لا يمكن إنكار أن توينبي يصرف النظر عن الهامش العريض الذي يتركه للاختلافات ، ويغرق فعلاً في التبسيط ، وسنذكر في الفصول التالية بعض أمثلة تبين اختلافاً أكثر في أطوار النضج والتحلل أكثر مما يسمح به تخطيط توينبي.... وحتى هذا كله لا ينقض النظرية كلها في خطوطها العريضة ، لأن جميع هذه الهجمات تنصب أساساً على الأمثلة التي اختارها توينبي أو على الطريقة التي يستخدمها أكثر مما هي موجهة إلى خط تفكيره العام . . وحتى إذا كان على المرء على - أساس معرفته معرفة واسعة بحقائق التاريخ كمعرفة توينبي - أن يستخلص أن أمثلة معينة من أمثلته أنتقيت جزافاً أو قدمت بطريقة الجانب الواحد بحيث تتلاءم مع النظرية ، فإن ذلك لا يحتم أن تكون النظرية خاطئة برمتها ، ما دامت تجعل لخطوطها العامة معنى على أساس الحقائق المقررة ، وهو ما فعلته حقاً . . فقد تبين عند فحص كل نظرية عظيمة جديدة بدقة أنها تحتوي على أخطاء أو مبالغيات معينة في النقط الثانوية ، بل الأساسية أيضاً . . ولكن ذلك لا يبطل قيمتها ، ولا يثبت أن النظرية خاطئة في جوهرها .

### إهمال عوامل معينة في التاريخ :

ويتصل بنقد النظرة ذات الجانب الواحد النقد الذي وجهه إلى البند السادس ، إذ يلوم بعض المؤرخين توينبي لأنه لم يعر الفن اهتماماً كبيراً ، رغم أنه جانب هام في الحضارة ، ويلومه آخرون لأنه أهمل ، على نحو يكاد يكون تاماً ، جوانب هامة كالعلم ، والتطور الفني والاقتصاد بصفة عامة ، ولأنه لم يحسب حساب تاريخ العلم وتاريخ الاقتصاد ، والآنثروبولوجيا

الثقافية ، وتاريخ علم الاجتماع ، وذلك نتيجة اقتناعه بأن القوى الروحية والسياسية هي وحدها التي تحدد اتجاهات التاريخ العظمى ، ولكنه لا يبذل عناية كافية للعناصر الحيوية في حياة الحضارات ، ولا للعوامل التي لا غنى عنها لأية نبوءة تتعلق بما قد يحدث لحضارتنا .

فإذا كان هذا صحيحاً ، فإن الاعتراض يجب أن يكون ذا طبيعة أساسية ، فإن إهمال التكنولوجيا والاقتصاد بصفة خاصة في التاريخ لا يمكن تخطيه بالنسبة لأولئك الذين يتمسكون بمدرسة المادية التاريخية .

إلا أنه يبدو أنه لن يكون لهذا اللوم مبرر إذا أدرك المرء — اكتفاء بذكر الأمثلة الرئيسية — أن توينبي يرجع أصل الحضارة المصرية إلى تحدى الظروف الاقتصادية القاسية ، كما يرجع انهيارها إلى استنزاف قوى الإنسان وطاقته في بناء الأهرام ، ويرجع صعود أثينا إلى الحل الذي وجدته لتزايد سكانها ، وأن تدهور المجتمع الروماني كان بسبب الضياع الكبيرة . والواقع أن توينبي ، حينما يستقصى موضوع « التحدى والرد عليه » ، يثبت أن هذه العوامل غالباً ما تكون في مراحلها المبكرة ذات طابع اقتصادي .

إن الشيء الذي يعترض عليه هؤلاء النقاد فعلاً هو أن توينبي لم يشاركهم الاعتقاد فيما للاقتصاد والعوامل الفنية أو المادية من أهمية غالبة حاسمة ، ولم يشاركهم أيضاً الإيمان بسيادة العقل . وتشكل هذه الاعتقادات في الوقت ذاته « انحرافاً » في نظر هؤلاء النقاد ، يلومون توينبي عليه .

### الحضارة ليست الوحدة البسيطة للدراسة التاريخية :

إن الإهمال المزعوم لتاريخ العلم وتاريخ الاقتصاد أساس  
لاعتراض آخر .

إن أحد أسس « دراسة » توينبي هو أن « الأمة ليست هي  
الوحدة البسيطة للدراسة التاريخية ، وهي ليست أيضاً - في الكفة  
الثانية من الميزان - مجموع البشرية ككل ، وإنما هي تجميع معين للإنسانية  
يطلق عليه لفظ « مجتمع » .

وقد تعرض هذا المفهوم الأساسي للهجوم على اعتبار أنه كلما قل إمكان  
فهم التاريخ - وليكن تاريخ إنجلترا مثلاً ، نظراً لعدم فهم الحضارة الغربية  
بصفة عامة - قل إمكان فهم الحضارة الغربية ما لم تؤخذ الحضارتان الهيلينية  
والعربية في الاعتبار .

وقد ظن أيضاً أن هذا الافتراض الأساسي نتج عن استهانة توينبي  
بتأثير العلم والاقتصاد على التاريخ ولو نُظر إلى هذه العوامل بعين الاعتبار  
التي تستحقها لكشفت كما يقول هؤلاء النقاد ، عن اتجاهات طويلة الأمد  
وتطورات غير قاصرة على حضارة واحدة ، وإنما تمتد إلى حضارات عديدة  
على التعاقب أو في وقت واحد . ولعل من الإنصاف لتوينبي أن نقول : إنه  
وإن لم يعتبر الحضارة وحدة واضحة لدراسة التاريخ ، فإن كتاباته تثبت  
بدرجة كافية أنه كبير الإلمام بالعلاقات الداخلية للحضارات ، بل لقد  
وعدنا بتقديم مجلدين منفصلين يتناولان « الصلة بين الحضارات » ، وينبغي  
أن يكون ذلك كافياً في حد ذاته للتدليل على أنه وإن كان توينبي يطلق

على المجتمع لفظ الوحدة الواضحة للدراسة التاريخية ، فإنه لا يتغاضى بحال من الأحوال عن تأثير المجتمعات أحدها على الآخر .

### فكرة انهيار الحضارات تبليبل الفكر :

وأخيراً ، فإننا نصل إلى نظرية المؤرخ الكبير التي يبدو لنا أنها تعرض نفسها لأكثر الانتقادات تبريراً . وإن كانت ليست ذات صفة أساسية تكفي لهدم البنيان الهائل كله ، إلا أنها على قدر كبير من الأهمية فيما يتعلق بتطبيقها على حضارتنا الراهنة ، ولذلك فإنها تستحق اهتماما خاصا ... إنها فكرته عن « انهيار الحضارة » .

وفيما يتعلق بالتوقيت ، يتضح أن توينبي يحدد الانهيار في مرحلة مسكرة من حياة الحضارة ، ويكفي أن نذكر ثلاث مناسبات للتدليل على ذلك . ففي رأى توينبي ، حدث انهيار — « تدهور » — الحضارة الهيلينية في عام ٤٣١ ق . م مع بداية الحروب البلو بونية peloponnesian ، وليس من شك في أنه تمكن المحاجاة على أساس أن هذا الحدث شكل بداية النهاية بالنسبة لليونان ، أما إذا اعتبر المرء الحضارة اليونانية والرومانية حضارة واحدة ، كما يفعل توينبي ، فمعنى ذلك أن جميع الأعمال الابتكارية — بكل ما تنطوى عليه من فنون شكلت ما أصبح يعرف أخيرا بالامبراطورية الرومانية ، وما اشتملت عليه من فن الحكم ، والتشريع ، والفنون ، والفلسفة — جزء من عملية اضمحلال المجتمع الهيليني .

وينطبق الأمر نفسه على الحضارة الروسية الأرثوذكسية التي نشأت في القرن العاشر ، فقد حدد توينبي تدهورها باضمحلال مملكة كييف ،

في القرن الثالث عشر ، و مرحلة متاعبها في عام ١٠٧٥ ق . م وهكذا فإن فترة نمو هذه الحضارة لاتكاد تتجاوز قرناً .

وأهم من ذلك ، التطبيق الذي أجراه توينبي على حضارتنا ؛ ذلك لأنه لم يوضع بعد رده النهائي الحاسم عما إذا كانت الحضارة الغربية قد تدهورت أم لا ، ومن ثم علينا أن ننتظر الإجابة التي وعد بتقديمها على هذا الموضوع ، بيد أن توينبي أوحى إلينا ، كما فعل بعض زملائه ، « بأن مجتمعنا قد تدهور كمجتمع ، وأنه ماض في تحلله ، — انظر كتاب دراسة في التاريخ ، المجلد ٥ ص ١٩٣ ، والمجلد ٤ ص ٥٢ ، ١٢٢ ، والمجلد ٥ ص ٤٠٣ ) — ومعنى ذلك أن التدهور حدث ابتداءً من القرن السادس عشر عندما نشبت الحروب الدينية ، وفي هذا قال « جايل » :

[ تعتبر القرون الأربعة الأخيرة من تاريخنا ، حسباً يقول توينبي ، عملية تحلل واحدة ، طويلة الأمد ] . انظر كتاب « هل يمكننا معرفة طابع الماضي ؟ »

من هذه الأمثلة ، وهي أمثلة قليلة مما قدمه النقاد ، يستطيع المرء أن يستخلص النتيجة التالية فيما يتعلق بمعالجة توينبي لموضوع « الانهيار » ، فهو يضع التدهور إما في مرحلة مبكرة جداً ، أو يستعمل كلمة « تدهور » بمعنى يثير البلبلة .

ويقودنا هذا القول إلى الجانب الآخر من نظريته عن « الانهيار » : ما هو معنى وتأثير الانهيار في عرف توينبي ؟ لعل الكلمة نفسها توحي ،

من حيث استعماله لها ، بأن الانهيار هو نقطة التحول في حياة الحضارة ، أو الحادث الذي يحدد الانقسام بين فترة النمو وفترة الاضمحلال ، وحينما تستعمل الكلمة بهذا المعنى ، فإنها تشكل ، «نقطة لالتحول» للحضارة، وأزمة ، أو خطأ كبير لا يمكن أن تبرا الحضارة منه أبداً .

فإذا كان هذا هو مرادف كلمة «انهيار» فإن ذلك يستتبعه أنه ما إن يبدأ الانهيار في الحدوث حتى يقضى على الحضارة بأن تنحدر في طريق التحلل رغم أنه قد تحدث «إعادة توحيد» ولكنها قد لا تكون من القوة ، بحيث تستطيع الحضارة أن تتغلب على الانقسام الأولى الكبير ، وبهذا يتخذ التدهور صفة الحادث الميتافيزيقي . وترجع نظرية توينبي غالباً إلى فكرة «المقدر سلفاً» التي يرفضها هو نفسه بإصرار ، لأنه إذا كان «الانهيار» كلمة تستعمل بمعنى حدث لا يبرأ المجتمع منه إطلاقاً ، فإن هذا القول قريب جداً من القول بأن هذا المجتمع قضى عليه من لحظة بدء الانهيار بالفناء ، أو قدر عليه سلفاً أن يموت ، ولكن توينبي يحفل من هذا الاستنباط ، ومع ذلك فإن تلك هي النتيجة المنطقية لفكرته عن «الانهيار» كما تطبق على الحضارات السابقة .

ومهما يكن من الأمر ، فإن علينا أن نحترم ما قاله المؤرخ نفسه من أنه لا يعترف بشيء اسمه «المقدر سلفاً» في التاريخ ، ويتضمن ذلك بالضرورة أن البرء ممكن في أية لحظة حتى بعد حدوث الانهيار ، وهو يقول فيما يتعلق بحضارتنا الراهنة :

[ ليس هناك ما يمنع حضارتنا الغربية  
من اتباع السوابق التاريخية إن شاءت

لترتكب بذلك جريمة الانتحار الاجتماعي .  
غير أنه ليس مقدراً علينا أن نجعل التاريخ  
يعيد نفسه ، والطريق مفتوح أمامنا لكي  
نبذل جهوداً خاصة لنوجه التاريخ ،  
في حالتنا ، وجهة جديدة لم يسبق لها مثيل .  
ونحن ، كبشر ، نتمتع بحرية الاختيار ،  
ولا يمكننا أن نطرح عنا المسؤولية لنلقينا  
على الله أو على الطبيعة ، وإنما يجب علينا أن  
نتحداها بأنفسنا . . . إننا لسنا تحت رحمة  
القدر الذي لا يرحم ] .

( من كتاب « الحضارة في الميزان » )

فالانهيار بهذا المعنى يتخذ معنى مغايراً تماماً ، إنه ليس كارثة لا يمكن  
تفاديها ، ولكنه مجرد أصل للقصور الذي يسبب تدهور المجتمع في نهاية  
الامر ، وهو حيثئذ لا يكون أكثر من مجرد الحادث الأكبر الأولي  
في سلسلة الاسباب التي يمكن أن يرجع إليها فيما بعد سقوط الحضارة  
النهائي ، وهو يشبه في ذلك ، إلى حد كبير ، أعراض المرض الأولي  
في الجسم الإنساني ، إذا انهار الجسم في النهاية نتيجة لهذا المرض . وذلك  
على كل حال ، يختلف تماماً عن الكارثة التي لا يمكن إصلاحها ، فإن الإنسان  
إذا مات بسبب إصابته بالالتهاب الرئوي ، فمعنى ذلك أنه كان من الممكن  
أن يعيش لو كان قلبه ، مثلاً ، أكثر قوة ، أو لو أنه أبدى اهتماماً أكبر  
بنزلة البرد في مرحلتها الأولى ، ومع ذلك فإن القلائل هم الذين يطلقون

على نزلة البرد الابتدائية تلك انهياراً لصحته البدنية .

ولا يمكن إدراك « التدهور » على هذا النحو حتى ولو كان يعنى أن المجتمع يعدّ لنفسه مرحلة « عودة » ويمضى في النمو والتحسين بعد حدوث ذلك ، فقد يموت رجل في الأربعين من عمره نتيجة لإصابته بتدرن رئوي لم تلاحظ أعراضه الأولى في طفولته ، ومع ذلك فإن إصابته بالمرض لم تحل دون نموه إلى مرحلة الرجولة ، بل لعله كان من الجائز أن يعيش حتى يصل إلى سن السبعين لو أمكن كشف أمر المرض وعلاجه في الوقت المناسب . . وتفسير كلمة « انهيار » على هذا النحو يكسبها معنى مغايراً تماماً وأقل خطورة من معنى الكلمة ، العادى الذى يبدو أن توينبى يرمى إليه فى الغالب .

ولقد أجاد الأستاذ لوشر هذا الازدواج فى استخدام الكلمة عندما تحدث عن انهيار الحضارة الهيلينية ، فقال :

[ إن الأمر واحد من اثنين : إما أن يكون عام ٤٣١ ق . م . هوة يمكن تخطيطها ، وعندئذ لا يشكل تدهوراً حسب مفهوم توينبى . أو أنه يشكل تدهوراً ، وحينئذ نجد بناءً يشمل مجموع تاريخ الحضارة اليونانية — الرومانية لا يمكن إنقاذه بسبب هذا الخطأ الواحد ، ويعنى ذلك شيئاً شبيهاً بانهيار الإنسان ، وأنا أرفض هذا ، لأنه ميتافيزيقيا تاريخية ] .

وإن ازدواج الذى لم يحل فى مفهوم توينبى عن « الانهيار » غير مقصور بحال على هذه الظاهرة . إنه منتشر فى جميع ثنايا كتابه ، وله جذوره فى ازدواج موقفه الرئيسى الذى يعنى ، من جانب ، أن الحضارات تتلام عادة مع طابع عريض معين ، ويؤكد من الجانب الآخر أنها تستطيع فى أية لحظة أن تتحرك إما إلى أعلى أو إلى أسفل . . . إن هذا هو ، كما سبق أن أشرنا ، الصراع الدائر فى نفس توينبى بين الحتمية والتجريبية ، وهو الصراع الذى يزيد من عظمة الرجل لأنه صراع ينبع من النضال من أجل الحقيقة .

غير أن وجود الازدواج المبلبل للخاطر يجب أن ندركه بوضوح ، وأن نتأمل آثاره ، لأن لآثاره أهمية حيوية بالنسبة لأية نتائج تستخلص بالنسبة للحضارة الغربية ، فلئن كان « الانهيار » كارثة لا يمكن إصلاحها ، وبداية محتومة للنهاية ، فمن الأهمية بمكان أن نعرف ما إذا كان انهيار الحضارة الغربية قد حدث فعلاً ، وإذا كان قد حدث فمعنى ذلك أن مصير حضارتنا مقدر عليها سلفاً كما قال شبنجلر ، ومن الناحية الأخرى : إذا كان الانهيار لا يعنى أكثر من الأعراض الأولى للمرض الذى يمكن أن يرجع إليه موت الحضارة حسب منطق الأحداث السابقة فإنه عندئذ يفقد دلالة المنحوسة ، نظرًا لأنه يمكن حينئذ شفاء المرض إذا ما أجرى التشخيص الصحيح فى حينه ، وأخذ العلاج الصحيح ، وكان المريض يتمتع بالقوة الكافية ، وإذا استخدم « الانهيار » بهذا الترادف ، فمن الممكن عندئذ أن ينتج المجتمع بعض ثماره الحقيقية بعد حدوث ما يسمى بـ « الانهيار » ، ما دامت الوقائع تبين أن تلك هى الحالة الشائعة فى الأمثلة التى يسوقها توينبى : امبراطورية مصر الجديدة بعد بناء الإهرامات الكبرى ، الجمهورية والإمبراطورية الرومانية بعد الحروب

البولوبونية ، وأوروبا الغربية بعد التدهور الذى لعله حدث فى القرن السادس عشر ، أوفى القرن الحادى عشر ، وإتنا نعتقد أن التفسير الثانى للكلمة يمكن قبوله اذا كان ( لعمل ) توينبى أى معنى ، والواقع أن الأستاذ توينبى طمأن هذا الكاتب بقوله إن هذا هو المعنى الذى يريد أن تؤكد الكلمة . وبرغم ما لموضوع الانهيار من أهمية ، وبالأخص فيما يتعلق بالحضارات التى لا تزال قائمة ، فإن ذلك لا يهدم النظرية من أساسها ، أو يهدم جزءا من أجزائها الهامة ، فحتى إذا كان التدهور الحقيقى هو الانهيار — الذى لا يمكن تفاديه والذى يحتمل أن يكون قد حدث فى عدد من المجتمعات ولكنه حدث متأخرا عما ساقه توينبى — فإن خطته العامة تظل بعد ذلك كله قائمة . لقد ذكرنا الآن ثمانية أسس كبيرة لمهاجمة نظرية توينبى من جانب زملائه المؤرخين .

ويبدو من المناسب أن نختم ، بناء على الأسس التى أوجزناها فى الصفحات السابقة ، بالقول بأن جميع هذه الأسس ، باستثناء الأول منها ، إما أن يعوزها البرهان الكافى ، أو تنقصها الطبيعة الأساسية بدرجة تهدم الجزء الرئيسى من نظريات توينبى .

ولكن الموقف يختلف عن ذلك بالنسبة للأساس الأول : إذا كان التاريخ شديد التعقيد والتنوع بحيث لا نستطيع أن نميز فيه أى طابع عام أو معين ، فعندئذ ينهار البناء الذى بذل توينبى كل العناية لإنشائه وبلورته ، بحيث لا يصبح أكثر من حطام غير مترابط .

ومن ثم فإن المسألة الحاسمة تظل هى : هل من المستطاع الكشف عن طابع عام فى حياة الحضارات ؟. وسنعالج هذا الموضوع فى الفصل التالى .

- ٧ -

## التركيب : طابع الحضارات

حاولنا في الجزء الأول من الكتاب الذى يوشك على الانتهاء ، أن نقيم أساساً علمياً يعتمد عليه البحث فى المرحلة الراهنة ، والاحتمالات المستقبلية للحضارتنا ، وقد منّا صورة موجزة لواحدة من المحاولات المبكرة الكبرى واثنتين من المحاولات الأخيرة التى بذلت لوضع فلسفة ثابتة عن حياة الحضارات وموتها . وقد وصل المؤلفون الثلاثة الذين تحدثنا عنهم ، إلى ما تطلق عليه الفكرة الدورية أو الحركة المنتظمة للتاريخ .

وبالإضافة إلى ذلك ، بذلت محاولات أخرى كثيرة هامة لا تقوم على فكرة دورية التاريخ لتفسير نهوض الحضارة وسقوطها ، فهناك الفيلسوف روسى المولد «برديف» Berdyaev ، وزميله «سوروكين» ، وهو روسى المولد أيضاً ، والأمريكى «نورثروب» Northrop ، و «كروبر» Kroeber ، وقد ذكرناهم على سبيل المثال لا الحصر ، وهؤلاء تعمقوا فى دراسة هذا الميدان . ومن الطريف أن نلاحظ أنهم لم يقبلوا المفهوم الدورى للتاريخ ومع ذلك فإن بعض آرائهم — وبالأخص ما يتعلق منها بالآطوار التى تمر بها الحضارة ، تميل إلى تأييد كثير من الخطوط العريضة لنظريات دورية التاريخ فإنه بعد أن أجرى «سوروكين» تحليلاً دقيقاً لفلسفات المدرستين ، استنتج أن الخلاف الحقيقى بين فريقى الكتاب أقل كثيراً مما يبدو ظاهرياً ، وأن الاتفاق بينهما كبير ، ( سوروكين ص ٢٨٤ )

ولقد التزمنا غاية القصد فى التحدث عن آراء دانييلفسكى وشبنجلر وتوينبى ، لأنهم يمثلون أكثر التفسيرات اكتمالاً وجزماً بحياة الحضارات ،

ولهذا كانت أكثر التفسيرات جاذبية، وسوف نشير أحياناً إلى آراء الكتاب الآخرين حسبما يقتضيه مجرى المناقشة .

عند محاولة الوصول إلى النتائج، يبدو أن الأكثر نفعا هو مقارنة المشروعين الشائخين اللذين تتضاءل أمامهما كل المحاولات الأخرى التي بذلت حتى الآن؛ فحتى دانييلفسكى برغم أنه بادرة مبكرة ، فإنه أقل أهمية لأنه لم يتعمق إلى حد كبير ، كما فعل شبنجر وتويني .

وهناك اختلافات كثيرة عميقة الجذور بينهما ، ولعل أهم اختلاف هو اختلاف نظرة كل منهما إلى الحياة ، فشبنجر عسكري قبل كل شيء ، أما تويني فمسيحي قبل كل شيء ، ويرى شبنجر أن القوة هي العنصر النهائي الحاسم في التاريخ ، وأن بقاء الأقوى هو المعنى الوحيد للتاريخ . وعند تويني أن للتاريخ غرضاً أخلاقياً هو الذي ينقل الحياة البشرية من مستوى « الإنسان الأدنى » إلى مستوى « الإنسان الأعلى » ، أما شبنجر الرجل العسكري ، فيرى أن الحرب والجندي هما القوي الخلاق ، ولكنها عند تويني ، الرجل المؤمن بالله ، القوة المدبرة للأشياء العظيمة . وفي رأى شبنجر أن السياسة والتاريخ ليسا موضوعاً لأية قوانين أخلاقية ، أما تويني فيرى أن كليهما خاضع لقوانين الله .

وهذا الاختلاف في الفلسفة يدمغ كلاً من العاملين العظيمين بطابعه ، ويؤدي إلى اختلافات هامة في النتائج ، مثال ذلك ، أن شبنجر يرى أن نهاية الحضارة الرومانية بدأت بعد معركة أكتيوم في عام ٣١ ق . م ، إذ أن القتال على نطاق واسع في العالم الروماني قد انتهى منذ ذلك التاريخ ، أما تويني

فيرى عكس ذلك . إنه يرى أن نهاية الحضارة الهيلينية ( بما فيها الحضارة الرومانية ) بدأت مع الحروب البولوبونية في عام ٤٣١ ق . م لأنه منذ هذا التاريخ بدأت حروب كبيرة على نطاق واسع بين الولايات اليونانية منعته من الوحدة ، فعجل ذلك بنهايتها .

وإذا كان شبنجر ألمانيا صمياً في تناوله للمشكلة ، فإن توينبي انجليزي بدوره . وقد حاول شبنجر سواء بوعي أو بغير وعي أن ينشئ طابعاً جامداً يلائم جميع الحضارات بحيث تتطور ، على النحو الذي حدث فعلاً ، تبعاً لقوانين لا مفر منها في رأيه أشبه بالكائن العضوي ، أما توينبي - فعلى العكس من ذلك - تقدم على طول الطريق التجريبي الإنجليزي دون أن تتوافر له أفكار سابقة ، أو أنه تظاهر بذلك على الأقل ، وبذلك يكون شبنجر حتمياً ، بينما يكون توينبي - أو هذا ما يريد على الأقل ، تجريبياً . وتتضمن وجهة نظر شبنجر المصير المحتوم لكل الحضارات ، ويؤمن توينبي بالاختيار الحر لكل حضارة ، تماماً كما هي الحال بالنسبة لكل فرد يقرر مستقبله الخاص به . وفي رأى شبنجر أن كل الحضارات يجب ألا تحيد عن مجرى خاص واحد ، وفي رأى توينبي أن هناك تنوعاً في الإمكانيات لانهاية له برغم الخطوط الطويلة المدى للتطور التي يمكن تفسيرها من المشابهات التي بينها . ويؤيد توينبي ، في فكرته هذه ، جميع المؤلفين تقريباً برغم أنهم يعتبرون طابعه من الصرامة بمكان .

وقد أدى هذا الاختلاف الأساسي في وجهات النظر إلى نتائج مختلفة ، وذلك فيما يتعلق بعصرنا . ومن وجهة نظر شبنجر ، فإن جرس الموت دق بالنسبة للحضارة الغربية ، ومن ثم فإن الاختبار الوحيد الباقي أمامها هو أن

تتحمل عناء المصير المحتوم في كثير أو قليل من الترفع ، وأن تختار ميتة الأشراف أو ميتة الجبناء ، أما وجهة نظر توينبي النهائية في هذا الصدد فما زالت بحاجة إلى الشرح ، إلا أننا نستطيع - من عدد من تصريحاته - أن نعتقد أنه برغم أن علامات جميع الأوقات أفعمته بقلق عظيم ، فإنه لا يعتبر أن مصير حضارتنا أصبح قضاء مبرماً ، وهذا ، في الواقع ، رأى معظم المؤلفين الآخرين ..

[ فباستثناء شبنجر ، يوافق جميع الكتاب على أنه ليس من المحتم أن تكون الأزمات الكبرى لعصرنا هي الضربة القاضية الأخيرة على مسرح التاريخ البشري بالرغم من دواعي الهدم التي تتصف بها ، لأن تطور الأزمنة المقبلة يمكن أن يتوقف ويحل محله أخيراً عصر بناء جديد ] .

( سوروكين ص - ٣١٩ ) .

إلا أنه برغم هذه الاختلافات العميقة الجذور في النظرة العامة ، وفي الأساس القوي والروحي ، وفي المنهج والأسلوب ، فما زال هناك تشابه مدهش في النتائج العامة التي وصل إليها شبنجر وتوينبي والآخرين . وما زال هذا التشابه لافتاً للنظر إذا علمنا - كما أشرنا إلى ذلك في الفصل الثاني - أن هناك فيلسوفاً ظهر في مرحلة مبكرة ، ادعى أنه ينتمي إلى حضارة مختلفة ، وكتب قبل مجيء شبنجر وتوينبي بنصف قرن ، ووصل إلى نتائج مشابهة جداً لما وصلوا إليه .

### الاتفاقات العامة بين هؤلاء الكتاب

ففي أول الأمر يعترف هؤلاء الكتاب الثلاثة ، كما يعترف كتاب آخرون كثيرون ، باسم أو آخر ، بحقيقة مولد أو فجر أو ظهور حضارة بعد عصر « لا تاريخ له » ، ولكنه يعرف فقط شكلاً أثولوجرافياً من الوجود ولا يعرف حضارة حية . ويعتبر فجر الحضارة هو عصرها الأول أو القديم ، وخصائصه هي الأسطورة ، وشعر الملاحم ، والفن البدائي ، إنه عصر المنشدين العظام والأساندة الأوائل ، وتقوم فلسفة واحدة أو عقيدة واحدة لا متنفس لها ، فتتحكم في نواحي المجتمع المادية والاجتماعية والروحية ، وتتحد السلطة الدنيوية والروحية أو ترتبطان بعضهما ببعض ارتباطاً وثيقاً ، وتمارسها طبقة عليا أرستقراطية باستخدام قوانين مقدسة ومقاييس أخلاقية ... ويعترف عادة بالمستويات الخلقية الصارمة ، وتسيطر الروابط العائلية القوية على حياة المجتمع . أما اقتصاد هذه الفترة فزراعي ، ومن ثم فإن الذين يملكون الأرض ، أي النبلاء والكنيسة ، هم أصحاب السلطان من الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية .

وتبدأ بعد ذلك فترة الربيع ، أو الازدهار أو الشباب ، أو النهوض التي يتبعها مولد المدن . ويجعل هذا الحدث العقل البشري أكثر استقلالاً عن الضغط الكنسي والإقطاعي ، يولد فيه نشاطاً وحياة ذهنية مرهقة ، بيد أن الدين يظل مسيطراً على القومية ، والحدس على العقل ، والتقاليد على النفعية ، والقيم الروحية على القيم المادية ، ويعني ذلك وحدة الإلهام وإحساساً مطابقاً بأسلوب يضع خاتمة على كل إنتاج فني أو فلسفي أو سياسي

توهر به كل حضارة معينة . . إنها فترة الأساتذة العظماء .

ومهما يكن من أمر ، فإن نشوء المدن تدريجياً يؤدي إلى طور جديد تسرد المدينة فيه تماماً على الريف ، حيث يتولى سكانها وطبقة التجار المتوسطة زمام الأمور من الفريق الحاكم ، فريق النبلاء الزراعيين ورجال الكنيسة ، ويؤدي ازدهار النشاط الروحي في المدن ، ذلك الازدهار الذي أوجد نهضة العقل البشري ، تدريجياً إلى تحرره الكامل من النظام الديني ، فتصبح الحياة الروحية دينوية ، وتستقل الفنون الجميلة ، والقانون ، والأخلاق عن الدين ، وتصبح قيمتها محل جدل وتقدير فردي . وتبدأ المادية في السيادة على الدين ، واعتبارات النفعية على الإحساسات الباطنية ، والفنون الصناعية على العبقرية . . ويشهد ساعد العلم ، ويزيد الإشراف على بيئة المبتكرين والبشر . وبعبارة أخرى يوجد الفن المتحسن ، والتوسع الجغرافي لمنطقة سيطرة الحضارة . غير أن هذه الظواهر ليست أسباباً أو برهاناً على تزايد الحضارة . . . إنها حسب وجهة نظر دانييلفسكي وتوينبي تميل غالباً ، إلى إخفاء الاضمحلال الداخلي الذي وجد فعلاً في هذا الطور ، طور « الصيف » ، أو « النضج » .

وفي رأي معظم الكتاب ، لأن المصدر الرئيسي للاضمحلال لا يمكن في ظروف خارجية ، ولكنه يمكن في أسباب داخلية ، ولا سيما فقدان القوة الخلاقة التي يصورها شبنجر على أنها سيادة الذهن على الغريزة ، ويصورها توينبي على أنها فشل من جانب الأقلية الخلاقة القيادية بالمجتمع في تدبير الإجابات الملائمة لتحديات معينة تؤدي إلى إخفاق المجتمع في تسكين نفسه تبعاً للوقف المتغير . . . وبينما يوجد فرق في اللهجة والتعبير ،

فهناك أيضا قاسم مشترك بين هذين الفيلسوفين وفلاسفة آخرين غيرهم حول هذه النقطة . . .

إن أقوى تشابه في الآراء بين معظم الفلاسفة أكثر ظهوراً فيما يتعلق بالطور الأخير ، وهو الطور الذي يحدث فيه التحلل النهائي ( إن دانييلفسكى لا يعالج خصائص هذا الطور ) .

وكظواهر نموذجية لتلك الفترة ، يذكر شبنجلر ، سيادة المدينة العالمية ، والمدن الرئيسية التي تتميز بحكم سكانها ، والبدادة الفكرية وقوتها الرئيسية وهي النقود والعقم الفيزيائي الذي يقترن بالعقم الذهني أي انعدام القدرة على الخلق ، والابتكار ، وفقدان «الأسلوب» ، وأخيراً السلام العالمى الناتج عن وجود احتكار فعلي للسلطة و«الإمبراطورية العالمية» التي تنتهى فيها الحروب القومية والمذهبية ولكنها تستبدل بـ «حروب خاصة» بالقياسرة ، والتدين الثانى كرد فعل ضد سيادة العقل السابقة .

أما الخصائص النموذجية التي يعينها توينبى للطور الأخير فهي : عصر متاعب تعقبه دولة عالمية ، وبروليتاريا داخلية تبحث عن ملاذ في كنيسة جامعة ، وبروليتاريا خارجية ، ويؤدى اتحاد قوى الأخيرتين ، فى النهاية ، إلى انهيار ملحوظ فى الدولة العالمية والحضارة التي تعتبر جسدها الأخير إذا أثبتت هذه الحضارة أنها عاجزة عن تدبير استجابة كافية على تحدى العصر .

ومن ثم ، فإن من الواضح أنه برغم أن هاتين الصورتين قد عبر عنهما بعبارات مختلفة ورسمتا بأوجه مختلفة فإن هاتين الصورتين الخاصتين بالمرحلة الأخيرة للمجتمع تقدمان بعض المشابهات البارزة : فترة المتاعب الكبرى ،

والحروب الكبرى واسعة النطاق بين وحدات أكبر حيث ينتصر فيها أحد الطرفين في النهاية ويفرض السلام العالمى والدولة العالمية، ويجىء الديكتاتوريون والدماء، ويسود فقدان القوة الخلاقة، والإفتقار إلى الأسلوب يتمثل فى العمل الفنى الذى يبعث على البلبلة، ويتضح الملاذ الذى تبحث عنه الجماهير المتعبة فى عالم السلام والدين، وأخيراً يعود المجتمع إلى حالة بدائية مجردة من الحضارة الحية.

ذلك لأن النتائج المشتركة بين الكتاب الرئيسيين الذين نتحدث عنهم تؤيدها حقيقة معينة هى أن كتاباً آخرين وصلوا إلى النتائج ذاتها على أسس مختلفة تماماً، وسنضرب مثلاً واحداً :

مع أن الفيلسوف الروسى « برد ييف Berdyaev » لا يوافق أساساً على فكرة دورة الحضارة، إلا أنه يصل إلى نتائج تعتبر مؤيدة تماماً للنتائج السالفة من وجوه كثيرة.. فهو يميز، فى ثقافتنا الغربية، مرحلة همجية، ومرحلة مسيحية إقطاعية، ومرحلة دنيوية بشرية، تعقبها « مرحلة القرون الوسطى الجديدة ». ويقول إن حضارتنا جمعت، خلال القرون الوسطى، قوى خلاقة، أو « قوى روحية انشطارية » كما يسميها، عن طريق نظام الرهبنة والفروسية اللتين ركزتتا على ملكة السموات، ونتج عن ذلك أن وضعت النزعات الإنسانية الإنسان فى مركز البكون، وأطلقت قواه الداخلية الخلاقة المكبوتة من عقالمها، وخلصته من أغلال السيطرة غير العادية.. وصبغت الحياة بالصبغة الدنيوية وأثارت قوة الإبداع الفنى. وبعد أن استنفدت قوتها الخلاقة، دخلت حضارتنا الآن فى طور « العصور الوسطى الجديدة » متميزة بالرغبة فى « الحياة

الحقيقية الكاملة ، والرخاء والسعادة والاستمتاع بالحياة التي تنحو إلى خنق النظام الكابت الكابح ؛ فهذا أمر ضروري للنشاط الإبداعي .

إن المؤرخين الآخرين الذين لا يقبلون وجهة النظر القائلة بدورية التاريخ ما زالوا يتبينون ، في مراحل حضارتنا ، الأخرى خصائص كثيرة مشابهة لتلك الخصائص المشروحة في الصفحات السابقة ( للإمام بملخص دقيق لهذه المشابهات في الفلسفات المختلفة ، انظر صفحات ٢٩٢ و ٢٩٤ من كتاب Sorokin ) .

فإذا كان ثلاثة مؤرخين أو أكثر من جنسيات مختلفة وعلى هذه المعرفة الواسعة بالحقائق ، ويكتبون في أوقات مختلفة ، معتمدين على فلسفات مختلفة ومستخدمين مناهج مختلفة ؛ إذا كانوا قد وصلوا إلى نتائج شديدة التشابه ، فيجب أن يكون هناك افتراض قوى بصحة هذه النتائج .

ويلقى هذا الافتراض تأييداً من حقائق معينة واضحة معترف بها عادة ويستطيع كل شخص مفكر أن يختبرها .

### مقائيل التاريخ

إننا نتحدث عن الحضارات بلغة الجمع ، ومعنى ذلك أنه كانت هناك أكثر من حضارة في مجرى التاريخ ، ويعنى ذلك أيضاً أن الحضارات تولد وتموت ، أو على الأقل تظهر وتختفي ، وسواء أكانت تولد من فترة بلا حضارة وتموت تماماً كما يقول دانييلفسكى وشبنجلر ، أو كانت تنسحب بداخل شرنقة الدين لكي تعود فتظهر في شكل حضارة جديدة كما يقول توينبي ، وسواء بقيت بعض قيمها الدائمة حية أو امتصتها حضارات أخرى

لاحقة كما يدعى البعض ، فإنها مسألة تعبير ونبوت لغوية إلى حد كبير .  
وعلاوة على ذلك ، فإن من المؤكد أيضاً أن الحضارة لا تظل « جامدة » ،  
من لحظة ظهورها إلى لحظة اختفائها ، فكل حضارة إنما تبلغ في مرحلة  
( وفي بعض الأحيان في أكثر من مرحلة ) ذروة الازدهار ، ومعنى ذلك  
أن هناك عملية أو أكثر من عمليات النمو تؤدي إلى الازدهار ، وهناك  
أيضاً العمليات التي تؤدي إلى الانحدار الذي يلي الازدهار .

كذلك يبدو أنه من غير المستطاع إنكار أن ثقل النشاط الاقتصادي  
والحضاري في كل حضارة قد انتقل من المجتمع الريفي البدائي الزراعي  
إلى المدن ، ومنها انتقل أخيراً إلى المدن الرئيسية . ومن المسلم به أن زمام  
السلطة انتقل من يد رجال الدين وأصحاب الأملاك ( الطبقة الارستقراطية  
الإقطاعية ) إلى الطبقة التي تكس المال ( الطبقة البورجوازية ) ومنها إلى الجماهير  
ثم إما إلى الدهماء أو إلى القياصرة . وسارت إلى جانب هذه العملية عملية تطور  
أخرى في كثير من الحضارات هدفها إنشاء وحدات سياسية واقتصادية  
أكبر ، فمن المقاطعات وعواصمها إلى مدن الولايات ، ثم إلى البلدان  
التي تتحد تدريجياً في ولايات كبيرة ، وتأتي جميعها في نهاية الأمر تحت  
سيادة سلطة واحدة .

ومن الحقائق أيضاً أنه وإن كان طور المدن الرئيسية والدولة العالمية  
والقياصرة في الحضارات الأخرى قد استمر فترة طويلة جداً وتعرض  
لارتفاعات وانخفاضات ، فإنه لم يستمر إلى ما لا نهاية ، ومن ثم يجب  
اعتباره الفصل الأخير في مأساة حياة الحضارة .

إن جميع الحقائق التي ذكرناها هنا ، والتي عرفت بأسماء مختلفة من

جانب كثير من المكاتب المشهورين ، تقف بقوة ضد رأى القائل بأنه من المستحيل تمييز اتجاه عام فى حياة الحضارات المختلفة ، وتقف ضد الأحكام القائلة بأن التاريخ يمكن أن يتحول إلى أى اتجاه فى أية لحظة وفى أية مرحلة .

ويبدو أنه لا يمكن إنكار وجود اتجاه عام عريض للتطور المشترك لكل الحضارات ، إلا أن القول بأنها جميعاً مضطرة إلى اتباع طابع واحد غير مرن يعتبر نتيجة صارمة بعيدة المنال جداً مستمدة من المقارنة بالأجسام الفيزيائية ؛ وحتى فى حياة الإنسان والحيوان والنبات توجد آلاف من الإمكانيات المختلفة .

وليس هناك ثم سبب يفسر : لماذا لا تكون الإمكانيات على الأقل متنوعة بدرجة كبيرة بالنسبة للمجتمع ، كما هى الحال بالنسبة للفرد . وبالعكس ، يجب أن تكون هذه الإمكانيات أكبر ما دام المجتمع غير مرتبط بقوانين التطور الفيزيقي .

ويبدو أنه ينبغى ، حتى بالنسبة للحضارة ، أن نفترض على أساس الشواهد التاريخية ، أن « ارتداد » الحضارات أمر ممكن إلى درجة محدودة . إلا أنه لا توجد أمثلة لحضارة بلغت طور المتمدن العالمية ثم عادت إلى المجتمع الزراعى البدائى ما لم تمر خلال عملية من عمليات التحلل والفساد بدرجة تجعل الحضارة نفسها تغير طبيعتها تغيراً تاماً ، فإن تطور الحضارات — كما هى الحال فى الحياة بأسرها — يمكن أن يتحرك إلى أعلى أو إلى أسفل ، ولسكنه لايسير إلى الخلف أبداً .

هذا وتلاحظ — بوضوح — إمكانية الاختلافات الواسعة على أساس

نظرية أساسية عريضة ، في الطورين ذوى الأهمية الخاصة فيما يتعلق بعصرنا ،  
أبى ذلك الطور الذى يتعلق بالتطور الأكبر والطور المتعلق بالاضمحلال  
التالى ، فدعونا نتأمل حقائق التاريخ مرة أخرى (١) .

لقد بلغت مصر مثلاً لأول مرة في حضارتها ذروة المجد في عهد الأسرات  
الثالثة والرابعة والخامسة ، وكان ذلك بين عامى ٢٧٨٠ و ٢٤٢٠ ق.م. وكان ذلك  
نتيجة لفترة طويلة من الوحدة والسلام الداخلى الذى استمر منذ عام ٣٢٠٠ ق.م  
تقريباً . وخلال القرون الأربعة التالية شهد وادى النيل ضعفاً فى سلطة  
الفرعنة تمثل فى المنافسة والأعمال الحربية المحلية ، وهجوم الأجناس الأجنبية ،  
والانحدار الملحوظ فى الإنجازات الاقتصادية والثقافية . وحوالى  
عام ٢٠٠٠ ق.م أعاد أمراء طيبة تشكيل حكومة حسنة الإدارة فى مصر  
كلها ، وهو ما نطلق عليه المملكة الوسطى التى بقيت حتى عام ١٧٨٨ ق.م  
وأوجدت حضارة مصرية ثانية ، مزدهرة ، تنعكس فى جمال مقابرها ومعابدها  
ورسومها ونحتها وأدبها . . وبعد ذلك أتاح الاضمحلال الداخلى والسياسى  
والاقتصادى الفرصة لقبائل الهكسوس الأجنبية لتقيم حكمها على مصر  
بلاقتال أو حرب . وبهذا بدأ عصر مظلم ثان . ثم نجح المصريون فى طرد الهكسوس  
واستعادة مجدهم مرة أخرى فى الامبراطورية الجديدة تحت حكم الأسرة  
الثامنة عشرة حوالى عام ١٥٠٠ ق.م واستمرت حتى عام ١٢٥٠ ق.م ، وترجع  
المعابد العظيمة كمعابد الأقصر والكرنك ومقبرة توت عنخ آمون إلى الفترة  
الثالثة من ازدهار الحضارة المصرية . وبعد عصر طويل متجدد من الظلام

---

(١) المعلومات التالية مستقاة ، ضمن المصادر الأخرى ، من كتاب «ارتفاع وسقوط الحضارة»  
بقلم شبرد ب . كلوف ، طبعة «ماجروهيل» سنة ١٩٥١ .

استطاعت مصر أن تجمع شملها في فترة الانتعاش التي شهدتها القرن السابع قبل الميلاد .

ومن هذا يتبين أن مصر عرفت ، على الأقل ، ثلاث موجات عالية من الحضارة ، أعقبتها فترات جزر . وسارت فترات المد العالي مدة تزيد على ١٥٠٠ سنة ، وإذا أراد المرء أن يحسب فترة الانتعاش السالفة ، كانت هناك أربع فترات مجد تمتد إلى حوالى ٢٠٠٠ عام .

وساكت الحضارة السومرية الطريق ذاته ، وعرفت فترتي مجد يفصلهما عصر مظلم خضعت فيه للسيطرة الأجنبية ، كانت الأولى من خلق الملك سارجون القادش في القرن الخامس والعشرين ق . م ، أما الثانية فكانت في القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد بعد طرد الغزاة البرابرة من منطقة القوط ، Gutium ، واستمرت حتى بداية القرن الحادى والعشرين قبل الميلاد ، وتعرض وادى دجلة والفرات بعد ذلك للغزو وحكم الأجناس الأجنبية المنتمة إلى حضارة خارجية .

ومهما يكن من أمر ، فإن إحدى هذه الفترات هى تلك التي شهدتها الامبراطورية البابلية الأولى التي بلغت ذروة الحضارة بقيادة « هامورابى Hammurabi » ( حوالى ١٧٥٠ ق . م ) ، وقد تميزت تلك الحضارة بانتعاش أدبى عظيم ، وبوضع مجموعة من مواد القوانين ، وانهت بدورها حوالى عام ١٦٥٠ ق . م نتيجة للغزو . الأجنبي وعلى كل حال ، فقد عادت ثانية بعد نحو ١٠٠٠ عام في سنة ٦٢٥ ق . م ، وأسست الامبراطورية البابلية الثانية التي أوجدت خلال بضع مئات من السنين ،

انتعاشاً في النشاط الخلاق ، وأعادت تأسيس بابل كمركز للعالم تحت إمرة نبوخذ نصر الثاني .

ومرت آشور Assyria أيضاً بفترتين عظيمتين : إحداهما في ظل حكم آشورنازير — بال الثاني ( ٨٨٣ — ٨٥٩ ق م ) والآخرى بعد ذلك بنحو ١٥٠ عاماً في إمبراطورية آشور الثانية أو الامبراطورية الآشورية الجديدة .

فإذا ما اعتبر المرء ، كما هي العادة دائماً ، آشور وبابل تنتميان إلى حضارة واحدة ، فمعنى ذلك أنه كانت لهذه الحضارات أربع فترات ازدهار على الأقل .

أما الحضارة التالية أو الإمبراطورية الرومانية الشرقية التي يمكن اعتبارها بطريقة أو بأخرى فرعاً للحضارة الكلاسيكية فقد دامت أكثر من ١١٠٠ عام ومرت أيضاً بمراحل الصعود والهبوط خلال تلك الفترة . فبعد بداية رائعة في عهد « قسطنطين Constantine » الأكبر ( ٣٠٠ م ) عانت اضمحلالاً في السلطة والثقافة في القرن الخامس ، وأعقبه انتعاش في القرن السادس ، وبلغت الأوج في حكم « جستنيان Justinian » . وفي القرن السابع تعرضت لاضمحلال جديد . ويبدو أنه وجدت في القرن الثامن والتاسع فترة ازدهار جديدة بفضل الإصلاحات والحكومة الامبراطورية الحقنة ، إلى أن حدث الانهيار النهائي في أواسط القرن الحادي عشر .

وهذه الأمثلة كافية لاستخلاص بعض النتائج الهامة :

وإحدى هذه النتائج هي أنه ليس من الضروري أن تبلغ الحضارة قمة مجد

واحدة ، فقد تكون لها دورتان أو ثلاث دورات متباعدات من الناحية الزمنية ،  
وبالتالى فإن أحكام شينجر التى تقضى بأن جميع مراحل الحضارة ، بما فيها  
مراحل النضج والاضمحلال ، تخضع لحكم سابق خاص ، وفترة محددة ،  
لا تتفق مع الوقائع ، لأن مجد مصر امتد أكثر من ٢٠٠٠ عام ، ومجد سومر  
امتد أكثر من ٥٠٠ عام ، ومجد بابل دام أكثر من ١٥٠٠ عام ، والحضارة  
البيزنطية عاشت أكثر من ٧٠٠ عام .

وعلاوة على ذلك ، فإنه يتضح من تاريخ هذه المجتمعات أن فترات الإنتاج  
السياسى والاقتصادى والثقافى حدثت عندما كانت هذه المجتمعات مستقلة  
وموحدة فى ظل حكومة مركزية حسنة التنظيم ، بينما أدت الحروب الداخلية  
والمنازعات إلى تمرد البربر ، وهم قبائل أجنبية ذات تراث غريب لطخت  
الحضارة فترة من الوقت ، بل دمرتها تماماً .

وكذلك يتضح من الأمثلة المقتبسة — بعكس وجهة نظر توينبى —  
أنه حتى غزو عصابات البربر للدولة العالمية واحتلالها ، لا يشكل بأى وجه  
من الوجوه نهاية الحضارة التى تحتفظ بها ، نهاية لا راد لها ، فقد عادت تلك  
الحضارات على نحو مفاجئ . ودامت فى بعض الأحيان عدة قرون ، وهذا هو  
ما حدث لمصر وسومر وبابل وآشور ، إذ شهدت جميعاً امبراطورية ثانية  
أو امبراطورية جديدة ، كانت فى بعض الأحيان أعظم من سابقتها . ومن  
المحتمل أن يكون من قبيل الحضارات التى لاحظنا عودتها ، ما حدث لمصر  
تحت حكم أخناتون ، وما حدث لبابل تحت حكم نبوخذ نصر العظيم .

وذلك يقودنا إلى نتيجة أخرى تبدى من تاريخ المجتمعات الأولى :  
تأثير القيادات العظيمة على مصير هذه المجتمعات ، وقد يبدو أحياناً أن مثل

هذه القيادات كانت السبب الوحيد لنهضة جديدة لا يمكن تقديرها ، وهذا ، ولا شك إحساس خادع ، لأنه ، حتى القائد العظيم ، لا يستطيع إلا أن يعتمد على القوى الكامنة فعلا في المجتمع ، وإن كان تأثيرها قد يؤدي إلى نتيجة كبيرة في التاريخ . وهذا بدوره يتعارض مع الفكرة المشبطة للهمة التي يبدونها شبنجر من أن الإنسان ليس إلا أداة ، لا حول لها ولا قوة ، في يد القدر ، وعليه أن يتقبل المصير الذي فرضه التاريخ عليه .

لكن هذه النتائج لا تبطل الحقيقة الرئيسية التي تبين أنها تظهر من الأبحاث العلمية الكثيرة ، ومن التحليل التجريبي للحقائق المعروفة عموماً ، تلك الحقيقة التي تقول بأن حياة الحضارات تمثل على الأقل اتجاهها عاماً عريضاً للتطور برغم آلاف التغيرات التي تعرض لها .

### اختبار الضمير : فقرة الفقرة الخمسة

أما وقد وصلنا إلى هذه النتيجة ، فإن أهم سؤال تال يجب الإجابة عليه هو : ما هو الجوهر الحقيقي للاضمحلال ، على أساس النظر للمستقبل ؟ هل هناك اختبار يمكن أن نحدد به وجود هذا الاضمحلال ودرجته ؟ .

يبدو أن مثل هذا الاختبار موجود ، فإن جميع مظاهر الاضمحلال في المجتمع ، وجميع الأسباب الرئيسية لها جوهر واحد عام ، هو الافتقار إلى قوة الخلق ، فسواء أرجع الإنسان تدهور المجتمع إلى فشل تدبير رد مناسب على التحدي ، أو عزاه إلى فشل الأغلبية المسيطرة في الاحتفاظ بطاعة الجماهير الاختيارية ، أو إلى انعدام الإحساس بالأسلوب ، أو إلى حلول

الغريزة محل العقل ، فإن الخلاصة دائماً هي فقدان القدرة الخلاقة .  
وهذا أيضاً جـذر لجميع أوجه الاضمحلال مثل : استبدال الأفكار  
العظيمة والمبادئ بالخصومة الشخصية باعتبارها العوامل المحركة في الحياة  
العامة ، وانعدام الأساليب الجديدة العظيمة في الفن ، وانعدام الفلسفات الجديدة ،  
باستثناء الكنيسة العالمية — التي لم تعد ، على كل حال ، من الحضارة القديمة ،  
وفقدان الإحساس بالأسلوب ، وتزايد الصبغة الذهنية في الحياة الروحية  
الذي تعقبه حركة بعيدة عن الحكمة والتعقل ، ونقص ديناميكيات المجتمع  
وقوته إزاء ما يحيط به ، والعقم الفيزيقي وما يستتبعه من نقص تعداد السكان ،  
ويمكن أن نرجع جميع الاتجاهات إلى اضمحلال القوة الخلاقة من الناحيتين  
الفيزيكية والروحية ، ونظراً لأنها تنبع من اضمحلال القوة الخلاقة ، فمن  
الممكن أيضاً قلبها بإحياء القدرة على الخلق والابتكار .

ومن ثم ، فإن اختبار ما إذا كان المجتمع قد بدأ يضمحل أم لا ، يصبح  
مسألة تحديد مدى قوة ما فيه من قوى خلاقة .

وقبل أن نمضي قدماً في الطريق الخطر لمحاولة تطبيق الاختبار على الحضارة  
الغربية ، يبدو أن من الضروري تقدير المرحلة التي نقف فيها من مراحل  
التطور العادي للمجتمع .



## الجزء الثاني

الطور الحالي للحضارة الغربية





## أين نقف

عندما نحاول أن نحدد مرحلة التطور التي بلغتها الحضارة الغربية ، فإن من السهل ، قبل كل شيء ، أن نبين مراحل قليلة لم تمر بها هذه الحضارة .

فواضح أثناء لسنا ، في الفترة الأولى ، أو الفترة القديمة من المجتمع البدائي الزراعي ، القوى الإيمان ، الخشن الأسلوب ، الذي يوجد به أصل كل حضارة ، وقد عرفت حضارتنا هذا الطور في العصور الوسطى ، حيث بدأت الشرارات الأولى للحضارة الغربية تتوهج في قلاع القرون الوسطى ، وأديرتها ، ووجدت الظواهر الأولى لحضارتنا في أغاني منشديها ، وأثاثها القوطي المتفرق ، ورسومها الدينية البدائية ، وكاتدرائياتها القوية ، وفي إطار سلوك الفرسان ، وفي قوانينها المسيحية الصارمة ، ونواحيها الخلقية ، وفي حكم شارلمان .

وواضح بالمثل أن حضارتنا لم تمر بفترة النمو التالية لذلك ، والتي تتميز بمولد المدن ونشوتها والازدهار الأول للحياة الثقافية والفنية والتجارية . لقد مر المجتمع الغربي بهذا الطور أثناء عصر النهضة وانتعاش العلم الذي شكّل تصريحا باستقلال العقل البشري عن القوى التي خضع لها في القرون الوسطى ، وازدادت هذه الحركة ازدهاراً عندما بدأت القبضة العالمية للكنيسة والنظام الإقطاعي المسيطر على المجتمع في التراجع ، وعندما بدأت

المدن تحمل محل القلاع والحصون ، ومساكن المدينة مكان الإقطاعى النيل  
ورجل الدين ، والصناعة والتجارة محل الزراعة ، وعند ما طفت العلوم  
والفنون بفيض من الازدهار الفنى .

ومن ثم لا ريب فى أن حضارتنا وجدت نفسها إما فى الفترة التالية  
للنضج أو فى المرحلة النهائية لقوة واحدة مهيمنة على حضارة كاملة ،  
قوة السلام العالمى والكنيسة العالمية .

وتوضح المنازعات العسكرية والاقتصادية والسياسية والمذهبية  
والطبقية والعنصرية الهائلة التى يشهدها قرنتا العشرون ، أننا لم نصل بعد  
إلى الطور الأخير ، وفى الوقت ذاته ، تشكل هذه الحقائق نفسها ، عند  
قراءة التاريخ ، الأعراض الدالة على أن هذا الطور قريب منا .

وعلى كل حال ، فإن الفحص الدقيق لأعراض عصرنا ضرورة ملحة قبل  
الوثوب إلى النتائج .

ومن العسير جداً على أى معاصر أن يقدر القوى التى تعمل فى عصره  
تقديراً صحيحاً ، ومن الصعب أن يتجنب ميله الطبيعى للبالغالة فى تقدير  
اتجاهات الوقت الحاضر ، سواء أكانت بالنسبة لما هو محمود ، أو لما هو غير محمود ،  
أو بتقديم صورة مثالية أو مبسطة للماضى . ومن الواضح أن الفترة التى انقضت  
منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية قصيرة جداً إذا قيست بمقاييس حياة الحضارة ،  
ومن ثم فإنها لا تمكثنا من استخلاص النتائج منها فحسب ، فإذا رغبنا فى تحديد  
خصائص عصرنا ، كان علينا أن نقصر دراستنا على فترة مكونة من عدة حقب  
على الأقل .

إن اختيار نقطة معينة لتحليل طور خاص من أطوار التاريخ أمر تعسفي ، لأن التاريخ تطور مستمر ، لا يمكن تجزئته إلى أقسام منفصلة تماماً ، ومع ذلك فإننا ، لأغراض تتعلق بالمنهج ، نتقبل في الغالب تواريخ معينة كبداية أو نهاية لطور معين . . .

وإذا كان على المرء أن يختار عاماً بذاته كبداية لـ « عصرنا الحديث » ، فلعل هذا العام هو ١٩١٤ ، لأن معظم الخصائص التي سيرد ذكرها الآن إما أن تكون قد نشأت فعلاً أو أصبحت شديدة الوضوح بعد هذا العام المشؤم . إلا أن كثيراً منها قد وجد أو كان في سبيله إلى الوجود قبل ذلك التاريخ ، ونظراً إلى أنه ليس من الضروري ، في مجال عرض التطورات الاجتماعية ، أن نختار عاماً معيناً ليكون نقطة بداية ، فإنه يبدو أننا لا بد أن ندخل في دراستنا على وجه التقريب الجزء المتقدم من القرن العشرين ، وبالأخص الحقب الرابع التي انقضت منذ اندلاع نيران الحرب العالمية الأولى .

### خصائص عصرنا

#### التطور، نمو وحدات أكبر :

منذ القرن السادس عشر تقريباً ، أي منذ أن اتخذ معظم القوميات في أوروبا الشكل الحالي ، إلى بداية القرن العشرين ، ساد المسرح العالمي تقسيم القوى بين أكثر هذه الدول أهمية ، على انفراد : البرتغال ، وأسبانيا ، والسويد ، والأراضي المنخفضة ، وفرنسا ، وإنجلترا ، وروسيا ، وألمانيا وأخيراً إيطاليا تحت أسماء متتالية ، وأشكال ونظم مختلفة. ولعبت هذه الدول

أدواراً قيادية جاءت على التعاقب أو في وقت واحد ، واستطاعت أن تحدد مصيرها على نحو مستقل ، وكانت سيادتها حقيقة فعلية .

إن من أهم الحقائق التي برزت في القرن العشرين التخلي عن فكرة القومية الصغيرة، فهناك تحول واضح نحو وحدات أكبر، وهذا التحول يتخذ شكل إيجاد منظمات عالمية كعصبة الأمم ، والأمم المتحدة ، كما ينحو إلى إنشاء المؤسسات الإقليمية في العالم العربي ، وأمريكا اللاتينية ، وجنوب شرق آسيا ، وأوروبا الغربية ، ومجموعة حلف الأطلسي ، فقد اندمج معظمها معا في تنظيمات سياسية واقتصادية ، وتقوم هذه المجموعات على أساس إقليمي أكثر أهمية من التحالفات السابقة التي كانت مجرد اتحادات مؤقتة لقوميات يمكنها ، بمحض إرادتها ، أن تنهى تحالفها وتستبدل به تحالفاً مغايراً . والاتحادات التي تنمو الآن هي مجموعات وظيفية تقوم روابطها السياسية والدينية والثقافية بضمها معاً في نسيج محبوك ، لأن دول القرن التاسع عشر ذات السيادة الإقليمية لم تعد تتماشى مع العصر الحالي بعد أن بلغنا المرحلة التي تضاءلت فيها سلطة الدول القومية التي سبق أن ظفرت بالسلطة أمام السلطات القليلة الهائلة التي نشأت على مستوى القارات ، تلك السلطات التي تناضل الآن من أجل سيادة العالم . وليس من شك في أن القرارات الحاسمة في العالم اليوم تنبع من مركزين أو ثلاثة مراكز فقط ، وأن بقية العالم لا يستطيع ، عند ما يتصل الأمر باتخاذ قرارات هامة فعلاً ، أن يتغاضى عن رغبات هذه المراكز .

وبلغت الظروف الاقتصادية أيضاً مرحلة جعلت القومية العادية في القرن التاسع عشر من الضالة بحيث لا يمكنها البقاء ، وأصبح الإنتاج

على نطاق واسع والاستهلاك على نطاق واسع أيضاً - أى على نطاق القارة -  
هما اللذان يهيئان اليوم إمكانيات البقاء الاقتصادى وتحسين مستوى المعيشة .

### عصر الحروب الكبرى والمنازعات :

من سوء الطالع أننا نعيش الآن فى غمار « عصر المتاعب » ، وفى فترة  
« الدول المتنازعة » ، بغض النظر عما إذا كانت هذه الفترة قد بدأت بحروب  
تابليون كما ادعى شينجلر ، أو بدأت بالحرب العالمية الأولى . . . لقد شهد  
القرن الحالى فعلا حربيين على درجة من الخطورة والتدمير لم يسبق لها  
مثيل ، كما شهد حرباً أخرى فى كوريا على درجة غير ضئيلة من اتساع  
النطاق ، وحتى إذا أمكن تجنب نشوب حرب عالمية ثالثة كتلك  
التي كثر الكلام عنها ، فيبدو أن ذلك كاف لدمغ عصرنا بأنه عصر  
الحروب الكبرى .

وعلاوة على ذلك ، ولد عصرنا حرباً مذهبية كانت لها نظائرها ولا شك  
من حيث العنف فى العصور المبكرة ، ولكنها لا تشبهها فى ميادينها . وقد  
شملت هذه الحرب الكرة الأرضية كلها .

وفى الوقت ذاته ، شهد النصف الأول من القرن الحالى نشوء  
القومية فى آسيا ، مما أدى إلى زوال السيطرة الغربية على آسيا .  
ويكفى أن ينعم الإنسان النظر فى هذا التغيير الضخم وأن يتذكر  
ما اقترن به من هياج منذ حدوث تمرد البوكسر Boxer وامتد إلى  
كل آسيا تقريبا وأجزاء من أفريقيا ، حتى يدرك أن هذا القرن كان  
قرناً من المصادمات الكبرى فى هاتين القارتين ، ومن ثم يعتبر ذلك كله

مبرراً كافياً لتسمية القرن العشرين « عصر المتاعب » .

### التطلع إلى السلام :

في هذه الظروف ، لا عجب إذن ، أن يتزايد التطلع إلى السلام والمطالبة بقيام « عالم واحد » من جانب الجماهير التي تعاني الأمرين من كل هذه الحروب العسكرية والمذهبية والعنصرية . فإن الشوق إلى السلام لا يزال حياً في قلوب الناس باعتباره مثلاً نبيلاً . وقد تطور هذا الحب إلى نداء حماسي من أجل البقاء .

عندما تولى قيصر روسيا ، في عام ١٨٩٩ ، زمام المبادرة في النداء لمؤتمر السلام الأول في لاهاي ، كانت ميزة هذه المحاولة أنها الأولى لنقل هدف السلام الدائم إلى ملكة السياسة العملية ، بعد أن كان ينظر إلى السلام في ذلك الحين على أنه ليس أكثر من مثال للتقوى تلهج به الألسنة . . أما السؤال الذي يواجهنا في هذه الأيام فهو : هل نحن مقبلون على حرب أم سلام ؟ . إن هذا السؤال يشغل حياة كل رجل وامرأة في سائر الأمم ، ولا تستطيع أية حكومة إلا أن تسعى من أجل السلام قبل كل شيء مادامت تسعى للحصول على تأييد شعبها .

### عصر الجماهير :

في القرن التاسع عشر ، وهو عصر التحرر والثورة الصناعية ، كانت السلطة مركزة في أيدي أفراد الطبقة البورجوازية ، قادة التجارة والصناعة ، ثم انتقلت في القرن العشرين إلى طبقة أخرى هي الجماهير .

وقد شهد القرن الحالى ، كما وصفه المفكر المعاصر «أورتيجا جاست» ،  
« ثورة الجماهير » ، وتبعاً لهذا الكاتب تشير جميع الدلائل إلى أن  
« الجماهير قررت أن تكون فى مقدمة الحياة الاجتماعية ، وأن تحتل المراكز  
وتستخدم الأدوات ، وتستمتع بالملذات التى كانت قاصرة على القلة  
حتى الآن ،

إن عصرنا يسمى ، فى الغالب ، بعصر العامة ، وهو تعبير آخر للشيء  
نفسه ، بكلمات مغايرة ، لأن خلاصة الجماهير تتكون من عامة الناس  
الذين يشكلون الأغلبية العظمى لكل أمة أو مدينة أو مجتمع ننتسب إليه  
جميعاً ، ولو أننا قد لا نميل إلى التسليم بذلك .

وقد حدث هذا بفعل عدد من العوامل :

وأول هذه العوامل ازدياد السكان بنسبة هائلة فى كل مكان ، فمنذ القرن  
السادس حتى عام ١٨٠٠ مثلاً لم يزد تعداد سكان أوروبا عن ١٩٠ مليون نسمة ، ثم  
زاد فيما بين عامى ١٨٠٠ و ١٨٩٠ من ١٨٧ مليون إلى ما يقرب من ٥٨٠ مليون  
نسمة ، وما زالت زيادات كبيرة تطرأ على بقاع من آسيا ونصف الكرة الغربى ،  
وليس من شك فى الأرقام التى سنقدمها فيما بعد ، فى هذا الفصل عن نمو  
بعض المدن العالمية ، ليست هى فى حاجة إلى تفسير . فإذا ما تأمل المرء مدى  
هذه الزيادة الخيالية وعواقبها ، فلن يكون من المستغرب أن يبدو كل مكان  
يتراكم الناس فيه فى العالم من معابد دلهى إلى مطاعم نيويورك ، مكتظاً جداً  
وطبقاً لدراسة الأمم المتحدة للظروف الاجتماعية ، لا توجد دولة فى العالم  
لا تعاني من مشكلة الإسكان .

وبالإضافة إلى زيادة عدد السكان ، فهناك عوامل أخرى أسهمت في نشأة قوة الجماهير ، وهي :

استمرار التوسع في الثورة الصناعية، مع استمرار نمو الطبقة التي أوجدتها هذه الثورة ، وهي الطبقة العاملة ، وبالتالي نشأة الاتحادات العمالية ، وهي عملية ما زالت في بدايتها في آسيا .

وهناك التطور الثوري في وسائل اتصال الجماهير ، وبالأخص الصحف ، والمجلات الشعبية ، والراديو والتلفزيون ، تلك الوسائل التي جعلت الإنسان العادي على صلة مباشرة بأحداث العالم من جانب ، وجعلت من الممكن التأثير والسيطرة على عدد كبير من الأهالي من جانب آخر ؛ وهو أمر لم يكن ميسوراً من قبل . فقد أصبح من الممكن لأي خطيب في هذه الأيام في الولايات المتحدة ، أن يؤثر على ما يقرب من عشرة ملايين شخص بالتلفزيون ، وأضعاف هذا العدد بالراديو . . . . وينمو تأثير هذا التطور بقوة كبيرة في الولايات المتحدة حيث يوجد أكثر من ٥٣ مليون جهاز تلفزيون .

وكان الدليل الخارجي لاقتصار الجماهير موضع اختيار بعد التوسع التدريجي في حق الانتخاب والتصويت العام من جانب معظم الدول الغربية في القرن العشرين . وأدت مواءمة هذا التغير الثوري ، الذي جعل من اكتساب حق التصويت العام الموضوع الرئيسي في السياسة ، إلى حدوث تغيرات عميقة في الحياة السياسية لجميع الشعوب الغربية .

ولما كنا نحاول هنا أن نحدد فقط الطور الذى يمر به مجتمعا ، فلا معنى إذن لمحاولة تقدير مدى الكسب أو الخسارة فى هذه التطورات ، فالمهم هو أن سطوة الجماهير علامة لا يمكن إنكارها فى عصرنا .

### عبادة البطل :

غير أن هناك بالفعل دلائل على أن التاريخ يسير ليكمل الدائرة الخالدة التى رسمها «بوليبوس» منذ ألفى عام ؛ وهى الدائرة التى تبدأ فى شكل الملكية (حكم الفرد الواحد) ثم تتطور إلى الأرستقراطية (حكم أفراد قلائل) ومنها إلى الديمقراطية (حكم الشعب) ثم تعود مرة أخرى إلى حكم الفرد الواحد ، ولكن هذا التحول الكبير لم يحدث فى جميع البلدان على كل حال ، غير أن عبادة البطل تمهد له التربة الخصبة فى هذه الأيام ، وإن تفاوتت درجتها فى معظم البلدان .. واتخذت عبادة البطولة هذه نسباً غير متوازنة فى أيامنا ، وهى فى بعض الأشكال مشوهة ، لأن عبادة البطل كانت فى الماضى الخطوة الأولى - غالباً - فى تنازل الشعب عن سلطته لمصلحة أحد معبوديه .

ومن سخرية التاريخ أن يحصل الشعب على السلطة بعد نضال طويل ، وبعد كفاح وجهاد فى سبيلها ، ثم يتقدم ليسلبها ، فى الواقع إن لم يكن فى الشكل ، « للرجال الأقوياء ، المحبوبين من الجماهير الذين استطاعوا ، لسبب أو آخر ، أن يستأثروا بتأييد العامة . وغالباً ما يختار الناس الرجل الصالح بإحساسهم الغريزى ، ويكون اختيارهم ، لسوء الحظ فى بعض الأحيان ، خاضعاً للمقاييس العاطفية التى لا تتلاءم مع قدرة البطل على الحكم ،

ويكتشفون أخيراً أنهم لم يختاروا الرجل الصالح ، وأنهم لا يستطيعون التخلي عنه بنفس السهولة التي اختاروه بها .

ويمكن أكثر أشكال عبادة البطل خطورة في الحركات الجماعية بالطبع ، وهذا الشكل هو أخطر أنواع عبادة البطل ، لأنه ما أن يثبت الرجل القوى أقدامه في منصبه حتى يتعذر زحزحته منه إلا بثورة . وغالباً ما تكون حرباً عالمية بكل ما يشتمل عليه « هذا العلاج » من أهوال للملايين .

والديمقراطيات ، بدورها ، ليست منزهة بحال من الأحوال من عبادة البطل ، غير أنها تتخذ شكلاً غير ضار كتقدير الجماهير للمقاتلين أو لاعبي كرة القدم أو البيسبول أو نجوم السينما ، رغم أنها تأخذ في بعض الأحيان اتجاهات أقل براءة حينما تنقلب ، بدافع عاطفي بحت ، إلى حرب الأبطال أو الدهماء الذين لا يملكون شيئاً غير ذم الآخرين .

### نشأة القادة العظام :

يرتبط ظهور القادة العظام ارتباطاً وثيقاً في عصرنا بالظاهرتين السالفتين الذكر : وهما تفوق الجماهير ، وعبادة البطل ، وتظهر هذه الشخصيات في السياسة ، وحركات العمال ، والمجالات المالية ( برغم أن عصرهم الزاخر قد ولى في هذا الميدان ) ، وفي الأعمال والصناعة ، والإدارات الحكومية . وينجح هؤلاء العالقة ، بفضل صفات معينة هي المهارة وقوة الإرادة والمثابرة وسداد الحكم . . إلخ . وعلى كل حال ، فهم ليسوا علامة فريدة لعصرنا . أما ما أتاح الفرصة لهؤلاء الأفراد لبناء مثل هذه السلطة الشاملة في عصرنا هذا ، فهو عظمة الجهاز التي لم يسبق لها مثيل ، وتشابك المشكلات التي تشتمل

عليها ، وكلاهما يستدعى ، بالضرورة تركيزاً فريداً للسلطة في أيدي منظمين أكفاء نادرين . وقد أدرك الرجل العادي ، سواء أكان ناخباً أو عضواً في نقابة أو أميناً لمخزن ، أن الوظيفة التي ينبغي أدائها تفوق إدراكه وقدرته ، ومن ثم فإنه غالباً ما يشعر بسعادة غامرة حين يتخلى عن الإدارة اليومية لقادته . ومن وجهة النظر الديمقراطية ، فإن لهذا العمل مزايا كبيرة كما أنه مجرد من الأخطار مادامت السلطة «النهائية» ستبقى فعلاً في يد الشعب . ولكنها تصبح خطراً قاطعاً إذا انتقلت السلطة النهائية إلى أيدي القادة ، وأصبح الشعب مجرد أدوات في أيدي هؤلاء الأفراد . ويزداد هذا الخطر بدرجة كبيرة في السياسة ، بسبب الاتجاه الديمقراطي السائد في الجماهير نحو عبادة البطل . ولهذا فإن من التحديات التي تواجهها الديمقراطية في عصرنا ، القدرة على الموازنة الصحيحة بين إعطاء القادة سلطة كافية في جميع المجالات تمكّنهم من أداء العمل بشكل مرض من جانب ، ومن جانب آخر ألا تمنحهم سلطة كبيرة تفسدهم أو تبطل حق الأقلية في إبداء الرأي المستقل .

### اضمحلال سلطة المال :

عندما تحدثنا عن القادة العظام في مختلف مجالات الحكومة والأعمال ، ذكرنا استثناء واحداً : هو المال .

فقد أخذت الظروف التي حصل في ظلها كل من «مورجان» و «ميلون» و «كروجر» على ثرواتهم الخيالية ، تتضاءل منذ عشرات السنين ، وهذا عرض من أعراض تضائل الدور الذي يلعبه المال في المجتمع الغربي ، من أوجه كثيرة . وليس معنى ذلك أن الناس أصبحوا يسعون للحصول على النقود

بشراة أقل من ذى قبل ، ولا لأنها أصبحت أقل راحة للذين يملكونها ،  
ولا لأنها قاصرة عن إنجاز أشياء كثيرة ، ومع ذلك فإنه مما لا سبيل لإنكاره  
أن قوة رأس المال الخاص ودوره أخذاً يتضاءلان منذ وقت بعيد .

لقد أصبحت الحركة الدولية لرأس المال الخاص عبر جميع البلدان ،  
فيما عدا القليل منها ، مستحيلة بالفعل أو خاضعة لقيود حكومية صارمة .  
وهكذا تلاشى أثر ما كان يشكل العمل المصرفي الدولي منذ خمسين عاماً .  
وفي الاقتصاد المحلي أيضاً ، أصبحت عمليات الإقراض الخاص خاضعة  
لقيود كثير من الحكومات في جميع الدول الغربية وإن كانت القيود  
المفروضة عليها أقل من تلك المفروضة على الدور الذي تلعبه دولياً .

وتمشياً مع هذه التطورات ، أخذت الحكومات ذاتها تلعب دوراً  
أكثر نشاطاً في العمليات المالية الداخلية والدولية .

كل هذا ، مع اتساع نطاق حق الانتخاب والعلانية المتزايدة التي تلجأ  
إليها الحكومات في جميع الدول الديمقراطية ، قلل من قدرة رجال المال  
على أن يلعبوا الدور الذي اعتادوا أن يلعبوه في شئون المصارف والمال  
قبل الحرب العالمية الأولى ، كما أشرف تأثير المصرفيين الكبار على الحكم  
على التلاشى إلى الصفر وهو الدور الذي طالما بالغ العالم الخارجي في تقديره .

وعلاوة على ذلك فإن الضرائب التي زادت من عشر مرات إلى عشرين مرة  
عما كانت عليه في القرن الماضي ، زادت من صعوبة تكوين رأس المال  
الخاص عما كانت عليه الحال في أيام رخاء «روتشيلد» و«مورجان» ، وقلل  
التضخم من قيمة العملات المحلية ، في أحسن الظروف ، إلى أقل من نصف

كانت عليه في بداية القرن ، وفي أسوأ الحالات إلى الصفر أو إلى جزء من واحد في المائة .

وأخيراً ، أدت ندرة المواد الخام والسلع الاستهلاكية والمساكن في معظم الدول الغربية إلى فرض قيود على التوزيع الذي خفض ، إلى حد معين ، من قدرة النقود على شراء مواد السلع ، وهكذا شلت حركة قانون العرض والطلب الذي كان يلعب يوماً ما دوراً لا يقف في سبيله عائق في معظم الدول الغربية... نقول: شلت حركة هذا القانون بشكل خطير ، وهكذا انتهى عهد كبار المصرفيين الدوليين بمجيء عصر حرية التجارة الدولية . غير أن التصفيق لهذا التطور أو استهجانه لا يدخل في نطاق دراستنا الحالية ، وما يعنيننا هو أهمية هذا التطور كاتجاه للمجتمع الغربي في يومنا ، وهو اتجاه يتفق مع أحد الخصائص التي قدمها شبنجر بشأن طور الحضارة الأخير .

### نحو المدن العالمية :

ذكرنا أن نمو عدد قليل من المدن العالمية ، ذلك النمو الذي جعل بقية مدن العالم تبدو إقليمية بالنسبة لها ، دليل آخر من دلائل التطور الأخير للحضارات السابقة . ولقد بدأت هذه العملية في مجتمعنا خلال القرن التاسع عشر ، وازدادت قوة في القرن العشرين ، وسندكر بعض الأمثلة الواضحة على ذلك :  
فيما بين عامي ١٨٧٠ و ١٩٥٠ ، زاد تعداد سكان لندن - دون الضواحي - من ٤ ملايين إلى ٩ ملايين نسمة ؛ وسكان نيويورك من ١ إلى ٨ ملايين ؛ وسكان برلين من ٨٠٠ ألف إلى ٤,٥ ملايين ؛ وسكان موسكو من ٦٠٠ ألف إلى ٦ ملايين ؛ وسكان جاكرتا من أقل من ٢٦٠ ألفاً إلى ٢,٨ مليون . وليس

من شك في أن المدن الرئيسية تطابق في الأيام الحالية الصورة التي رسمها شبنجلر لهذا « الغول الهائل » - يقصد المدينة التي امتصت ، بسحرها الذي لا يقاوم ، الملايين التي خرت ساجدة لسحرها الأخاذ . إن كل من وقف على حافة بحيرة متزه « سنترال بارك » التي تتعكس على صفحة مائها ملايين الأضواء المنبعثة من ناطحات السحاب في نيويورك ، أو تطلع إلى باريس من فوق درج الساكركير ، ورأى كيف أنها تنافس بجهاها نجوم السينما ، لا يملك إلا أن يستخلص أن ذلك تجسيد لنبوة شبنجلر .

فهاهي بابل ونيوى وروما القديمة قد بعثت من جديد .

وينطبق الشيء ذاته على السكان : فإنهم يقيمون في عمارات نفخة ، وبذلك فقد سكان المدن الرئيسية الحديثة كل ارتباط وإحساس بالتربة أو ما يتصل بها . . . لقد كان البيت بمثابة قلعة الإنسان ، بناء وشيده للإقامة فيه ، ولكنه أصبح في هذه المدن مجرد مكان للنوم والأكل ( فن العسير أن نقول إنهم يستخدمونه للحياة فيه ) . إنه واحد من ملايين - ذات مساحات متقاربة في كثير أو قليل ، وتتراوح في الحجم والشخصية الذاتية - يتحرك فيه الناس إلى أن يحين وقت تغييره بآخر أكثر راحة ، لأنه يهيء دوايب أكثر أو يوجد به حمام إضافي أو ثلاجة .

وهكذا بعث طابع هجرة المثقفين من جديد .

#### تدهور معدل المواليد :

إن تدهور معدل المواليد عنصر يشترك فيه عصرنا الحاضر مع الحضارات السابقة ، وطبقاً لدائرة المعارف البريطانية فإن معدل المواليد

أخذ في التدهور السريع منذ الربع الأخير من القرن التاسع عشر في جميع الدول الهامة بالعالم ، إلا أنه ليس في الإمكان أن نتحقق مما إذا كان ذلك ينطبق على دول مثل روسيا والصين حيث لا يمكن الحصول منها على إحصائيات يمكن التحقق من صحتها أم لا . ولكن مهما يكن من أمر ، فإن الاتجاه بالنسبة لمعظم الدول الغربية توضحه الحقائق والأرقام . فقد إنخفض معدل المواليد في إنجلترا وويلز من ٣٥ في الألف تقريباً ( في الفترة فيما بين ١٨٥٠ و ١٨٨٠ ) إلى ١٥ في الألف تقريباً ( في الفترة من ١٩٢٠ إلى ١٩٤٠ ) وكان الانخفاض في ألمانيا من ٣٥ إلى ١٧ - ١٨ في الألف ، وفي فرنسا من ٢٦ إلى ١٥ ، وفي الولايات المتحدة من ٢٥,١ ( عام ١٩٢٥ ) إلى ما يقرب من ١٧ ( في أعوام ما قبل الحرب العالمية الثانية ) .

وأبدت جميع هذه الدول ارتداداً ملحوظاً بعد الحرب مباشرة ، في عامي ١٩٤٦ و ١٩٤٧ مثلاً ، غير أنه كان من الواضح أنها ظاهرة موقوتة تشبه تلك الظاهرة التي برزت بعد الحرب العالمية الأولى . ومن الطريف أن نذكر أن ما حدث عقب تلك الحرب كان عكس ذلك تماماً ، فقد سجل معدل المواليد في كثير من الدول الغربية ، في الوقت الحاضر ، مستوى أعلى مما كان عليه قبل الحرب ، ففي أعوام ١٩٤٨ و ١٩٤٩ و ١٩٥٠ كان معدل المواليد في إنجلترا وويلز حوالي ١٧ ( مقابل ١٥ في الألف قبل الحرب ) ، وفي فرنسا ١٢ - ٢١ ( مقابل ١٥ في الألف قبل الحرب ) ، وفي الولايات المتحدة حوالي ٢٤ ( مقابل ١٧ في الألف قبل الحرب ) ، وما زال من السابق لأوانه أن نحكم عما إذا كان هذا اتجاهًا مستمرًا يعكس نهضة صحية فيزيقية في الإيمان الخلق في العالم الغربي أم لا .

### العودة من المذهب العقلي :

وفي المجال الفكري أيضاً ، تطورت حضارتنا طبقاً لطابع معين :  
فقد ولدت حضارتنا في العصور الوسطى في وسط فني ونظام سياسي واقتصادي خاضع لسيطرة الكنيسة ، ففي بداية القرن السادس عشر بدأ العقل البشري يتحرر من نفوذ الكنيسة ، ونفوذ النظام الإقطاعي ، ودخل إلى عصر المشروعات الكبرى والابتكار ، فولد ذلك عصر الإصلاح ، والنهضة ، وانتعاش المعرفة والاتجاهات الإنسانية ، ومكتشفي العالم ، غير أن مشروعية الدين المسيحي لم تواجه تحديات .

ولما زاد استقلال الروح الإنسانية وشجاعتها استطاعت أن تغير اتجاه القرن الثامن عشر ، وعندئذ بدأ الإيمان المسيحي نفسه يتعرض لأول مرة للهجوم العلني المكشوف . . ففي المراحل المبكرة أثارت هذه العقيدة منازعات عنيفة وحروباً دموية ، ولكنها كانت اختلافات حول الكنيسة والمذهب ، والعقيدة والمبدأ الجامد ، وأصبحت الآن تنسك تعاليم المسيح ، بل تنسك وجود الله عز وجل ، وقد بذرت بذور تلك الحركة في أذهان الناس خلال القرن الثامن عشر بمعرفة كتاب أمثال : فولنير ، ومؤلفي دوائر المعارف وغيرهم من الفلاسفة ، ونضج محصولها الأول في الثورة الفرنسية وأثمرت ثمارها الكاملة خلال القرن التاسع عشر ، وهكذا جاء عصر العقل ويتفق ذلك مع التطور الثالث المعتاد للحضارة ، وهو التطور الذي تتم فيه عملية صبغ الشئون الروحية بصبغة دنيوية وتكمل فيه الحياة الفنية والعلمية .

غير أنه حتى في هذه الفترة تنور الشكوك الأولى : ففي النصف الأول

من القرن العشرين ، كان الإيمان ضئيلاً بنعم المعرفة غير المحدودة باعتبارها دواء لكل أمراض العالم . وفي ذلك الوقت كانت الحضارة الغربية قد مرت بهذه التجربة زهاء ٤٠٠ عام وتعلبت الدرس ذاته الذى يتعلمه الإنسان عادة فيما يقرب من أربعة عقود من حياته : ولّد التحرر من سيطرة القوى الخارجية فى بداية الأمر نهضة مشمرة ذات قوة خلاقة روحية وفنية تعتمد على الحس ، واستبدلت هذه القوة تدريجياً بتطور أكثر قوة للعقل الذى أوجد المعرفة والعلم والفن ، واكتشف فى النهاية فقط أن هذا كله لا يجلب السعادة فى حد ذاته ، وأن المخ قليل الفائدة بدون الخلق ، وأن الأعمال التى تمنحنت عنها معرفة الإنسان المذهلة لم تحقق اليوتوبيا المنتظرة ، بل إنها — على النقيض — أثارت مشاكل أكثر، ونزعات أكبر، ومتاعب أكبر، وأوجدت الثورة الصناعية مشكلة العمل والصراع الطبقي ، وزاد العلم وهو مبرأ من القيود الأخلاقية ، من إشراف الإنسان على قوى الطبيعة بطريقة لا يمكن تصورها ، وزاد من قيمة راحة الإنسان وراحته وصحته وطمأنينته . غير أنه أوجد فى الوقت ذاته قوى تدمير رهيبة إلى درجة أن قنبلة واحدة تكفى لقتل ٧٨,٠٠٠ شخص ، بل إن أسلحة المستقبل قد تستطيع أن تقضى على الحياة المتحضرة ذاتها .

فهل ثم عجب أن يجد الناس أنفسهم فى القرن العشرين غير راضين عن سير الأمور التى أوجدتها سيطرة العقل ، أو عن التأكيد بأنه — أى العقل — لا يستطيع أن يقدم الحل لمتاعب عصرنا ؟ إن عصر العقل فى سبيله إلى الذبول .

وارتد الناس ، فى بحثهم عن ملاذ فى قيم أخرى ، من الأمور العقلية

إلى الأمور غير العقلية . ويمكن تتبع هذا التحول عن العقل في الدين والفن والعلوم والسياسة ، وبجمل القول ، أن الناس يبحثون عن الحل في أحد اتجاهين : إتجاه إلى أعلى يتمثل في البحث عن قيم أعلى من العقل . . واتجاه إلى أسفل ، يتمثل في البحث عن قيم أقرب إلى الأرض من العقل .

فعندما يتطلع الناس إلى أعلى ، فإنهم يبحثون عن الخلاص في الحلول الدينية أو الفلسفية أو الميتافيزيقية أو الأسطورية . وهناك انتعاش ملحوظ في الاهتمام بالدين والاحتياجات الدينية في عدد من الدول ، فنسبة المشتركين في الكنيسة بالولايات المتحدة في تزايد مستمر ، وفي الوقت ذاته فإن نجاح الحركات غير الطائفية في كثير من الدول الغربية مثل « فريق أكسفورد » ، أو « حركة إعادة التسلح الخلق » ، يمثل خيبة الأمل في الاتجاهات الذهنية والجرع الروحي الذي يعاني منه عصرنا .

وتم تطور هام في مجال اللاهوت في عصرنا يتمثل في نجاح الأرثوذكسية الجديدة التي تقول بأن مشاكل الإنسان الأساسية حول وجوده يمكن أن تحل بالإيمان لا بالعقل ، وقد أسس هذه الحركة في أوروبا « كارل بارت » ( Karl Barth ) ، و « أميل برونر » ( Emil Bruner ) وأحدثت في منتصف القرن الحالى تأثيراً قوياً في بريطانيا والولايات المتحدة على يد الدكتور ( رينهولد نايبوهر Dr. Reinhold Niebuhr ) ، ويبدو أنها لا تزال تحرز قوة ( انظر كتاب العالم في منتصف القرن ص ١٨٢ و ١٨٤ بقلم Edwin Ganham ) .

ومن الممكن أن نجد المظاهر الأخرى لهذا التحول عن الاتجاهات العقلية في كثير من المذاهب الجديدة التي تتنافس في الاستئثار بتجديد

الجاهير ، تلك المذاهب التي تشبه « كوكتيلا » من مخاليط مختلفة من المشاعر  
العاطفية المختلفة والدين وشبه الفلسفة .

ومن ثم لن يدهشنا إذا وجدت هذه النزعة اللاعقلية في المستقبل  
معبودها في « متدين ثان » ، وكنيسة جامعة ، فإن الحركة الجامعة بدأت تنمو  
في الكنيسة البروتستانتية منذ حقبة كثيرة ، وانقشع العداء الذي كان  
مستحكماً في أحد الأيام بين الكاثوليك والبروتستانت ليحل محله التعاون  
لمواجهة التحدي الناشئ من المذاهب الإلحادية التي تسعى إلى الحلول محل  
الكنيسة في تلبية احتياجات الإنسان الروحية ، فليس من المدهش إذن  
أن يتنبأ توينباي في أحد أحاديثه بأدبرة ، بأن حركة القرن التاسع عشر  
في العالم الغربي ، التي استبدلت الدين بالتكنولوجيا كمرکز للاهتمام ، سوف  
تنقلب في القرن الواحد والعشرين إلى حركة مضادة يعود فيها الجنس  
البشري من التكنولوجيا إلى الدين .

ووجدت حركة البعد عن العقل والواقعية طريقها إلى الفن في أساليب  
مختلفة قفزت إلى المقدمة منذ الحرب العالمية الأولى ، منها التكيفية  
والمستقبلية ، والرمزية ، والقيصرية ، وإن تكن السيريالية هي أكثر  
النماذج تعبيراً في هذا الصدد .

ويلاحظ الاتجاه ذاته في العلم ، « فالعلوم الفيزيائية ، التي تحدث الدين في  
أحد الأيام ، تميل الآن إلى تأييد الميتافيزيقا بدلا من تأييد التفسير المادي  
للكون والإنسان (المرجع نفسه ص ١٧٨) » . وبالمثل في الطب ، فإن مدرسة  
« الطب النفسي ، ذات التأثير القوي تعلن أن حوالى ثلثي جميع أمراض

البشر نتيجة للصراع العاطفي ، ومن ثم فهي ليست أمراضاً جسمية وإنما هي أمراض عقلية وروحية يجب أن تعالج على هذا الأساس .

وحتى في السياسة أصبح من الواضح أكثر فأكثر أن المجتمع لا يمكن أن يحكم بالعقل الخالص ، ويمكن أن يلاحظ التجسيم الديني لهذا الاتجاه في الديمقراطيين المسيحيين ، وهم أحزاب الوسط بين الأحزاب التي تولت الحكم في فرنسا وألمانيا وإيطاليا ودول أوربية أخرى بعد الحرب العالمية الثانية .

ويذهب الاتجاه الآخر الذي ينطلق إلى أسفل ، والذي يأخذ به خصوم السخط العقلي في عصرنا ، إلى إنكار كل قوى تعلو عن الإنسان ، ويعود لعبادة القيم الأرضية البحتة ، وقد يأخذ عندهم شكل عبادة البطل ، وتأليه الدكتاتوريين الذي تكلمنا عنه من قبل ، ويمكن أن نميزه أيضاً في التعصب السياسي وعبادة الدولة التي اكتسحت العالم الغربي منذ الحرب العالمية الأولى ولم تتخف بعد . ومن الجائز أن يتبلور هذا الاتجاه في فلسفة مادية كالمادية التاريخية أو فلسفة الوجودية ، أو قد يستخدم ببساطة الفلسفة الأخيرة في أرخص أشكالها المادية وهي السعي وراء النجاح والقوة وإرضاء الحواس .

#### قواعد أخلاقية منحلة :

جلب التطور الروحي الذي مرت خلاله الحضارة الغربية في بحر وجودها تطوراً مماثلاً في قواعد المجتمع الأخلاقية .

وكانت المقاييس الأخلاقية ، طيلة سيادة الدين على الحياة الروحية والاجتماعية جزءاً منها ، وبذلك خالفت وصايا الإنسان السامي المطلقة

غير القابلة للنزاع والجدل ، بيد أنه عند ما أخذ العمل البشرى يتحرر ، وأصبحت الحياة الروحية والاجتماعية ذات صبغة دنيوية ، فقدت المقاييس الخلقية ، بالضرورة ، شخصيتها المطلقة المتسامية ، واتخذت طبيعة القواعد التي وضعها الناس لخير المجتمع ، وهكذا حلت المنفعة والحكم العقلي محل الإرادة الإلهية كأصل لهذه القواعد ، وأصبحت الأوامر الإلهية ذات الطبيعة المطلقة ، موضعاً للتعليل والتأمل البشرى ، وبالتالي محل جدل ، وبعد ذلك خضعت للحكم الشخصي حتى أصبحت موضع بحث في نهاية الأمر .

وقد ساعد على ذلك مؤثران قويان منذ منتصف القرن الأخير ، هما :  
المادية التاريخية بإعلانها أن العوامل الاقتصادية هي أصل جميع التطورات في المجتمع ، وبذلك قللت من شأن المعايير الأخلاقية ، فحتمت عليها أن تكون مجرد وظيفة للعوامل الاقتصادية .

وبالمثل في علم النفس عند فرويد ، فهو يرى أن للدوافع الجنسية أسبقية على جميع الدوافع الأخرى ، وبذلك قلل من قيمة المعايير الأخلاقية فجعلها مجرد وظيفة للعوامل الجنسية .

وعلى رأس هذه الحركات في مجال الفكر ، وهي الحركات التي كانت قد عاشت لأمد طويل عند اندلاع نار الحرب العالمية الأولى ، يجيء الاضطراب الفيزيقي الذي سببته الحرب العالمية ، والذي تمثل في انحلال المعايير الاجتماعية للسلوك والروابط العائلية التي نشدها منذ ذلك الحين .

حدث كل هذا في مجتمع أرخيت فيه قيود تقاليد العصور الأولى ، واستبدلت بها روابط واهية من المنفعة والحكم الشخصي . أما موقف الفرد

تجاه المجتمع ، ذلك الموقف الذي وجد له تعبيراً في أحد الأوقات ، في مجموعة صارمة من الواجبات الملزمة ، فقد أصبح أكثر فأكثر مجموعة من الحقوق والمزاعم والمطالب ، وانتقل من الوصايا العشر إلى إعلان حقوق الإنسان . وليس هذا التغيير في التأكيد من الواجبات إلى الحقوق عرضياً ، وإنما هو نتيجة طبيعية لعقلية دعاة الاستمتاع وأخذ ما يمكن أخذه من الحياة ، هذه العقلية الطاغية في هذه الأيام .

### الافتقار إلى الإحساس بالأسلوب :

من علامات التعرف على الحضارة الحية ، أن كل فترة من فتراتنا تجلب أسلوباً خاصاً بها يمثلها ويتخلل كل تعبيراتها الجمالية ، وقد عرفت الحضارة الغربية سلسلة من هذه الأساليب كالرومانسية والقوطية والنهضة والباروك والروكوكو .. وقد بين « هوزنجا Huizinga » ، أن القرن الثامن عشر يعتبر - حتى الآن - آخر قرن أنتج أسلوباً خاصاً متجانساً منسقاً ، أما القرن التاسع عشر فلم يكن له أسلوب خاص ، وكل ما حدث به كان فترة وجيزة من التألق ، وعلاماته المميزة هي انعدام الأسلوب ، وخط الأساليب ، وتقليد الأساليب . وغالباً ما تسهل ملاحظة عدم وجود أسلوب أو « الإحساس بالبلبل » ، كما يطلق عليه توينبي ، في ذلك الشكل من الفن المرتبط بالحياة اليومية ارتباطاً وثيقاً ، ومن ثم فهو يعبر عن فترات عظيمة ونعني به : الفن المعاصر . وقد أظهرت باريس ، ولعلها أكثر المدن التي عرفها التاريخ جمالا ، الدلائل على تقليد أساليب سابقة ، وذلك في كنيستين من أكثر كنائسها شهرة أنشئت في القرن التاسع عشر ، شيدت إحداها على شكل معبد روماني

والأخرى على الطراز الرومانسى البيزنطى . وهناك أيضاً مجموعة ممتازة من الأساليب — لا تعكس جمالها الخاص ولا قيمتها القومية — فى مدينة واشنطن ، وهى إحدى عواصم حضارة العالم الكبرى ، حيث يستطيع الإنسان ، فى جولة قصيرة ، أن يمر بسلسلة من الأبنية العامة والنصب التذكارية المصممة على شكل المعابد اليونانية ، والمسلة المصرية ، والمتحف الكلاسيكى الجديد . أمادواوين الحكومة فليست على طراز واحد . وهناك أيضاً فندق على الطراز القوطى . وأخيراً ذلك الشيء الذى يبدو أنه نتيجة لتقليد تصميم هرم مصرى فى العصور المتأخرة ، ومعبد يونانى .

وعلىنا أن نضيف ، بلا إبطاء ، أن معظم هذه المباني وما يماثلها ، يمثل انعدام الأسلوب منذ القرن التاسع عشر أو أوائل القرن العشرين ، وأن الفن المعماري ، كما سيلاحظ فى الفصل العاشر ، هو الفن الوحيد الذى شاهد فيه قرننا العشرون أسلوباً جديداً قوياً .

وهناك مظاهر أخرى من الفن العصرى ، وإن لم تكن — جميع المظاهر — تبين الخصائص التى بينها سوروكين ، فى الوصف التالى للتطور المتوسط للنضج الزائد ، ويبدو أن هذا الوصف مناسب وفريد جداً :

« إننا نجد فناً حاذقاً يستطيع أن يعيد إقناع أى شيء ، ولكن نظراً لتجرده من الروح القوية الخاصة ، فإنه يمزج جميع أنواع الأساليب على نحو غير مناسب ، ويقلد ، بطريقة لاشعورية ، الأسلوب

«البداي»، ولهذا فإن «الإحساس، أو المادية الحسية، لا المثالية، هو السائد الآن». وقد هوى الفن إلى الحضيض. إنه يقلد الحسية والحقيقة التجريبية، ويميل ميلاً غريباً إلى إنتاج ظواهر الحياة السلبية، والمشجية، والحماسية، والركيكة، والبهيجية، والقييحية. لقد اندثرت الرزاة الهادئة، وأصبحت لدينا، بدلاً منها، أشكال مشوهة، ومعاناة، وقبح... وأضحت المرأة التي لم تكن تظهر إلا لماماً في الفن الكلاسيكي، موضوعاً مفضلاً في هذه المرحلة، إنها توصف الآن، بشكل واقعي، وفي اصطلاحات شهوانية وحسية وجنسية ومغرية و«جمالية»، وظهرت روح الحسية الخالصة التي توافرت في الأبيقوريين،

ولا تنطبق الصفة الأخيرة بمعناها الصارم على الفن فحسب، بل تنطبق أيضاً على نواحي الحياة الأكثر زخرفاً التي تشملها أسباب الترفيه العام والفن التجاري، ونحن لا نجادل في أن الجنس يلعب دوراً في الحياة العصرية أعظم منه في أي وقت مضى منذ خلق آدم وحواء، ولا نريد أيضاً أن نناقش ما إذا كان من الأفضل أو الأسوأ التخلي عن النفاق الذي استخدم في الماضي لستر هذا الموضوع، لكن مهما يكن من الأمر، فإن المهم فعلاً بالنسبة لعصرنا، أن مظاهر الجنس المغرية المثيرة — وهي دليل

الفترة « الحسية » لكل حضارة — أصبحت في الوقت الحاضر «تناقش»  
و«تشرح» علنا على نحو يفوق ما كان يحدث في أى عصر من العصور السابقة  
وتكفى نظرة على أية مجلة أو إعلانات للسينما فى أية مدينة كبيرة ، لتأكيد  
هذا القول .

### انكماش رقعة الحضارة الغربية :

عند نهاية القرن التاسع عشر ، كانت حضارتنا قد بلغت أقصى درجات  
التوسع الإقليمي ، وكانت قد اكتشفت الأماكن العذراء على الكرة الأرضية  
والقطب الشمالى والجنوبى ، وهكذا كان العلم كله معرضاً لنفوذ الاقتصاد  
والفن والثقافة الغربية ، ولم يكن العالم الغربى بالمعنى المحدود لهذه الكلمة ، هو  
وحده الخاضع لسيطرة الحضارة الغربية ، بل كانت تشاركه فى ذلك روسيا  
وآسيا وأفريقيا بشكل أو آخر سواء عن طريق الحكم السياسى أو السيطرة  
الاقتصادية أو التأثير التجارى أو الفنى أو العادات الاجتماعية أو الملابس  
أو الدين ، وهى غالباً ما كانت تشكل غشاء رقيقاً زائفاً فوق سطح المجتمع  
ما لبث أن سقط فى كثير من المناطق ، إلا أنه كان يعتبر فى وقته  
غير متناه فى السمو حتى فى المجتمعات غير الغربية ، وفى هذا الامتداد  
لحدود العالم المعاصر ، حققت الحضارة الغربية مقياساً آخر من مقاييس  
هانيلفسكى وتوينبى عن نضج الحضارة .

ومنذ ذلك الحين أخذت رقعة السيطرة الأجنبية فى الانكماش بسرعة

لم تدع للغرب فرصة أو وقتاً لإدراك ذلك ، ويعيش الآن في روسيا والصين ما يقرب من ٨٠٠ مليون نسمة تحت ظل النظام الشيوعي ، بعيدين عن جميع القيم التي تؤيدها الحضارة الغربية ، وعما قريب سوف يجهل هذا الثلث من سكان العالم ، حتى ولو من ناحية الذكرى ، ما معنى حرية الإنسان ، والديمقراطية ، وحرية الكلام ، وحرية الصحافة ، وحرية الفكر والدين ، وسيعرفون فقط الصور الكاريكاتورية المشوهة لهذه الكلمات التي دمغها جهاز الدعاية الكفء بطابع كره في أذهانهم .

وفي بقية آسيا استطاع عدد مساو تقريباً من الدول أن يضع نهاية للحكم الغربي ، ويحصل على استقلاله ، ومن الجائز أن تدفعهم كراهيتهم للسيطرة السياسية التي استطاعوا التخلص منها إلى أن يرفضوا قِيماً اعتبروها خطأ مرتبطة بالسيطرة الغربية ارتباطاً لا ينفصم .

ومن سبق الحوادث أن نستنتج أن نفوذ الحضارة الغربية تضاعف بنفس نسبة الانكماش الإقليمي ، لأن ما فقدته من ناحية سيطرة الدول الاستعمارية القديمة ، استعادتته جزئياً نتيجة لزيادة النفوذ الأمريكي منذ الحرب العالمية الثانية ، ومن الجائز أن يظل الوضع كذلك إذا ثبت نجاح الأشكال الجديدة للتعاون الاقتصادي بين الدول المتقدمة والدول المتخلفة ، ذلك لأن المظاهر الاقتصادية للحضارة الغربية التي اكتشفت حديثاً أثبتت وجود دلائل جديدة في جميع هذه المناطق ، وواقع الأمر ، كما سنبين في الفصل التالي ، أن أحد الاختبارات الكبرى أمام الحضارة الغربية هو مدى قدرتها على مواجهة « تحدي » حركة معاداة القومية الغربية .

### الخلاصة :

يتضح من الجزء الأول من هذه الدراسة أن جميع التطورات التي وردت في هذا الفصل حدثت أيضاً في حضارات أخرى . إنها تبين أن التطور الثالث ، وهو طور النضج ، بلغ نهايته ، وتبين من ناحية أخرى أن حضارتنا الغربية لم تدخل بعد في التطور الأخير ، أي طور الدولة العالمية الشاملة ، والكنيسة الجامعة .

وفي الوقت ذاته ، تتمثل أزمة حضارتنا في عدد من « التحديات » التي تشير إلى النتيجة نفسها ، غير أنها تستحق فصلاً دقيقاً خاصاً في الفصل التالي ، نظراً لأهميتها الحيوية بالنسبة لاستمرار بقاء حضارتنا .

ومن ثم فإن من المحتمل جداً أن تكون الحضارة الغربية في طور الانتقال من فترة النضج إلى فترة حضارة السلام العريض ، وبمعنى آخر في التطور الذي يعتبره دانييلفسكي « حالة متناقضات ومنازعات ما قبل الحضارة » ، وهو ما يطلق عليه شبنجلر « الجزء الأول من الفترة الرابعة — حقبة القياصرة » ، وما يطلق عليه توينبي « عصر المتاعب » .

ومع أن الدلائل التي ذكرت تفترض اقترابها من مرحلتها النهائية ، إلا أنه ليس هناك سبب يؤيد قرب نهاية حضارتنا ، ولقد كانت تلك هي النتيجة التي استخلصها عقل شبنجلر العسكري الذي يرى أنه : حيثما لا يكون هناك قتال ، لا تكون هناك حضارة . وإنما يتوقف استمرار الحضارة وقيمتها علينا نحن ، فإذا اعتبرنا - مثلاً - فعل « هوزنجا » ، أن القرن الأول قبل المسيح هو قمة مجد الحضارة الرومانية ، فعنى هذا أننا لم نصل بعد إلى الوقت المائل الذي يعتبر أعظم عصر لحضارتنا .

إن استمرار ذلك الطور الأخير لا يمكن تحديده ، فقد يستمر ٤٠٠ أو ٥٠٠ عام مثلاً حدث لروما ، وقد يستمر ألفى عام مثلاً حدث في مصر ، وقد يشكل عصراً من التحال والفساد مثلاً حدث في القرون الأخيرة من الإمبراطورية الرومانية ، كما قد يشكل عصراً يلبس كأنموذج للنجاح ، وحسن الإدارة ، وعظمة الفن والعلم ، كما كانت الحال في عصر أوغسطس . وفي الإسكندرية وبيزنطة .

والواقع أنه ليست هناك حضارة تستطيع أن تسير إلى الخلف ، وإن كانت تتمتع بحرية اختيار التحرك إلى أعلى أو إلى أسفل . ونحن لم نعرف أية حضارة تراجعت إلى العصور الأولى ، وإن فكن قد عرفنا حضارات كثيرة ارتفعت بإرادة شعوبها وحكامها ، أو سقطت نتيجة لانعدام هذه الإرادة .

والأمر كله متوقف علينا نحن .

## الأخطار الرئيسية الثلاثة التي تواجه الحضارة الأوربية

أشرنا في الفصل السابق إلى عدد من خصائص عصرنا التي تبين أن المجتمع الغربي في حالة انتقال ، ويتضمن بعض هذه الخصائص نقائص وضعفاً يمكن أن تكون خطراً على حضارتنا ، إلا أن ما يجعل موقفها حرجاً هو أن الحضارة بالإضافة إلى هذه الخصائص ، تواجه عدداً من العقبات الرئيسية ، تكفي كل عقبة منها - إذا لم تغلب عليها - للقضاء عليها . وبهذا المعنى ، لن تكون هناك أية مبالغة إذا أطلقنا على الحالة الراهنة للعالم الغربي ذلك الاصطلاح الذي يساء استعماله بكثرة ، وهو «عصر الأزمة» ، أى الطور الحاسم الذى تكون نتيجته إما بقاء الحضارة أو اندثارها .

وهناك ثلاثة أخطار رئيسية تهدد الحضارة الغربية ، وهى ، كالخصائص التى ناقشناها فى الفصل السابق ، تتلاءم مع سابقتها ومع نمط معين ، وتميل إلى تدعيم النتيجة السابقة التى تجزم بأن حضارتنا تقترب من طور السلام الحضارى العريض .

ويجئ الخطر الأول من ضعف داخلي مشابه للخطر الذى تعرضت له الحضارة اليونانية فى القرن الخامس قبل الميلاد ، ونعنى به تمزق وحدة أوروبا .

أما الخطر الثانى فيمكن فى أن تتحول الشعوب خارج أوروبا ضد الحضارة الغربية بعد أن تحررت من سيطرتها : إنه الاتجاه ضد الغرب .

متمثلا في القومية الناهضة للشعوب التي لم تكن مستقلة فيما سلف .  
ويجىء الخطر الثالث من قوة نشأت بداخل مجتمعاتنا ، ومن ثم يمكن  
أن تعرف باسم « بروليتاريا داخلية » ، وتعمل في الوقت الحاضر بداخل العالم  
مثليا تعمل خارجه ... وهذا الخطر هو الشيوعية .

### الشيوعية وعداؤها للقومية الغربية :

نشأت الشيوعية كما نشأ العداء للقومية الغربية في المناطق غير  
المستقلة سابقاً في شكل ثورة ضدها كانت تعتبره سيطرة غربية على العالم ،  
كما قامت تحدياً لزعامة الغرب ، وتعتبر الشيوعية ، في الوقت الحاضر ، أشد التهديد  
خطراً ، لأنها تهدف إلى اقتلاع النظامين السياسى والاقتصادى للحضارة الغربية  
من أساسهما ، وإنشاء معبود من النظام السياسى والاقتصادى الخاص بها  
في مكانها ، وبرغم أن معاداة القومية الغربية أحدثت أثرها المبكر  
في مناطق شاسعة ، إلا أنها أقل خطراً في تهديد الحضارة الغربية ،  
لأنها وجهت نشاطها حتى الآن ، إلى هدف محدد هو القضاء على السيطرة  
الغربية التي ما زالت حتى الوقت الحاضر — ما دامت لم تقع بعد تحت  
السيطرة الشيوعية — محافظة على كثير من خصائص المجتمع الغربى السياسية  
والاقتصادية . وليس من شك في أن مجتمعات آسيا والمجتمعات غير الغربية  
الأخرى ، غالباً ما كانت لها خصائص قوية خاصة بها ، قد تكون أحياناً  
أسمى صفة وبالأخص في المجالين الثقافى والروحى ، ولكنها لم تقدم حتى  
الآن أى نظام منافس يمكن أن يدعى منافسة النظامين الديمقراطى والشيوعى .

وما دام الأمر كذلك ، فسيظل الصراع مشتعل الأوار بين هذين النظامين .  
ومن الممكن اعتبار الشيوعية « بروتاريًا خارجية » بالمعنى الذى يقصده  
« توينبى » . ويبدو أنه من المؤسف ما عמד إليه « توينبى » من استخدام كلمة  
« بروتاريًا » للتدليل على هذه القوى الثورية ، فإن هذه الكلمة تشير عادة  
إلى شيء أدنى مرتبة ، بينما الواقع أن هذه القوى هى قوى ثورية مناهضة ، ليس  
من الضرورى أن تكون أدنى مرتبة أو « بروتاريًا » . ومهما يكن  
من الأمر ، فحيثما استعملت هذه الكلمة فى هذا الكتاب للدلالة على هذه  
القوى ، فإنما الغاية من ذلك هى استخدام الكلمة ذاتها التى استخدمها  
توينبى فى وصف هذه الظاهرة ، دون أن يكون فى ذلك استنكار  
أو استهجان لهذه الحركات . ولهذا فإن الشيوعية — بوصفها هذا — تعتبر  
نفسها محرومة من امتيازات الغرب . وليس ثمة شك فى أن ذلك المستوى المعيشى  
العالى الذى يتمتع « الغرب » به يرجع إلى نظام إنتاجهم ، وقوة عقولهم  
المبتكرة ، وإلى أسباب مفهومة لا تستطيع أن تفهمها الجماهير « التى لا تملك » ،  
فهذه الجماهير لا تفهم إلا أن الآخرين أغنياء ، وهى فقيرة ، ومن ثم فهى  
تريد إحراز الرخاء ذاته ، وإذا دعت الضرورة فإنها ترى قلب الدور الذى  
يقوم به كل منهما ، وفى مثل هذا الموقف : أليس من الأيسر أن تهمس  
فى أذن الرجل المحروم بالرسالة المسمومة « انظر كم هو غنى ، وأنت فقير !! »  
لقد حصل على ثرائه هذا بسرقة نصيبك المشروع ، فاقتله وخذ ثرائه ،  
خذ منزله وسيارته ، وعندئذ ستصبح رجلاً عظيماً ، . تلك هى الطريقة  
التي استخدمتها الشيوعية بنجاح ، إلا أن الفقير المعدم ما يكاد ينفذ هذه النصيحة  
المرذولة حتى يكتشف أنه قتل مع « المتمتع » سر رخائه ، ومن ثم فإن

الطريق الصحيح الذي ينبغي أن يسلكه « المعدمون » ، ليتحرروا اقتصاديا وليحصلوا على المساواة ليس هو قتل « المتمتعين » ، وإنما التوصل إلى سرهم ومراعاته مع ظروفهم الخاصة ، وبعبارة أخرى استخدام نفس الوسائل التي تجلب رخاء مماثلا لمجتمعهم . وإذا استطاعت الحضارة الغربية أن تتوصل إلى الوسائل التي يمكن أن يعتبرها الشرق أفضل الوسائل لإحراز النجاح ، فعندئذ فقط ، سيتمسك الشرق بهذه الطرق بمحض اختياره ، وعندئذ يمكن أن تتحرر هذه المناطق من شعورها بالعداء نحو الغرب ، وذلك دون أن تتضاءل قيمتها القومية على أي نحو . ولكني يتم ذلك ، يجب أن تنجح الحضارة الغربية في إقناع هذه الشعوب بقيمة الدين الشاملة ، بقيمة حرية الإنسان التي يجب أن تحظى بالاحترام في الشرق والغرب على السواء .

وبمعنى آخر ، ليس هناك تناقض أساسي ... متميز عن العاطفة ... بين الحضارة الغربية وقومية الدول الحديثة النهوض ، أي أن تعايشها السلمي ليس ممكناً فحسب ، بل من الضروري أيضاً أن يقوم تعاون وثيق جداً بينهما حتى يمكنهما أن يحظيا بمستقبل أفضل .

والبديل لهذا الوضع هو أن تتمكن الشيوعية من ضم شعوب آسيا وأفريقيا إلى معسكرها ، لا بالمعنى السياسي والعسكري فحسب ، ولكن ، وهذا هو الأمر الأكثر خطورة — أن تتمكن من أن تقر في أذهان هذه الشعوب أن الشيوعية تهيء لها وسيلة الحصول على مستقبل أكثر رخاءاً ، فعندئذ تستطيع هذه الجماهير ، مع العالم الشيوعي الحالي الذي يبلغ تعدادده أكثر من ١٥٠٠ مليون نسمة ، أن تشكل « بروتيتاريا خارجية » ، تمثل أكبر خطر عرفته الحضارة الغربية . وبالإضافة إلى ذلك فإن من المحقق أن تنحالف هذه

« البروليتاريا الخارجية » — تحت قيادة الشيوعية — مع ذلك الجزء من البروليتاريا الداخلية ، بداخل العالم الغربي الذي يقع بدوره تحت إشراف الشيوعية المباشر أو غير المباشر . وليست هناك حضارة سبق أن عرفها العالم ، واجهت مثل هذا التحالف القوى الواسع من الداخل والخارج تحت قيادة واحدة .

### انقسام أوروبا

لم تنشأ أزمة المجتمع الغربي ، شأنها في ذلك شأن أزمت المجتمعات الأخرى في الماضي ، من تحديات خارجية كالتحديين اللذين ألمعنا اليهما فحسب ، بل تنشأ أيضاً من تحد داخل آخر . ويمكن التحدي الأخير في انقسام أوروبا ، ويرجع انحسار السيطرة الأوروبية في المجالات السياسية والاقتصادية والعسكرية — في التحليل النهائي — إلى انعدام وحدتها . ذلك لأن هذه الحروب التي أضرت بالطرفين ، ومزقت القارة القديمة عند بداية القرن الحالى ، قد استنزفت قواها بصفة مؤقتة . وبفرض أن هذه الحروب لم تحدث هذا « النقص » الشامل في القوة العسكرية والاقتصادية والسياسية لأوروبا ، ذلك النقص الذي حدث فعلاً ، فإن خطورتها النسبية — لا ريب — هي أنها جعلت أهمية أوروبا في الميادين العسكرية والاقتصادية والسياسية تتضاءل نتيجة لعملية « انحسار » أوروبا بسبب الوحدات القومية الأكبر التي ظهرت حولها وطمغت عليها ، وهي العملية التي يصفها توينبي في كتابه *Civilization on Trial* بقوله إن الحروب العالمية عجلت فقط بهذه العملية ، وجعلت التناقص في

مكانة أوروبا السابقة أكثر وضوحاً ، لأنها كانت محصورة في ذاكرة جيل واحد فقط .

ولقد أصبحت وحدات أوروبا القومية، باستثناء روسيا ، أصغر من أن تلعب الدور الذي اعتادت الدول الكبرى أن تلعبه في العالم ، أو حتى تصون استقلالها السياسي أو الاقتصادي الفعلي ، وزب قائل : إن دولاً مساحتها كبيرة كمساحة روسيا أو الصين أو الهند أو الولايات المتحدة ظلت قروناً طويلة بغير أن تضر بقيادة الدول الأوروبية الأصغر منها . وتفسير ذلك أن التطور الراهن في الفن الصناعي والمواصلات والدعاية وحكم الجماهير هو الذي مكنها من الاتحاد الفعلي ، ومن أن تنمي اقتصاداً وقوة تتناسب مع حجمها ومواردها وإمكانياتها .

إن انكماش أوروبا بالنسبة إلى بقية العالم ، ليجد دليلاً أكثر وضوحاً هو الاضمحلال النسبي في طاقتها الصناعية ، وهو عامل تعتمد عليه أساساً القوة السياسية والاقتصادية والعسكرية في العالم الراهن . ، ففي عام ١٨٧٠ أنتجت إنجلترا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا وبلجيكا والسويد مجتمعة ٦١ ٪ من الإنتاج الصناعي في العالم ، وفي الفترة ما بين عامي ١٩٣٦ و ١٩٣٨ — وبرغم زيادة إنتاج هذه الدول من ناحية الكم — بلغ نصيب إنتاجها من مجموع الإنتاج العالمي أقل من ٣٠ ٪ ، وفي الفترة ذاتها ازداد نصيب الولايات المتحدة من ٢٣,٣ ٪ إلى ٣٢,٢ ٪ ونصيب روسيا — الذي لم يتجاوز حتى عام ١٩١٣ ٥,٠ ٪ — إلى ١٨,٥ ٪ .

إن الرجعيين وخدمهم هم الذين يأسفون لهضة المناطق غير الأوروبية ، فهم لا يعرفون رداً أحسن من « النواح ، أو محاولة إرجاع عقارب الساعة

إلى الوراء — هذا إذا كانت أيديهم أقوى من عقارب الساعة — ولكن هيهات فإذا كان لدى أوربا فعلاً شيئاً تقدمه ، فإنها تستطيع أن تثبت ذلك بالإقدام على الإصلاح الوحيد الذي يعيد إليها دورها المشهود ، وذلك هو الاتحاد ، إذ ليس هناك أى سبب طبيعي على وجه البسيطة يفسر لماذا لا يستطيع ٣٠٠ مليون أوربي حر ، مع ما هم عليه من عبقرية ذهنية لا تعادلها عبقرية أخرى ، ومهارة فنية ، فضلاً عن امتلاكهم أغنى الموارد المعدنية والإمكانات الصناعية الهائلة . لماذا لا يستطيع هؤلاء أن يحرزوا من جديد مركزاً أعلى كأحد المنتجين العالميين . إنه فقط انقسام اقتصادها الذي يبلغ اثني عشر جزءاً منفصلاً أو أكثر ، هو الذي يعترض طريق الإنتاج الشامل أو الاستهلاك الشامل ، وهذا الانقسام نفسه هو الذي يحول دون دفع عجلة الإنتاج الأوربي بحيث يبلغ نسبة أعلى من الإنتاج العالمي ، وما يصحب ذلك من بلوغ نسبة أعلى ، من رخاء العالم وقوته . وسنعالج في الفصل التالي ، ما إذا كانت أوربا تملك القوة التي تمكنها من مواجهة هذا التحدي ، لأن العقبات التي بينها في هذا الفصل ، بالإضافة إلى التطورات التي ذكرناها في الفصل السابق ، تميل إلى إظهار أن الحضارة الغربية على عتبة ما يعتبره دانييلفسكي وشبنجلر وتوينبي ، مرحلتها الرابعة ، وأنها تواجه أكبر عقبة في حياتها .

غير أن الخروج من هذا بأن الحضارة الغربية قد انتهت وخيمت عليها الكآبة وأصبحت في حكم المقضى عليها بالفناء ، قول لا يعتبر نتيجة محتومة ، فضلاً عن أنه قول يشف عن روح الهزيمة بلامبر ، ولذلك يجب نبذ هذا القول بشدة على أساس الحقائق التي بينها في الفصول السابقة ، كذلك فإن القول بأن طور الدولة العالمية يفتقر إلى العظمة ، لأنه يفتقر إلى الحروب

الدولية ؛ يعتبر ، كما حاولنا أن نبين ، تمييزاً لا يمكن أن ينبع إلا من عقلية رجل عسكري كشينجلر . والقول بأن « الانهيار » الذى يستهل الطور الثالث من المدنية ، معناه أن سقوطها أمر محتوم ؛ إنما هو قول يختلف مع ما يقوله توينبى عن القدر الذى لا مهرب منه ومع الأمثلة التى يضربها . وليس هناك شك فى أن الإمبراطورية الأوغسطينية كانت بداية الطور الأخير للحضارة الرومانية ، ولكنها ظلت تعتبر عدة قرون ، قمة مجدها ، والمثل المتألق للدولة الناجحة الخاضعة لحكم سليم ، وللدولة التى ندر أن يوجد لها شبيه فى التاريخ . . . . . وسواء اعتبرت الإمبراطورية الرومانية والإمبراطورية المصرية الجديدة سحابة صيف أو معبود حضارتهما ، فإن المسألة هى مسألة كلمات فى الأغلب الأعم ، لأن أهميتهما تكمن فى عبقريتهما الابتكارية . وحتى إذا اتبعنا طريقة توينبى فى التفكير ، فليس هناك سبب يجعل هذه العبقرية لا تستطيع ، فى هذه المرحلة المتأخرة ، أن تجد رداً مناسباً على تحدى عصرها ، وتحدث ارتفاعاً جديداً فى الحضارة .

وليس فى استطاعتنا أن نعيد عقارب الساعة إلى الوراء : إلى مجتمع القرون الوسطى الزراعى أو إلى المجتمع الحضري المبكر فى عصر النهضة ، إلا أنه فى استطاعتنا أن نجعل الطور النهائى المقبل لحضارتنا هو أوج حياتها الدينامية المتألقة ، وأن نجعله جديراً بأكثر الأمور التى وجدت فى التاريخ قيمة وسودداً .

وليس ثم سبب يفسر عدم إمكان الرد على التحدى الهائل الذى تميز بيقظة الشعوب التى كانت محرومة من كل امتياز داخل وخارج نطاق الحضارة الغربية ، إذا ما وهب الغرب تصميماً وحيوية كافيين . أما نجاح الرد فعلاً فيتعزز فى آخر الأمر لا بالتفوق فى الإنتاج ولا بالنصر المسلح ، وإنما بالقوة الابتكارية الداخلية الكامنة فى الحضارة الغربية ، أى بقدرتها على أن تقدم للعالم تلك القيم الروحية والسياسية والاقتصادية التى تدفع حتى الدول التى لا تتمتع بأية امتيازات إلى محاولة الوصول إليها طواعية باعتبارها أحسن وسيلة تؤدى إلى خيرها الروحى والمادى .

\* \* \*

إن كل ما ذكرناه يتجه إلى النتيجة الوحيدة التالية وهى : يتوقف مستقبل الحضارة الأوربية على العبقرية الخلاقة التى تمكنها من مواجهة تحديات عصرنا ، فليس مقدراً علينا انهيار عاجل ، وليس من الضرورى أن يكون مكتوباً علينا سلفاً أن نرتفع إلى حضارة أعلى تشمل الكرة الأرضية ، إنما يتوقف مجرى حضارتنا على القوى الكامنة فى أعمالنا . وإذا كان القول الأخير صحيحاً ، فإن ضرورة البحث عن إجابة للسؤال السابق ذكره تصبح أكثر إلحاحاً ، فما مدى قوة القوى الخلاقة الموجوده الآن فى الحضارة الغربية ؟

إنها لمهمة محفوفة بالآخطار أن نحاول عرض مجال العلم الواسع للقوى الخلاقة فى الوقت الحاضر ، فالمجال فسيح جداً فعلاً بحيث لا يستطيع أى عقل بشرى أن يستوعبه ، وبالإضافة إلى أن مصادر البحث العلمى

التي يستطيع الإنسان الاعتماد عليها قليلة العدد فإن الحكم الشخصي يلعب دوراً أكبر كثيراً مما لعبته الاختبارات في الماضي . ومع ذلك ، فإن علينا أن نحاول إيجاد إجابة إذا كنا مصممين على صياغة مستقبلنا على أساس التقدير الواقعي لصلاحيتنا للبقاء . ومن ثم فسنحاول - مع علمنا بقصورنا المحتوم عن بلوغ الهدف - أن نلقى نظرة عابرة على القوى الحية الحالية في حضارتنا . وحينما نفعل ذلك سنحاول مرة أخرى أن نضع ضمن نظرتنا الشاملة ، الصورة التي رسمها الآخرون الأكثر خبرة في مجالهم ، كلها أمكن ذلك .

ولسوف يظل هذا المؤلف معتمداً على تجارب استخلصها بحكم عمله الذي أتاح له أن يعيش بين بعض الشعوب الرئيسية في الغرب ، وأن يلمس دوافعها وهم : الفرنسيون والألمانيون والبريطانيون والهولنديون والبلجيكيون والدانماركيون والأمريكيون ، ولقد دفعه نقص معارفه بأمريكا اللاتينية ، برغمه ، إلى إغفال أية إشارة في كتابه إلى هذه المنطقة التي تلعب دوراً متزايد الأهمية في الحضارة الغربية .

وفي دراسة القوى الموجودة في حضارتنا في الفصول التالية ، لن نبذل أى جهد لإصدار حكم بالجودة أو بالرداءة ، بالجمال أو الدمامة ، لأن ذلك يستحيل على أى كاتب معاصر ، ولهذا ينبغي أن يترك للخلف ، ثم إن ذلك ليس أمراً ضرورياً للغرض الذي وضع من أجله هذا الكتاب . ولذلك يجب أن يقتصر البحث على موضوع مدى قوة القوى الخلاقة الكامنة في الحضارة الغربية ، فالقدرة على إيجاد الثمرة ، لا قياس مذاق هذه الثمرة ، هو غاية دراستنا .

## — ١٠ —

### قوة أوروبا الخلاقة

إن أكثر الأسئلة إلحاحاً وتطلباً للإجابة عند محاولة تقدير قوة أوروبا الخلاقة ، هو : ما إذا كان مهد الحضارة الغربية يتمتع بحيوية كافية للتغلب على التحدى الرئيسى الذى يهدد مستقبلها من الداخل ، أى تفرقها .

#### القوى الخلاقة فى السياسة الأوروبية

إن من دواعى الدهشة والأمل معاً ما يبدو من أن القارة العجوز تعد فعلاً القوة الخلاقة لإتمام هذه المعجزة الوشيكة الحدوث .

وعند الحكم على مدى ما أحرز من تقدم فى هذا المضمار ، يجب ألا نستخدم مقاييس السائح الأمريكى الذى تتنابه الدهشة والضيق بسبب كثرة الحدود التى يعبرها ، والإجراءات الرسمية التى لا عدد لها والتى يتحتم عليه أن يخضع لها حينما يسافر ساعات قليلة عبر أوروبا . ولكى نصل إلى حكم متزن ينبغى أن نستخدم مقياسين : أحدهما مقياس القرون التى أدت إلى الوضع الراهن . ومعنى ذلك أنه يجب علينا أن نقيس مدى التقدم الذى تم فى مدى السبعائة أو الثمئائة أو الألف عام التى تشكلت فيها الأمم الحالية فى أوروبا ، وإذا تأملنا التقدم الذى أحرزناه فى السنوات القليلة التى أعقبت الحرب العالمية الثانية ، على هذا الضوء ، ألفيتاه مدهشاً . ولعل هذا القول يبدو مدهشاً فى حد ذاته بالنسبة للأشخاص الذين أصابهم الغضب بسبب لانعدام النتائج المحسوسة إزاء توحيد برلمانات وتشريعات وتعريفات

جيوش أوروبا .. إلخ ، إلا أن موجزاً مركزاً لما تم يكفي للتدليل على صحة هذا القول .

ولسوف تظل حكومات هولندا وبلجيكا ولوكسمبرج التي كانت في المنفى بلندن أثناء الحرب العالمية الثانية موضع التقدير التاريخي ، لأنها أرست الأسس للمحاولات العملية الأولى للوحدة التي تمت بعد ذلك في أوروبا ، ونعني بها اتحاد البنولكس الاقتصادي الذي قامت عقبات كثيرة أمام إنشائه لم يزل بعضها قائماً لم يتغلب عليه ، ولكنه سيظل أول عمل صلب منذ الحرب العالمية الثانية نحو التكامل الاقتصادي والسياسي لدول ظلت تدير كل منها في طريقها الخاص منذ ٣٥٠ عاماً ، باستثناء فترة واحدة مدتها خمسون عاماً .

ويعتبر الاتحاد الغربي الذي أبرم بين فرنسا وبريطانيا العظمى ودول البنولكس في عام ١٩٤٨ محاولة أخرى في هذا السبيل ، ومع أن نتائجه لم تصبح محسوسة بعد ، كما أنه أثار خيبة الرجا بسبب إخفاقه في محاولة إنشاء نظام للدفاع المشترك عن غرب أوروبا ، إلا أنه — حتى بفرض ما ثبت من أنه ليس أكثر من مجرد سلم يؤدي إلى إنشاء تحالف أكبر لشمال الأطلسنطي — سيظل محتفظاً بأهميته التاريخية باعتباره واحداً من الأدلة الأولى المحسوسة على تصميم أوروبا الغربية على بلوغ تكامل أوثق .

وكانت الخطوة التالية ، وهي إنشاء المجلس الأوروبي ، ذات أهمية أكبر ، ولكن نتائجها المحسوسة إزاء التوحيد لم تزل بعد محدودة ، إلا أنها أكثر أهمية من أي من الظواهر الأخرى ، لأن هذا المجلس الأوروبي ينبع بوضوح

من الدافع القوى تجاه توحيد الدول الأوروبية نفسها بقدر ما تستطيع التعبير عن مشاعرها بحرية... ومع أن دور المجلس الاستشارى استشارى محض ، إلا أنه هيئة ديناميكية تتمتع - بفضل الضغط الذى تمارسه - بالقدرة الفعلية على التأثير الدائم على حكومات أوروبا سواء أرادت أو لم ترد ، لكي تتقدم بسرعة أكثر على الطريق إلى التكامل .

ولقد واجه مشروع لجنة الدفاع الأوربي اعتراضات جديدة ، كثيرة فى الأصل ، مما أدى إلى إدخال تغييرات كثيرة عليه قبل إقراره ، إلا أنه ليس هناك من يستطيع أن ينكر أن اللجنة كانت خطوة نحو الدفاع عن أوروبا الغربية ؛ خطوة تتصف بالجرأة وبعد النظر الذى يتناسب مع ضخامة المشكلة ، وأخيرا قامت الدول المعنية بأداء أشق المهام الرئيسية : وهى إنشاء سلطة أوروبية عليا سوف تتوج فى أحد الأيام هيئة أوروبا المتكاملة . والتاريخ وحده هو الذى يستطيع أن يبين إلى أى مدى ستستطيع هذه الهيئات أن تحقق دفاعاً كافياً ، ووحدة سياسية كافية . أما ما يعنيننا هنا فهو أن زعماء أوروبا قدموا خططا حاسمة يجرى تطبيقها لمواجهة تحدى التفرقة الأوروبية .

ولن يكون لتوحيد أوروبا أهمية تذكر إذا تم تحت ضغط الولايات المتحدة . فبالعكس ، قد تكون هذه الوحدة عرضة آنذاك لأن تكون مجرد إقليم تابع للولايات المتحدة فيما وراء البحار . . . . إن النتائج السالفة الذكر ، والعمل الدائب نحو التوحيد الذى يقوم به كبار السياسة الأوروبيين أمثال بريان وتشرشل وسباك وستيكر وشومان وموليه وإديناور ، دليل واضح - إذا احتاج الأمر لدليل - على حاجة أوروبا الملحة للوحدة الأعظم ،

ولقد برزت هذه الحاجة أو هذا الدافع كقوة حية دينامية في السياسة الأوروبية بعد الحرب العالمية الثانية ، وهكذا فإن «أوروبا جديدة» توشك على الولادة ، وتلك أوضح علامة على حيوية أوروبا اليوم ، وأقوى أساس للتنبؤ بأنها ستتمكن من الرد بنجاح على التحدى الذى تواجهه .

أما الأشكال التى سيتجسد فيها هذا الدافع أخيراً ، فأمر ثانوى ، لأن معظم الأجهزة التى شكلت حتى الآن ، كانت قليلة الإنتاج ، فما زال هناك رمل كثير وزيت قليل فى التروس ، كما أن الدافع أو الحافز الكامن خلفها لا يزال ضئيلاً جداً . ولسكن مهما يكن من الأمر ، فإن ذلك لا يستحق اهتماماً عاجلاً مادامت العملية سريعة بدرجة تكفى لمواجهة مقتضيات العصر . إلا أن ذلك ليس هو الوضع ، مع الأسف .

ويقودنا ذلك إلى المقياس الثانى الذى ينبغى استخدامه لقياس مدى تقدم التكامل الأوروبى : إنه صلاحية هذا المقياس لحل مشكلات أوروبا الحالية .

وإذا استخدمنا هذا المقياس ، لبدا أنه ليس فى الإمكان إنكار أن التقدم الذى أحرز لا يزال غير كاف . فإذا استمر على معدله الحالى ، فسوف تنقضى عدة أعوام قبل أن يتحقق نظام الدفاع عن أوروبا المتحدة ، وسوف تنقضى عدة حقب قبل أن توجد سوق أوروبية ذات مجال يساعد المنتجين الأوروبيين على أن ينافسوا ، بنجاح ، أولئك الذين يسعون وراء الأسواق الواسعة كالولايات المتحدة والهند وروسيا والصين ، إلا أن الوقت لم يحن بعد للتأكد من أن أوروبا ستتمكن من التقاط أنفاسها قبل أن تسبقها الدول الجبارة .

المحيطة بها على نحو لا يمكن البرء منه ... إن الوقت ضيق ، فإذا لم تصل هذه الدول إلى درجة كافية من التكامل في الوقت الذي يحول دون تدمير دول أوروبا الغربية مرة أخرى بالحرب واحتلالها ، فلسوف تصبح أوروبا الغربية موضع الإعجاب في المستقبل بسبب تاريخها وآثارها وأطلالها، ولكنها ستندثر كعامل كبير في العالم ، وحيثئذ سوف تشارك اليونان في مصيرها ، فقد أدى انقسام اليونان وتفرقها إلى سقوطها فريسة في براثن دول أعظم هي ، على التعاقب ، دولة فيلب المقدوني ، والإسكندر الأكبر ، وروما ، وبيزنطة . ومع أن إشعاعها الثقافي أضاء تلك الدول قرونا تالية ، فإن اليونان نفسها زالت ولم تعد ذات قيمة كعامل عالمي وكصدر خلاق .

### القوى الخفية في الاقتصاد الأوروبي

عندما انتهت الحرب العالمية الثانية في أوروبا في شهر مايو ١٩٤٥ ، خفض الإنتاج الصناعي لدول أوروبا الخاضعة لمشروع مارشال إلى حوالي نصف ما كان عليه قبل الحرب . وبعد قرابة سبع سنوات ، وفي العيد الرابع لمشروع الإنعاش الأوروبي ، زاد الإنتاج الصناعي في معظم دول غرب أوروبا إلى حوالي ١٥٠ ٪ مما كان عليه قبل الحرب ، وزاد الإنتاج الزراعي إلى ١٠٩ ٪ . وليس من شك في أن هذه الأرقام المتنامية البساطة أفصح إجابة على السؤال التالي : ما مدى الحيوية الباقية في حياة أوروبا الاقتصادية ؟

لم يكن من المستطاع حدوث هذا البعث الاقتصادي بغير المنبه الذي قدمته مساعدة مشروع مارشال . ومع ذلك ، لم يكن من المستطاع أيضا

حدوثة بغير أن تبذل الدول الأوروبية ذاتها الجهود والنشاط اللازمين لذلك كما أثبتت النتائج الأبعد ، عن الارتياح ، التي تمنحنت عنها المساعدات المماثلة التي قدمت لبعض الدول الأخرى . فقد تبين أن الجهد الذي بذلته أوروبا فاق كل ما يتوقعه واضعو مشروع مارشال ، نظراً لأنه أمكن الوصول إلى عدد من أهدافه في مدى ثلاث سنوات بدلاً من أربع سنوات ، كما كان مرتقباً . ويبدو أنه افتراض معقول ، أن نقول إن هدف مشروع مارشال من إعادة التوازن الاقتصادي في عام ١٩٥٢ كان من الممكن أن يتحقق في كثير من دول أوروبا لولا أحداث كوريا التي أطاحت بتوازنها التجاري . ومع ذلك ، فإذا سمحنا بتجاوز مناسب لما أحدثته نتائج الحرب الكورية فمن الواضح أن الاقتصاد الأوروبي لم يصل بعد إلى درجة كافية من الانتعاش ، فإن الإنتاج الأعلى لا يمكن أن يكون حلاً لمشكلات أوروبا الاقتصادية ، نظراً لأن هذه المشكلات وليدة التدمير الحربي المربع المصدر ، أي : فقدان المناطق الموجودة فيما وراء البحار ، وزيادة المنافسة الصناعية في القارات الأخرى ، ونقص التجارة بين الشرق والغرب ، وضيق الأسواق في أوروبا . ومن ثم فإن إيجاد سوق واحد فقط يضم — على الأقل — أوروبا الغربية ، وتطوير الإنتاج بالجملة ، يمكن أن يضع أوروبا في مركز المنافسة لمناطق أخرى ، ويصون مستوى معيشتها ويرفعه .

إن محاولات « وظيفية » تبذل في ميادين عديدة لتحقيق تكامل الاقتصاد الأوروبي ، مع أنها قد لا تبدو ملبوسة وأساسية على النحو الذي يتوق إليه المرء ، فإن كل محاولة منها تبدو ، في ميدانها ، عملاً خارقاً ، لأنها يجب أساساً أن تقلب رأساً على عقب في سنوات قليلة ما أمكن بلوغه خلال عدة قرون .

ولقد تحققت حتى الآن محاولتان من هذا النوع في المجال الاقتصادي ، هما اتحاد المدفوعات الأوروبية ، ومشروع شومان . والمشروع الأخير ، على الأخص ، يضم صناعات الصلب والفحم في فرنسا وألمانيا وإيطاليا وهولندا وبلجيكا ولوكسمبرج ، ويعتبر خطوة ذات أهمية تاريخية قصوى لم يكن أحد يتصور إمكان تحقيقها قبل الحرب العالمية الثانية . وبعد أن مزجت النتائج السياسية والاقتصادية البعيدة المدى بعضها ببعض ، واندفعت نحو ما كان يعتبر قلب النزاع الأوروبي لما لا يقل عن قرن ، وهو : المنافسة بين صناعات الفحم والصلب في فرنسا وألمانيا ، وكان لا بد من التغلب على صعاب كبيرة ، ومعارضة قوية ، واستمرت المفاوضات المعقدة عاما كاملا ؛ ولكن روح أوروبا الخلاقة خرجت ظافرة ، وما لبثت المشكلة التالية ، أي مشكلة تكامل أوروبا الزراعي ، أن طرحت على بساط البحث وأمكن التوصل إلى حل لها .

وهكذا ، فلو أن التقدم الذي أحرز في النواحي الاقتصادية ، كما هي الحال في النواحي السياسية ، لم يكن كافياً لتحقيق التكامل ، والإنتاج الجماعي المطلوب ، إلا أننا نستطيع أن نستخلص أن أوروبا أبدت قوة شافية كافية لاستعادة رخائها السابق ، وحيوية كافية لإدراك الأساليب الضرورية لتكامل أوروبا .

### قوة المعمار الأوروبي المرفقة

أبدت أوروبا أنها قادرة على أن تنتج ، في بعض ميادين الفن ، أشكالا أو طرزا جديدة ، ذات قيمة دائمة ، وهذا واضح بصفة خاصة في ثلاثة

مجالات هي : فن المعمار ، والأفلام ، والموسيقى .  
لقد امتاز نهوض حضارتنا في مدن شمال إيطاليا في عهد النهضة ، بين ما تميز به ، بظهور مدرسة الرسم التي قد يكون لها مثيل ، ولكن ليس هناك ما يفوقها . فإذا نظر الإنسان بعين الاعتبار إلى صغر حجم هذه المدن ، فإن عدد الأساتذة الكبار الذين أنجبته في وقت قصير يدعو لبالغ الدهشة حقاً ، وتعتبر هذه الانطلاقات للقوة الخلاقة في ميدان معين ، أوضح علامة على حياة الحضارة .

وبنفس الطريقة انبثق أسلوب معماري جديد تماماً في أوروبا في النصف الأول من القرن الحالى ، فمن شبكة الخطوط غير المنسجمة والموضوعات المقلدة ، ظهر الخط المستقيم ومبدأ الوظيفة كأسلوب معبر عن عصرنا ، وهو جرىء في الفكرة وينطوى على خلق جديد حقاً ، وهو تعبير قوى عن الحيوية مثلما كان الطراز الدورى أو القوطى ، وشأنه شأن أى طراز آخر ، عرف - بالطبع - التشويه والمبالغة ، إلا أنه ليس هناك أدنى شك في أن الأحياء الحديثة بأستردام وستوكهولم وبرلين وهامبورج ومدن أوربية كثيرة أخرى ، وأبنية مثل مباني البلدية بستوكهولم وأوسلو وهلفرسوم ستدخل في نطاق الأعمال المبتكرة العظيمة في الثقافة الغربية ، ومن خصائصها أنها ليست مجرد إنتاج قناتين أفراد ، أنشئ نتيجة لأمر أصدره فرد واحد . بالعكس ، إنها تجد تعبيراً أصيلاً عنها في الأبنية المعدة للاستعمال الجماعى كالمكاتب والمباني السكنية للعالم والمصانع والمدارس والأبنية العامة وكلها تعكس ، بأمانته ، تفوق الجماهير . ولم يجمد هذا الأسلوب الجديد في شكل تكرار مجرد من الإلهام والحياة . وبرغم أنه انتشر في العالم الغربى كله باعتباره النمط

الدولى لسنوات العقد الثالث من هذا القرن ، فقد تفرع أيضاً فى شكل تنوع مدارس المناطق أو الجماعات كمدارس امستردام وستوكهولم وفينا .

وإذا صح ما قاله « بيركهاردت Burckhardt » ، من أن طبائع الأمم والثقافات والفترات التاريخية تتكلم على لسان فنها المعمارى ، فمن المحقق أن أحياء الفن المعمارى الأوربى فى القرن العشرين دليل قوى على قوة أوربا .

### القوى المخترقة فى صناعة السينما الأوربية

إن الفيلم وإن كان يعتبر شكلاً فنياً أسرع زوالاً من غيره ، إلا أنه اختبار هام لقوى حضارتنا الثقافية ، وذلك ، على وجه التحديد ، لأنه الشكل النموذجى للفن والتسلية الجماعية فى عصرنا .

فليس هناك شكل من أشكال الفن يحتاج إلى مثل هذا التكديس لرأس المال والمعدات المادية ومثل هذا الخليط من الفن والإنتاج الفنى الصناعى الذى يطلق عليه صناعة الفيلم . ولقد كانت الاستديوهات الأوربية تعاني من نقص الامتياز فى هذين المضمارين بالمقارنة بهوليوود ، ومع ذلك فمنذ البداية تقريباً ظلت عدة صناعات أفلام أوربية تنتج أفلاماً متفوقة بصفة مستمرة .

ويرجع ذلك إلى الأيام الأولى من صناعة الفيلم الصامت ، عندما أنتج الألمانىون فيلمهم العظيم الممتاز « Nibelungen » ( وهو فيلم يقوم على أسطورة قديمة ) ، وتبعته أفلام عظيمة كثيرة إلى أن أجبرت صناعة الفيلم الألمانى .

على الخضوع للنازيين ، فقدت أصالتها ، غير أنها أخذت تستعيد الآن ماضيها .

أما صناعة الفيلم البريطاني فتتج ، بثبات ، أفلاماً على مستوى عال ، ومهما يكن من الأمر فربما كان أكثر أعمالها بروزاً ما أنتجته خلال الحرب العالمية الثانية وبعدها عندما كان رأس المال والأيدي العاملة في مدهما الأعلى ، ونجحت أكثر في رفع مستواه حتى استحوذت على اهتمام الجمهور الأمريكي ، ولم تخرج درر المواهب الفنية من أمثال نويل كوارد وسومرست موم ، وإنما أخرجت أيضاً المسرحيات الكبرى الناجحة مثل هاملت ، والأحذية الحمراء ، وقصص هوفمان .

وينطبق الشيء ذاته على تحف إيطاليا بعد الحرب ، التي عرضت فترات طويلة في أوروبا وأمريكا ، مثل (المدينة المفتوحة) ، و(بريق الحذاء) ، و(سارق الدراجات) ، و(الأرز المر) ، و(عجزة في ميلانو) .

كذلك بلغ الفيلم الفرنسي مستويات لم يتفوق عليه فيها أحد سواء في التصوير أو التمثيل أو الإخراج ، فحقق نجاحاً بارزاً في أفلام مثل : بطاقة دي بال ، وأطفال الفردوس ، وسيمفونية الراعي ، والشيطان في الجسد ، والدائرة . وينبغي أن نضيف إلى ذلك أفلام ما قبل الحرب الفرنسية والإيطالية التي تغلب عليها دائماً الواقعية ، ومسحة الحزن والسخرية وعدم الإيمان ، وهي صفات لا تدل بالضبط على الحضارة . ولكن ذلك لا يبدل على كل حال من حقيقة أن إنتاج الفيلم الأوربي نجح ، برغم افتقاره إلى الموارد المالية والمادية ، وضمان السوق الجماعي والمواهب المتوافرة في هوليوود ، فنقول إنه نجح في إنتاج أفلام على مستوى أعلى وغالباً لا تبارى في قوة إبداعها .

## القوى الخفية في الموسيقى الأوربية

إن التمييز بين حصيلة أوروبا وحصيلة أمريكا من الموسيقى ، من الصعوبة بمكان ، لأن الموسيقى أكثر عرضة للمؤثرات العالمية ، وقد تنقل منشآت الموسيقى ومفسروها ، في العقود الأخيرة ، بين القارتين أكثر من أية جماعة أخرى من الفنانين ، وعلى كل حال ، إذا أجرينا تفرقة ، فإننا إنما نفعل ذلك لمجرد اختبار الخصوبة الثقافية في قارتي العالم الغربي .

لقد وصل عشرات من الملحنين إلى المقدمة في أوروبا أثناء العقود الأخيرة فهناك ميلود Milhaud وبولنك Poulenc بفرنسا ، وهونجر Honegger بسويسرا ، وسيلوس Sibelius بفنلندا ، ومالبيورو Malipiero وبيزتي Pizzetti بإيطاليا ، وفوخان وليامز Vaughan Williams وبرتين Britten بإنجلترا ، وهم بعض الأسماء المشهورة بينهم . ولقد عمل كثيرون آخرون ممن ولدوا وتعلموا في أوروبا ، عملوا بأمريكا ، ومنهم : بول هينديميث Paul Hindemith وأرنست كرينك Ernest krenek وإيجور سترافنسكي Igor Stravinsky والمرحوم أرنولد شوينبرج Arnold Schonberg ، وبيلا بارتوك Bela Bartok . ويكفي ذكر هذه الأسماء للبرهنة على النشاط الخلاق للموسيقى الأوربية في عصر الحروب العالمية .

وفي إنشاد الموسيقى أيضا — إذا كان لذلك ثمة تأثير على درجة حيوية الحضارة — مازالت أوروبا تتمتع بمركز الزعامة ، وهي مازالت بعد خصبة

مثلاً كانت دائماً ، في إنتاج العازفين الأفراد ، وقواد الفرق الموسيقية ، ومع أن فرق بوشطن ونيويورك وفيلادلفيا الموسيقية لا تكاد تبارى في أى مكان آخر ، إلا أن جميع العازفين الأفراد وقواد الفرق الحاليين تقريباً من مواليد أوروبا بما فيها روسيا .

إلا أن ذلك لا يعنى مجال أن الحياة الموسيقية ليست مزدهرة في الولايات المتحدة، ولكنه يدل على أن غالبية عظماء كتاب الموسيقى ومفسريها في عصرنا كانوا أبناء أوروبا ، كما أنه دليل على خصوبة أوروبا الثقافية .

## - ١١ -

### قوة أمريكا الابتكارية

قد يبدو لأي شخص يعرف الولايات المتحدة أن من تحصيل الحاصل إثبات حيوية الشعب الأمريكي ، تماماً كما يبدو أن من تحصيل الحاصل إثبات نشاط ثور عمره عامان . ولا تقتصر خطى هذا الشعب على حركة سيره ، وإنما تشمل حياته اليومية ، وديناميكيته ، وخواصه العامة كشعب وكأفراد ، وشدة انفعالات أمريكا وقوة مشاعرها ، ونمو مشروعاتها الاقتصادية الخيالي ، ونهضة عظمائها الرائعة في الحياتين الخاصة والعامة .. كل هذا واضح جداً حتى لأكثر المراقبين سطحية ، بحيث يبدو أن الإستزاده من البحث إنما هي مسألة لا ضرورة لها بالنسبة لمن يتحسس نبض الحياة الأمريكية .

ولكن هذه المظاهر الخارجية لا تكفي لتحقيق أغراضنا : فقد نخدعنا ، وقد نكون مجرد علامة على سيطرة الإنسان الخارجية على الطبيعة دون وجود قوة داخلية خلاقة تجعلها خاضعة لهدف معين ، ومن ثم دعنا نبحث عن ميادين يبدى فيها العقل الأمريكي قدرته الحقيقية على الإبداع .

### القوة المخترقة للفن الصناعي الأمريكي

ولدت أمريكا كدولة مستقلة في وقت واحد مع الآلة البخارية ، وسارت حياة أمريكا ، ونموها جنباً إلى جنب مع حياة الآلة البخارية ونموها ، وتعتمد عليها

قوتها الخالية ورخاؤها ، في التحليل الأخير . كما أن نفوذها ينتشر في جميع أرجاء العالم على عجلات الآلات .

في هذا الميدان قبل كل شيء أظهرت أمريكا عبقريةً خلّاقةً .

ويقول المؤلف الأمريكي جيمس بيرنهام : « إن الولايات المتحدة فاضحة في مجال واحد فقط هو تطور فن الإنتاج . ولا يدرك الأمريكيون أنفسهم مدى تفوقهم الذي لا يبارى في هذا المجال ، فليس هناك ، ولم يكن هناك في يوم من الأيام شيء يداني أساليب الإنتاج الأمريكي . ولا يمكن سر تفوق أمريكا في الآلات نفسها ، نظراً لأن إنجلترا وألمانيا ، وربما السويد وسويسرا تفوقت عليها ، وإنما يرجع إلى الموهبة والقدرة ، التي تسكاد تصبح الآن صفة قومية تدل على تنظيم الإنتاج على نطاق واسع ، .

ويستطرد المؤلف فيبين أنه حتى في اكتشاف القنبلة الذرية مثلاً ، لم يجر الأمريكيون أى بحث من الأبحاث الأساسية ولكن تلك القوة الابتكارية التي تتمتع بها الولايات المتحدة عبرت عن نفسها في إنشاء العملية الهائلة اللازمة للإنتاج .

هذا وتبدو الحضارة التكنولوجية ، مستحيلة في نظر الأشخاص الذين يعتبرون الفن الصناعي ، التكنولوجيا ، موتاً لكل الحضارات ، إلا أنه ليست هناك ضرورة لذلك ، لأن التقدم التكنولوجي إنتاج عقلي شبيه بأى تقدم علمي في المجالات العلمية ، ويعتمد تطبيقه على نشاط الإنسان ولو ذعيته ، ويعتبر أسلوب مصانع هنري فورد في الإنتاج المستمر كما يعتبر استمرار تدفق التوزيع الكيماوي ، وملايين الاختراعات الصغيرة والكبيرة أيضاً التي

دخلت في عمليات الإنتاج الجماعي العصرية - تعتبر هذه كلها بمثابة التعبير الخلاق للعقل البشرى ، وبمثابة إسهام فى الحضارة كمنظرية فيثاغورس . هذا ويتطلب تطبيقها تخطيطاً له هدف وغاية ، ونشاطاً لا يقل عما استلزمه بناء الأهرامات أو برج بابل .

وليس معنى ذلك أن التقدم التكنولوجى هو الحل الملائم لمشكلات العالم كما يظن البعض ، فقد بين توينبى أن بسط السيطرة على المناطق المحيطة ليس فى حد ذاته علامة على نمو الحضارة ، بل على العكس قد يجعل الإنسان عبداً للأساليب بدلاً من أن يكون سيدها ، ويجعل من الفن الصناعى غاية فى ذاته ، بدلاً من أن يكون وسيلة لغاية ، بيد أن الأمر الذى يهمنى الآن هو ما إذا كان التأكيد الهائل فى الاختراعات والعمليات والتنظيم يشكل الدليل على القدرة الخلاقة فى أمريكا . . . وهنا يجب أن يكون الرد « نعم ، بالنسبة لآى شخص لا يكون حكمه خاضعاً لتحيز عميق الجذور ضد ما يسمى « المادية الأمريكية » .

إن نظام الإنتاج الذى أوجد وضعاً يقضى بأن تنتج دولة تعدادها ٧٠٪ من سكان العالم ، ما يقرب من ثلث السلع والخدمات فى العالم ، وإن تقدم المساعدات والتأييد لحوالى ستين دولة ، كل هذا يجب ألا نخط من شأنه الآن باعتباره إنجازاً لقوة بشرية خلاقة وإسهاماً فى الحضارة .

## القوى الخفية في السياسة الأمريكية

عند البحث عن أعمال خلاقة في السياسة الأمريكية ، يبدو من الضروري التخلي من البداية عن فكرة واحدة قد تقرأ على ذهن كثير من الأمريكيين كعمل أمريكي نموذجي ، فإن الأمريكي العادي يجب أن يفكر في الديمقراطية على أساس أنها اختراع أمريكي ، ولكن الواقع ليس كذلك ، لأن الديمقراطية ، كنظام للحكم يستمد سلطته النهائية من إرادة الشعب ، قديمة قديم المجتمع المنظم ، ولكنها ترجع فعلاً في حضارتنا الغربية إلى وقت طويل سابق على عبور كولومبس للمحيط الأطلسي .

كذلك لا يمكن أن يقال إن أمريكا طورت نظاماً للحكم خاصاً بها ، يشبه الإسهام العظيم في الحضارة من جانب روما وبريطانيا . وليس في ذلك ما يدعو للدهشة ، نظراً لأن النشاط الأمريكي الرئيسي ظل ، ردحاً طويلاً من الزمن ، مركزاً في حراسة الحدود ، وتوسيع رقعة البلاد ، واستغلال الموارد الهائلة . وحتى السنوات الثلاثينية ، كانت الحكومة تعتبر شراً لا بد منه ، وخلبة يستطيع المتنافسون الاقتصاديون أن يضرب كل منهم الآخر بالضربة القاضية فوقها في قتال حر ، ولم تبدأ الحكومة القيام بدورها في الولايات المتحدة . مثلما قامت به الحكومات الأخرى فترة من الوقت في الدول الأخوى ، إلا حينما دهمتها الأزمة المالية الطاحنة وما اقترن بها من كساد . ومن ثم ، لا يمكن أن يقال إن لدى أمريكا ديمقراطية متأصلة كرسَتْ نفسها لفن الحكم بصفة خاصة ، ومن قصر النظر أيضاً أن نستخلص أن الشعب الأمريكي لم يظهر أية كفاية خلاقة في مجال فن الحكم .

وفي هذا الصدد، يقال إن أكثر إسهامات أمريكا قيمة، لا يمكن في اختراع أى مبدأ أو نظام جديد ، وإنما يمكن في التطبيق الناجع لنظامين هامين هما النظام الفيدرالى، والنظام الديمقراطى فى ظروف جديدة، وعلى نطاق لم يعرف من قبل .

### النظام الفيدرالى :

إذا كانت أشكال الحكومة الفيدرالية قد طبقت من قبل فى بعض الدول الأوربية ، فإن هذه التطبيقات بقيت بداخل حدود أصغر كثيراً من ناحيتى الرقعة والزمن ، وقد بدىء بتنفيذ هذا النظام فى الولايات المتحدة منذ أكثر من مائة وستين عاماً فى منطقة تبلغ مساحتها مساحة قارة ، ومع ذلك فإن المبدأ لا يزال ثابت الجذور ، كما كان دائماً فى التقاليد الأمريكية منذ كانت ، ولو أن هناك زيادة ملحوظة فى سلطات الحكومة الفيدرالية .

وتدين الولايات المتحدة بفوائد كثيرة لتطبيق هذا النظام ، فبطريق موازنة توزيع السلطات الخولة والمحتفظ بها، أمكنت إدارة دولة عرضها ثلاثة آلاف ميل بكفاية ، وبغير الإضرار بالمصلحة المباشرة للمواطن الفرد فى الحكم والشئون العامة ، وحال ذلك دون سيطرة أية ولاية على أخرى أو سيطرة الاتحاد نفسه على أية ولاية ، ذلك لأنه جعل فى الامكان إيجاد التنوع الذى تتخلله درجة كافية من الوحدة .

وفى عصرنا ، الذى يتسم بالنمو تجاه قيام وحدات أكبر ، ويعتبر فيه الشكل الوثيق من التعاون فى أوربا وبين شعوب شمال الأطلنطى، بمثابة شرط لبقاء الغرب ، تتخذ فوائد هذا النظام الفيدرالى دلالة جديدة مادام

النظام قد أعد بإحكام لتجنب عدد من العثرات القادمة ، إلا أن ذلك لا يعنى بالضرورة أنه يجب تطبيق هذا النظام فى حالات أخرى بنفس الطريقة التى طبق بها فى الولايات المتحدة .

### التحول من الديمقراطية البورجوازية إلى الديمقراطية الجماعية :

ما لا يمكن إنكاره أن هناك اختلافاً معيناً بين الديمقراطية الأمريكية وديمقراطيات غرب أوروبا الأقدم عهداً ، وليس من السهل تعريف هذا الاختلاف ، ولكنه يشكل مساهمة أمريكا المحددة فى قضية الديمقراطية ، ولعل أحسن تعبير له هو « أن أمريكا نجحت فى مواءمة الديمقراطية لمطالب الحكم الشعبى » .

إن الثورتين الأمريكية والفرنسية وإن قامتا على مبدأ واحد هو أن جميع الناس ولدوا متساوين وجديرين بالحياة والحرية والسعادة ( الحرية والإخاء والمساواة ) إلا أنهما لم تكونا من طراز ثورات الجماعات الشعبية أو ثورات الرجل العادى .. لقد كانت كل منهما ، بحسب التعبير الاجتماعى ، حركات ضرورية أوجدتها طبقة الملاك الوسطى ، أى البورجوازية ، مثل ملاك الأراضى فى فرنسا الذين ثاروا ضد الحكم الإنجليزى الاستبدادى الذى لم يكن يسمح لهم بالإسهام فى الشؤون العامة ، وهو ما كانوا يعتبرونه حقاً من حقوقهم . ومنذ منتصف القرن التاسع عشر فقط وما بعده بدأت الحقوق السياسية والاقتصادية تنتشر تدريجياً ، فى وجه معارضة البورجوازية فى الغالب ، حتى شملت كل رجل وامرأة ، ثم شملت الجماهير كلها . إنه الامتداد الناجح لمفهوم الديمقراطية المحدود فى القرن الثامن عشر حتى يشمل

ديمقراطية الرجل العادى فى القرن العشرين الذى يرى أن إسهام الأمريكين  
الفعلى يكمن فى ميدان السياسة الداخلية . ولقد أوجدت أمريكا - عن  
طريق التطور السلبى غير الملحوظ فى أغلب الأحوال - التحول الثورى من  
الديمقراطية البورجوازية إلى الديمقراطية الجماعية التى حاولت الشيوعية  
تحقيقها باستئصال شأفة الطبقات البورجوازية . ومن ثم استطاعت أمريكا  
مواءمة نظام الحكم - مع الاحتفاظ باسمه وجوهرياته - برفق  
ونجاح مع الأحوال والاحتياجات المتغيرة بالضرورة . وهكذا واجه  
الأمريكيون ، تحدى الظروف الجديدة .

وتحققت مصلحة المواطن الأمريكى العادى الوثيقة الصلة بشئون بلده  
العامة عن طريق نظام تعليم يهدف بصفة خاصة إلى هذه النتيجة من ناحية ،  
ومن خلال نشر الأنباء والآراء على نطاق واسع لم يسبق له مثيل من ناحية  
أخرى . . . إن وسائل النشر والإعلام الأمريكية تكرر جزءاً كبيراً من  
الإهتمام يفوق ما تكرسه الدول الأوربية ، للتعليق على الأنباء ومناقشتها ،  
حتى تساعد الجمهور على تكوين الأحكام ، فهناك اللوحات والندوات  
والمناقشات والأحاديث الموجهة إلى ربّات البيوت ، والحدائق ، وأندية  
المدينين ورجال الأعمال . . . إلخ ، وكلها تلعب دوراً هاماً فى الحياة  
العامة . وهناك عدد قليل من الأوربيين يتحيزون ضد أمريكا لرسوخ  
الفكرة الشائعة القائلة بأن المعلومات التى تصل إلى الجمهور الأمريكى أقل  
تفصيلاً من تلك التى تصل إلى الجمهور الأوروبى . إلا أنه ليس هناك جمهور ،  
كالجمهور الأمريكى يستدرج إلى الإسهام فى الموضوعات العامة الهامة ،  
فيناقشها على نطاق واسع ويقتلها بحثاً .

ومن الإسهامات الملحوظة التي قدمتها أمريكا في هذا المجال تشجيعها لكتاب المقالات الصحفية ، فهذه المقالات يكتبها الثقات في الشؤون العامة وتنشرها عشرات الصحف يومياً ؛ وهي مستقلة عن رأى الصحيفة الخاص .

### السياسة الخارجية :

وبالإضافة إلى هذه الإسهامات الإنشائية في وسائل الديمقراطية الجماعية ، قدم الشعب الأمريكي أيضاً الدليل على قوته وسعة بواعه في مجال السياسة الخارجية ، ولعل هذا القول يبدو مثيراً للغرابة ، نظراً لأن السياسة الخارجية الأمريكية معرضة دائماً للنقد سواء داخل أمريكا أو خارجها .

إلا أنه يجدر بنا أن نعود إلى التأكيد بأنه لما كانت غايتنا هي تحديد حيوية أو تدهور حضارتنا ، فإننا لن نقيم وزناً لبعض القرارات السياسية المعينة التي اتخذتها الولايات المتحدة ، أو دقة الوسائل المستخدمة ، وإنما سنهتم بدناميكية السياسة الأمريكية الخارجية ومواءمتها للظروف الجديدة التي تشهدها ؛ فحتى أشد الناقدين قسوة على السياسة الخارجية الأمريكية لا يملك إلا أن يعترف بأن هذه الصفات الديناميكية لم تكن معدومة منذ بدأت الولايات المتحدة تتخلى عن العزلة في السنوات الثلاثينية ، ومنذ دخلت حلبة السياسة العالمية .

إن في الإمكان العثور على أوضح دليل على المواءمة ، إذا عاد الإنسان بذاكرته إلى خمسة عشر عاماً خلت وعرف كيف أن الغالبية الساحقة من الشعب الأمريكي تتمسك بشعار « لا يجب ألا نتدخل في الشؤون الأجنبية » ، فحتى فرانكلين روزفلت ، الذي لا يستطيع أحد أن يتهمة بالعزلة ،

شعر — في أعوام ١٩٣٤ ، ١٩٣٥ ، ١٩٣٦ ، بل في عام ١٩٣٩ — بأنه من الضروري أن ينادى ، في تصريحاته العامة ، بعدم التورط وعدم التدخل والحياد حين قال : « إن أبناءكم لن يرسلوا للاشتراك في الحروب الأجنبية » . أما اليوم فإن الجنود الأمريكيين ، تؤيدهم الأغلبية الساحقة من الشعب تقف في أوروبا والفيليبين واليابان وكوريا ، ولن يكون هناك دليل أكثر وضوحاً من ذلك على هذا التغير الأساسي في موقف أمريكا ، فلو أن أى أمريكى تنبأ في عام ١٩٣٥ بأن تلك ستكون السياسة الأمريكية الخارجية بعد خمسة عشر عاماً استخر الجميع منه ، إن لم يفعلوا ما هو أكثر من السخرية . وبالمثل فإن القرارات الرئيسية التي اتخذت بعد الحرب في السياسة الأمريكية الخارجية مثل « مشروع مارشال لمساعدة أوروبا » ، وبرنامج ترومان بالنسبة لليونان وتركيا ، والجسر الجوي لفك حصار برلين ، وبرنامج النقطة الرابعة ، والقرار المفاجيء الذي اتخذ لمساعدة كوريا الجنوبية ، بعد الهجوم الشيوعي ، وقرار إدماج ألمانيا في الدفاع عن أوروبا — إن هذه كلها تعتبر أدلة على الشكل الجديد الذي اتخذته السياسة الأمريكية . ولعل هناك شعوبا أخرى ذات تجارب وتقاليد أكثر حاولت أن تصل إلى هذه الغايات بوسائل أكثر دهاء أو بصبر أطول ، ولكن هذا ليس موضوع بحثنا .

وكذلك يبين الحزم الذي أبدته الولايات المتحدة لمقاومة التوسع الشيوعي مدى الفارق بين موقف أمريكا في هذا الشأن وما أبدته من تردد حيال ألمانيا النازية في السنوات الثلاثينية ، ومثل ذلك أيضاً ما اتخذته لمقاومة العدوان في كوريا على حين جمد الغرب حيال العدوان الذي حدث في منشوريا سنة ١٩٣١ وفي أثيوبيا عام ١٩٣٥ وفي إعادة تسليم أراضي الرين عام ١٩٣٧ .

إن جميع خصائص السياسة الأمريكية ، منذ أن بدأت تلعب دوراً رئيسياً في سياسة العالم ليست خصائص تدهور ، ولكنها خصائص دينامية شابة لم تكبحها التجربة والتقاليد بعد .

وهكذا في السياسة الداخلية والخارجية معاً ، قدمت أمريكا الدليل الكافي على قدرتها على إدراك الموضوعات الكبرى والجرأة في علاجها وهي الصفات التي تميزت بها دائماً الشعوب المتحضرة في أوج حيويتها .

### القوة المخفية في الفن الأمريكي المعاصر

امتصت المشكلات المادية قوى الشعب الأمريكي حتى عهد قريب : ففى بادىء الأمر أقامت الأمة مجتمعاً أبيض متحدةً بذلك الهنود والطبيعة ، ثم قهرت بعد ذلك الأرض الشاسعة التي لا نهاية لها حتى المحيط الهادى وطورتها ، وبعد ذلك استغلت ثرائها بطريقة محومة ، ومن ثم قد يكون لنا عذر إذا قلنا إن النشاط الروحى ، وبالأخص الدين والفن ، يلعب دوراً أصغر ، ويمتص جزءاً من الطاقة المحلية أقل مما يحدث فى معظم الدول الأوروبية والآسيوية ، ذلك لأن العقلية الأمريكية وأسلوب الحياة الأمريكى لا يؤديان إلى الصفاء التام اللازم للتأمل الدينى أو النشاط الفنى .

غير أنه لوحظت ، فى العقود الأخيرة ، زيادة فى الاهتمام بالصفة الإنتاجية العادية فى الميادين الفنية . ويقول « جيمس تروسلو آدمز » James Truslow Adams ، فى مؤلفه « Epic of America » :

« لو أننا لم نتعجب ، فى ميدانى الفن والأدب ، رجالاً يمكن أن يقال إنهم

في مرتبة الأساتذة في كل العصور ، فإننا أدينا أعمالاً لولاها لأصبح العالم أكثر فقراً ، فضلاً عن أنها ذات مرتبة عالية إذا قيس بمعايير العالم المعاصر .

ففي المسرحيات ، وإن لم يحدث ذلك في أشكال التسلية الأخرى ، أثرت أمريكا تأثيراً قوياً على المسرح في العالم الغربي بواسطة امتياز كتابها المسرحيين من « ماكسويل أندرسون Maxwell Anderson » ، إلى « آرثر ميلر Arthur Miller » ، ومن « روبرت شرود Robert Sherwood » إلى « يوجين أونيل Eugene O'Neill » . وفي ميدان الروايات الخيالية أبدى كتاب مثل « سنكلير لويس Sinclair Lewis » و « جون ماركاند John Marquand » و « إرنست همنجواي Ernest Hemingway » و « جون ستينبك John Steinbeck » و « وليام فولكنر William Faulkner » قوة ودفناً دنيوياً لا يدل على التحلل ، لأنهم يخلقون أدباً يعبر أحسن تعبير عن مرتبة خاصة في المجتمع الأمريكي الحاضر .

أما الحياة الموسيقية فقد بلغت في الولايات المتحدة مستوى يضارع أحسن مستوى بلغته في أي مكان آخر ، ومع أن أغلبية كبار الكتاب الموسيقيين والعازفين الأفراد وقواد الفرق الموسيقية الذين يؤدون عملهم في الولايات المتحدة جئ بهم من أوروبا ، فإن الاهتمام العظيم الذي يلقونه ، وكما لفرقهم الموسيقية ، لم يكن ليتحقق إلا في « جو » من الاستجابة في شعب يتمتع بتذوق الفن الموسيقي وتحظى فيه الموسيقى بحيوية فعلية فقد زاد عدد أوركسترات السيمفونيات التي كانت تملكها الولايات المتحدة في عام ١٩٠٠ من عشر فرق إلى أكثر من ستمائة فرقة في الوقت الحاضر ، ومع أن جميع هذه الفرق لا تستطيع أن

تفاخر بأنها من مرتبة فرق بوسطن أو فيلادلفيا ، إلا أن النمو العددي دليل على حيوية حياتها الموسيقية .

وبرغم أن الموسيقى والمسرحيات والأدب الأمريكي ، بلغت مستويات عالية ، إلا أنها لا تزال أبعد من أن تكون دليلاً قوياً على قدرات أمريكا الخلاقة في مجال الفنون . وفي رأينا أن المجالين اللذين أظهرتا فيهما ابتكارات أصيلة هامة هما مجالا صناعة الفيلم والفن المعماري .

إننا ، حينما نذكر إسهام أمريكا في الميدان السينمائي ، لا نقصد « الأفلام الخيالية » التي يشكو نقاد الفيلم الأمريكي منها دائماً ، وإنما نقصد المحاولات الجدية التي بذلها منتجون قلائل لتصوير مشاكل عصرنا في بدائع فنية رائعة . وعلاوة على ذلك ، وجد شكل أمريكي أصيل من الفن في الصور الهزلية الطائفة بالحياة . بيد أن التفكير في ابتكارات « والت ديزني Walt Disney » كعناصر في المدنية الغربية قد يجعل الكثيرين يرفعون حواجبهم أكثر فأكثر دلالة على الدهشة .

إن خفة الفيلم الهزلي ليست في حد ذاتها سبباً يحول دون أن يكون إسهامها عسرياً ثميناً في ميدان الترويح الذي لم يختلف مطلقاً في أية حضارة من الحضارات ، فكل عصر أشكاله الخاصة في فن التسلية : حقيقة أن كل وقت يبرز أشكالا تمثيلية جديدة تعتبر أحسن دليل على حيويته الثقافية ،

فإذا كانت أمريكا لا تفعل اليوم سوى التحول إلى التثيل الصامت الذى عرفه القرن السابع عشر، أو أوبرات القرن التاسع عشر لتسليه جماهيرها — كما يزعم بعض حماة الثقافة — فإن ذلك يعتبر وحده سبباً كافياً للاهتمام بها .

وهذه القدرة على خلق أشكال فنية جديدة نموذجية لعصرنا ، وجدت تعبيراً قوياً فى مجال آخر من الفن ، هو الهندسة المعمارية .

إن الاسم الذى يطرأ على البال مباشرة فى هذا المجال هو ، فرانك لويد رايت Frank Lloyd Wright الذى استحدث فى أوائل العقد الأول من هذا القرن أسلوباً ثورياً جديداً فى البناء ، وقد نال عدد من أتباعه تقديراً فى أوروبا لسنوات كثيرة ، أكثر مما حصلوا عليه فى بلادهم الأصلية ، ولعل سبب ذلك قلة الاهتمام بالفن المعمارى فى أمريكا فى ذلك الوقت ، إذ كان من المعتاد أن يتم البناء بسرعة ، وكان إتمام العمل وفائدته أهم بكثير من الجمال وطرز البناء ، وما زال الأمريكيون يعتبرون الاستعانة بخدمات أى مهندس معمارى ضرباً من الرفاهية يمكن الاستغناء عنه فى المشروعات الباهظة التكاليف .

ويفسر ذلك ، إلى حد كبير ، كيف أن الأمة التى شيدت كثيراً من الأبنية الفخمة ذات الجمال الفاضح فى التخطيط الجرىء ، هى نفسها الأمة التى سمحت فى الوقت ذاته لأقسام كثيرة من مدنها بأن تبني بلا أى طراز أو بطراز عادى لا ذوق فيه .

وبغض النظر عن هذه العقبات ، فقد أنجبت الولايات المتحدة الرجل الذى أصبح واحداً من المؤسسين الرئيسيين لطراز معمارى نعتقد جازمين أنه

إبداع فى هام كالأساليب القوطية والرومانية .

فى العقود الأولى من القرن الحالى، ازدهر هذا الطراز وانتشر على نطاق واسع جداً فى أوروبا، وقد أثار المعرض الدولى للهندسة المعمارية الحديثة الذى أقيم فى نيويورك عام ١٩٣٢ ، اهتماماً خاصاً من جانب بعض الأساتذة الأوربيين البارزين أمثال «لو كور بيزيه Le Corbusier» و «ميس فان در روه Mies Van der Rohe» و «والتر جروبيوس Walter Gropius» و «ج.ج.ب. أود J.J.P. Oud»، كما كانت أهمية «فرانك لويد رايت» فى فترة ما ، حيث قال عنه متحف الفن الحديث «لقد اعتبره معظم الأوربيين المتقدمين ، المؤسس المنهك القوى لتقاليد قوية ، ورائداً رومانتيكياً لا مكان له فى المعمار الدقيق الجديد ، بينما وافق أمريكيون قلائل على أنه أستاذ شرف قديم..» ومن المحتمل أن المعرض أسهم فى النشاط الجديد لرايت نفسه ، وفى التطور الجديد للمعمار الأمريكى الذى تظهر فيه معاً نماذج رايت وكوربيزيه المتعارضة ، وانبسط نشاط المعمار الأمريكى بشكل هائل منذ ذلك الحين . يبدو أن جمال المعمار الأمريكى لا يتحدى كل العصور ، فما زالت به ثغرات كثيرة فى حاجة إلى ملأها ، فمن المدهش مثلاً أن شكل معظم الأبنية المقامة على جانبي شارع بارك افينيو بنيويورك - الذى كان من الممكن أن يصبح أجمل شوارع أمريكا باستثناء ليفرهاوس - يوحى بأنه اختير طبقاً لنظام بناء البلدية القديم . ومن المدهش أيضاً أنه لم يعثر بعد على حل جمالى لوضع غرف آلات المصاعد فوق قمة جميع المنازل الأمريكية المكونة من عدد كبير من الشقق السكنية ذات الشقق . إلا أنه من المحقق أن أمة تستطيع أن تباهى بإبداعات مثل مركز روكفلر فى نيويورك ، وبرونكس هوايت ستون ،

وكبارى جورج واشنجتون وخليج سان فرانسيسكو ، ومبنى إدارة قدامى المحاربين فى ديترويت ، ومصنع «واتس بات» البخارى بالقرب من دايتون بولاية تينيسى ، ومركز جيتوى فى بيتسبورج وبعض القطاعات الجديدة فى لوس انجيلوس ؛ ليست بالتأكيد عرضة لخطر الانتكاس والعقم الفنى أو المعاناة من العجز فى القوة الخلاقة .

### التقدم العلمى

خطا التقدم العلمى منذ بداية القرن الحالى خطوات جبارة مذهلة بحيث يصعب على الرجل الغربى فى منتصف القرن أن يفطن إلى هذا التغيير الحاسم الذى طرأ على مظاهر الحياة اليومية ، فهل حقاً تحركت أول سيارة ببطء على الأرض وأقلعت أول طائرة من الأرض بتردد عدة بارادات قليلة، وكانت تخفها المخاطر منذ أقل من ستين عاماً ؟ .

منذ أن ظهر أول جواد فى شوارع بابل حتى اختراع القاطرات البخارية ، أى منذ حوالى أربعة آلاف عام، لم يعرف الإنسان وسيلة انتقال أسرع من الجواد ، ومنذ مائة عام وجد الإنسان الفرصة ليوائم حياته مع التغيرات الثورية للآلة البخارية ، وفى فترة لا تزيد على خمسين عاماً بعد ذلك ، اندفع العلم بسرعة فى سلسلة اختراعات متتالية كان كل اختراع منها حاسماً فى استخدامه مثل السيارة ، والطائرة، والراديو ، والتليفزيون ، والطاقة الذرية ، والاندفاع الذاتى ، ثم الصاروخ . وكل هذا كان نتيجة عشرات الآلاف من التجارب الكبيرة والصغيرة فى علم الفيزيقيا الذى أبدى القرن العشرون خصوبةً شديدةً فيه .

ومنذ مئات السنين كان الكون الذى يعنى الإنسان بالحياة فيه ، محصوراً بين حدود الذرة باعتبارها الجزيء الأصغر غير القابل للانقسام من جانب ، والأفلاك باعتبارها الحد الخارجى للفضاء المعروف من جانب آخر ، ولكن العلم حطم هذه الحدود الآن ، وأثبت علم الفيزيقيا أن الذرة تشتمل على ضرب من النظام الفلكى ، ضئيل بشكل لامتناهى ، وأظهر الفلك أن عالم الكواكب يشتمل على عدد لانهاية له من الأجرام السماوية بمثابة جزيرة من العوالم فى الفضاء ، ومن ثم تكونت الأجرام السماوية بدورها من ذرة ، مادتها من أجزاء لا يمكن تصورها .

ويقف الإنسان الغربى مترنحاً عند حافة هذه الهاوية من اللانهاية التى وضعها علم القرن العشرين أمام ناظره ... لقد شكل تفتيت الذرة واحداً من أعظم النتائج الرهيبة التى حققها العلم ، وفتح بذلك مصدراً من الطاقة لا يمكن تقديره ، ولا نستطيع حتى الآن أن نتكهن بجميع نتائجه .

غير أن الإنسان البروميشى ( نسبةً إلى بروميثوث أحد أبطال الأساطير اليونانية ) الذى يهتم مطلقاً من كل قيد ، يطوق نفسه فعلاً بمشروعات جديدة أكثر جرأةً ليحطم قيود وجوده الأرضى ، فالعلم يدرس بطريقة جديدة ؛ فهناك المشروعات التى كانت تعتبر خيالية فى يوم ما ، مثل إرسال سفينة فى الفضاء فوق الأرض ، وإرسال صواريخ إلى الكواكب الأخرى ، وإطالة عمر الإنسان ، وتحويل الخصائص الذهنية والخلقية للفرد والأجناس صناعياً .

وبالمثل حدث تقدم مذهب فى الطب ، وفى علم الكيمياء ، وعلم الحياة

وعلم النفس ، والعلوم الاجتماعية . وحسبنا أن نذكر هؤلاء فقط ، وتتداخل أعمال أوروبا وأمريكا في هذه الميادين ، وتتشابك مع بعضها بعضاً بحيث تصعب التفرقة بين الدور الإنشائي الذي تلعبه كل منهما . وأقصى ما يستطيع المرء أن يقوله هو أن الجهد العلمي في أوروبا وُجِّهَ أكثره إلى الأبحاث العلمية الأساسية الخالصة ، وأن أمريكا وُجِّهت على نحو أكثر إلى التطبيق العملي ، وأثبت كل منهما أن قرننا من أكثر القرون إخصاباً في الأعمال العلمية .



# الجزء الثالث

## الأوضاع المقبلة



## - ١٢ -

### العالم الواحد المقبل

أجريننا في الجزء الأول من هذا الكتاب تحليل بعض الفلسفات الأساسية التي تدور حول مجرى حياة الحضارات ، ووصلنا إلى مجموعة من خصائصها الرئيسية . . . وعلى أساس الطابع العام للماضي حاولنا أن نحدد ، في القسم الثاني ، مرحلة التطور التي بلغتها الحضارة الغربية ومدى قوتها الخلاقة الحالية ، وأدى ذلك بنا إلى استنتاج أنه من المحتمل أن يكون عالمنا حالياً في طور «المعاناة» الذي يسبق ، عادة ، فترة السلام العالمي ، كما يسميها « شبنجر » أو الدولة العالمية كما يسميها توينبي .

وبالنسبة للقول الأخير ، فقد أيد توينبي هذا الرأي في محاضراته التي ألقاها بأدنبرة في شهر أكتوبر عام ١٩٥٢ ، وتنبأ فيها بأن وجه الكرة الأرضية سوف يتوحد سياسياً في مدى نصف قرن عن طريق تركيز القوة العسكرية التي لا تقاوم في مجموعة قليلة من الأيدي ، وسواء جاء هذا التوحيد نتيجة لحرب عالمية أو بدونها ، فإن هذا مر لم يقطع فيه برأى .

إلا أنه ليس من الضروري أن نعتمد على فلسفة التاريخ المعقدة لنصل إلى نفس النتيجة ، فإذا استخدمنا المقياس العادي ذا الاعتبار الكبير ، أي سرعة المواصلات ، تبين لنا أن العالم قد تقلص بخطوات متزايدة مع تقدم الفن الصناعي . . . ففي عام ١٨٧٢ أثار جولز فيرن Jules Verne ضجة بقصته عن رحلة «فلياس فوج Phileas Fogg» حول العالم في ثمانين يوماً ،

أما الآن فإن في استطاعة المرء أن يقوم بهذه الرحلة بسهولة في ثمانية أيام ، وقد لا تستغرق هذه الرحلة في المستقبل غير البعيد أكثر من ثمانى ساعات . عند ما يطير بسرعة تفوق سرعة الصوت .

وهذا التغيير يؤثر تأثير جوهرياً على بنیان الدول الغربية ، بل العالم كله في واقع الأمر . . . . . وتقرب سريعاً المرحلة التي لن نجد فيها اليد اليسرى تحاول قطع اليد اليمنى ، لأن الاثنين جزء من جسد واحد ، ومن ثم فإن الاستمرار في الحرب على نطاق العصر الحاضر أشبه بطير ينقر قلبه بمنقاره .

إن مجال الحرب العنصرية الشاملة وتعقيداتها يمتص جزءاً غير مناسب من الطاقة القومية بدرجة تجعل من المستحيل على أية دولة المضي في الحروب فترة كبيرة دون أن تنزل بها نتائج مروعة ، لأن القوة المدمرة التي وضعها تقدم الفنون الصناعية في يدى الإنسان بلغت درجة رهيبة بحيث لم تعد الحضارة قادرة على استخدامها إلى ما لا نهاية للقتال وتدمير أجزاء من ذاتها .

ثم إن الجهد الذى تتطلبه الحرب الحديثة لم يزد بالنسبة للحرب الشاملة الهائلة فحسب ، وإنما ازداد ثلاثة أمثاله بالنسبة للاستعداد لها قبل خوض غمارها ، ثم إعادة البناء الهائل الذى يستلزمها بعد ذلك .

ونتيجة لذلك ، فإن القوة لا تستأصل شأفة الأفراد فحسب ، ولكنها تصيب الأمة المعادية بجراح قاتلة ، وقد تقضى على حياتها كمجتمع متحضر ، وبهذا لا يمكن أن يبقى العالم مقسماً بين الجماعات المتعارضة في النهاية ، ونظراً لأن الحرب تؤثر على حياة كل رجل وامرأة وطفل ، وتسبب خراباً عاماً ،

وتستلزم جهداً جبّاراً ، فقد أصبحت الشعوب تكرهها كراهية عميقة .  
وحتى بغض النظر عن آثارها العسكرية ، فإن تشابك مصالح العالم  
واضح تماماً . . فألمانيا الغربية لا تستطيع أن تعيش بدون ألمانيا  
الشرقية ، ولا يمكن أن تعيش أوروبا الغربية المصنعة بدون أوروبا  
الشرقية الزراعية ، ولا يمكن أن ترفع آسيا مستويات معيشتها بغير  
الحصول على المساعدة الفنية من الغرب ، ولا أن تعيش أمريكا الشمالية  
بدون سلع الجزء الجنوبي من تلك القارة ؛ ولا أن يحتفظ أى جزء متحضر  
من العالم بطريقته في الحياة بغير أن يقدر الإنتاج الصناعي الهائل  
للولايات المتحدة .

وفي ظل هذه الظروف ، فإن رغبة العالم في السلام ، وفي قيام شكل من  
النظام العالمى ليست مجرد مثل دينى أعلى ، ولكنها حاجة ملحة للحفاظ على  
الذات . إننا لم نصل بعد إلى العالم الواحد ، ولكننا سوف يصبح ضرورة  
ملحة إن عاجلاً أو آجلاً .

ولن يحىء العالم المتحد عن طريق تنفيذ مشروع أعد بعناية ، أو عن طريق  
شخص أو دستور ، فإنه في سبيل التشكيل عن طريق منطق الأحداث  
المجرد ، ونتيجة للضرورات السياسية والاقتصادية القاسية ، وسوف يأتى العالم  
الواحد سواء بالطريق السلمى أو بطريق العنف .

ومن الناحية النظرية ، يستطيع الإنسان أن يتصور احتمالاً ثالثاً ؛ فقد  
تستمر الحرب الباردة بين الشيوعيين والدول الديمقراطية إلى ما لا نهاية ،  
وتتخللها اصطدامات مسلحة على الحدود ، مثل ما حدث في كوريا والهند  
الصينية ؛ وهذا على نحو طويل المدى أو دائم .

فهل من المحتمل أن يتحقق هذا الاحتمال ؟

ليس في استطاعة أحد أن يتنبأ بالوقت الذي يستمره التوتر الحالى ، ولكن مؤلف هذا الكتاب يرى أنه من غير المحتمل أن تصبح هذه الحالة شبه دائمة نتيجة لسببين أساسيين هما : مجال الحرب الشاملة ، وتشابك العالم الحديث نتيجة لتطور الفنون الصناعية . . .

فالأول يعنى أنه — على عكس المواقف التى نشأت فى الماضى حيث كانت حياة الأمة العادية يمكن أن تستمر ، بينما الحروب مشتتة الأوار على الحدود ، فإن أى مصادمات مسلحة بين جماعتين متخاصمتين فى عصرنا هذا ستؤدى إن عاجلا أو آجلا إلى حرب شاملة .

الثانى — معناه أنه إذا اختفت المصادمات المسلحة فترة من الوقت . تكفى لاستهلال تعايش سلمى حقيقى ، فإن التفاعل والنفوذ المشترك سوف يؤدى حتما إلى إيجاد درجة معينة من الاندماج . ومن ثم فعلى طول المدى ، يبدو أن الأمر الأكثر احتمالا هو ألا تستمر حالة الحرب الباردة الحالية إلى مالا نهاية ، وإنما سيوجد العالم حلا ، سواء أ كان ذلك بالطريق السلمى أم بطريق القوة .

## - ١٣ -

### الطريق السلمي

#### امتزاج الشرق والغرب

برغم أن كتائب الملايين المتعارضة تعد للبركة ، فما زال هناك متسع من الوقت للاستنجد بصوت العقل ، فليس هناك ثمة سبب معقول يحول دون قيام تعايش سلمي بين العالمين الديمقراطي والشيوعي ، فلماذا لا يكون كل منهما سعيداً متمتعاً بحياة رغدة بداخل منطقته الخاصة دون أن يضايق العالم الآخر ، لولا أن العقيدة الماركسية - اللينينية عن الثورة البروليتارية تحول دون قيام هذا الموقف السعيد ، والدليل الكلمات التالية :

« إن قيام الجمهورية السوفيتية مع الدول الاستعمارية جنباً إلى جنب أمر لا يمكن التفكير فيه ، فأحدهما يجب أن تنتصر في النهاية . وقبل أن تجيء هذه النهاية لا مناص من حدوث اصطدامات مروعة بين الجمهورية السوفيتية والدول البورجوازية . »

هكذا كتب لينين عام ١٩١٩ في تقرير قدمه للجنة المركزية في المؤتمر الثامن للحزب. وفيما بعد قال ستالين: « إن أعظم مشكلة تواجهها الثورة الروسية هي الحاجة إلى تنشيط الثورة العالمية ، ولخص هذا الموضوع الأساسي في عنوان لقسم من برنامج الدولة الشيوعية هو أن: « الغرض النهائي لهذه المنظمة هو الشيوعية العالمية ، ... ومادام هذا المبدأ باقياً فإنه سيشكل عقبة لا يمكن تخطيها في سبيل التعايش السلمي بين هذين النظامين السياسيين.

وليس هناك دلائل على أن زعماء العالم الشيوعي يعتزمون التخلي عن هذا المبدأ إلا حيثما تدعو الضرورة الاستراتيجية الموقوتة . غير أننا إذا وقفنا بضمير نقي أمام حكم التاريخ ، فإن علينا أن نؤيد هذا الاحتمال دائماً ، وعندئذ سوف يتحقق فعلاً . ومن الجائز أن تحدث تغييرات داخلية سياسية أو اقتصادية أو شخصية في روسيا أو في الصين ، يمكن أن تستأصل في فترة طويلة شافة تهديد الشيوعية للعالم الخارجي ، فالأزمات الاقتصادية ، والنزاع الداخلي ، وثورات القصر ، والصراع من أجل الزعامة وماشا كل ذلك إنما هي أحداث معروفة في تاريخ الدول الأوتوقراطية . أما العالم الحر فإنه ، بدوره ، في سبيل بلوغ درجة كافية من القوة يمكن أن تجعل الأعمال العدوانية تبدو غير ملائمة بالنسبة للقادة الشيوعيين .

وإذا حدث أحدهذه الاحتمالات ، فلن يضع العالم الحر ، قطعاً ، أية عقبات أمام التعايش السلمي ، بعد أن صرح قادة الغرب بذلك مرات ومرات .

وإذا أمكن تحقيق فترة من السلام الحقيقي ، وحرية أكبر للاختلاط ، فسيغنى ذلك بالتأكيد أن يبدأ كل من العالمين في التأثير على حياة العالم الآخر ومفاهيمه . وبرغم ما بين أشكال المجتمع الديمقراطي والمجتمع الماركسي من تناقض في أشكالهما المتطرفة الموجودة في كل من الولايات المتحدة وروسيا على التعاقب . فإن أحسن ما فيهما من عناصر لن تفشل في تأثير أحدهما على الآخر ، فتضيق بذلك الفجوة التي تفصل بين الدولتين إلى درجة تجعلهما تدركان أنهما لم تعودا بحاجة إلى أن تواجه إحداهما الأخرى بالاحتاجر .

ولقد نجحت دول أوربية كثيرة في مزج عناصر من المذهبين الديمقراطي والماركسي ، فإن الدانمارك والسويد والنرويج ظلت تحكمها ، وقتاً طويلاً ، حكومات طبقت عناصر الاشتراكية الماركسية ممزوجة بعناصر الحرية الاقتصادية والفردية ، ومع ذلك فإنها ظلت تحتفظ بمستوى معيشة مرتفع لفترة طويلة ، وتمتعت برخاء وطمأنينة ، وساد الخير جميع الطبقات ، كذلك أتمت بلجيكا ، في ظل نظام مماثل ، نهضة من أحسن النهضات التي شهدتها أوربا بعد الحرب ، وأتمت هولندا انتعاشها الاقتصادي في ظل حكومات متوالية كانت تضم ممثلين عن الاشتراكيين والمسيحيين ، وفلسفات المشروعات الحرة ، وذلك دون أن تحدث أية إضرابات كبرى منذ انتهت الحرب ، وتوطدت العلاقات بين العمال وأصحاب الأعمال بشكل لم يسبق له مثيل . ولعل النقد بداخل هذه الدول وخارجها يقولون إنه كان من الممكن تحقيق نتائج أحسن عن طريق التطبيق غير الزائف لنظام اقتصادي وسياسي مغاير ، بطريقة أو بأخرى ، ولسكننا لن نتعرض هنا لمدي ما في هذا الادعاء من صحة أو زيف ، لأن النقطة الهامة عندنا هي ما إذا كان من الممكن مزج النظريات المختلفة ، وهل من الممكن تطبيق مثل هذا النظام الجديد ؟

ولقد أجابت الحقائق التي سبق أن أوردناها ، والتجارب الأخرى ، على هذين السؤالين بالإيجاب .

بل إن زعماء النظامين الرئيسيين المتعارضين لم يستطيعوا ، عند التطبيق ، تنفيذ نظرياتهم دون أن يمزجوها بعناصر من النظام المضاد ، بصرف النظر عن مدى ترددهم أو دلائل شعورهم ، عند ما فعلوا ذلك .

وفي مجال السياسة ، أظهرت الديمقراطيات في عشرات السنين تطوراً نحو زيادة سلطة الإدارة المركزية برغم محافظتها على المبدأ الرئيسى ، وهو أن كل السلطة مستمدة من الشعب عن طريق البرلمان .

وفي الاقتصاد، نسمع أن جميع الديمقراطيات ، تقريباً تحافظ على حرية المنافسة بدرجات متفاوتة ، إلا أنها تحوطها بإطار مصنوع محلياً ، وهو إطار كاد يقترب في وقت الحرب مثلاً ، من الدولة الجماعية ، فحتى في أمريكا لم يختلف عنصر الاقتصاد الموجه اختفاء تاماً منذ ظهور مبدأ « الخطة الاقتصادية الجديدة New Deal » .

وفي التجارة والصناعة بالدول الديمقراطية ، ما زالت المشروعات الخاصة والملكية الخاصة هي المبدأ السارى، فيما عدا استثناءات قليلة . ومع ذلك ، فإن السيطرة الفعلية — كما أشار « جيمس بيرنهام James Burnham » ، في كتاب « الثورة الإدارية » ، حتى على المشروعات الخاصة ، انتقلت من أيدي حملة الأسهم إلى أيدي المديرين ، وفي استطاعة المرء أن يعترف بهذا الاتجاه على نحو واقعى بغير أن ينبه إلى القول بأنه يجب أن تتركز جميع السلطات ووسائل الإنتاج في أيدي الدولة في النهاية، وذلك لأن الاتجاه ، كان ولا يزال ، نحو نقل السلطة إلى الحكومات ، والمديرين ، والمنفذين وقادة العمال ، إلا أن الاختلاف الأساسى ما زال قائماً بين مجتمع لا « تفرض » السلطة فيه ، وإنما « استمدت » من الشعب والناخبين وأصحاب المشروعات والعمال ، وبين مجتمع يسير على هدى مبدأ الفوهرر .

وعلاوة على ذلك ، فإن الديمقراطيات، في بنائها الاجتماعى، عمدت منذ عدة عقود، إلى المداومة على تضيق الفوارق بين الطبقات، نتيجة لتصاعد

الضرائب بشكل ثابت على الدخل الكبير ، وانتشار التشريع الاجتماعي ، وهكذا استطاعت أن تقيم ، على نحو وثيق ، المساواة الاجتماعية ، وهي مبدأ ماركس في الأصل .

أما المجتمع الشيوعي ، فأبدي من جانبه ميلا معارضا أكثر وضوحاً ، يتمثل في إعادة استخدام عناصر معينة كان لها ، من قبل ، خصائص النظام الرأسمالي أو المجتمع البورجوازي . . . . ولقد قال لينين ، ذات مرة : « إن البيروقراطية والجيش الدائم من خصائص الدولة البورجوازية » . أما الآن ، فإن لدى الدولة الشيوعية الأولى أوسع بيروقراطية ، وأكبر جيش في العالم ، ومنذ بدء تنفيذ السياسة الاقتصادية الجديدة في عام ١٩٢١ ، وهذه الدولة مضطرة إلى إعادة إدخال عناصر معينة من اقتصاد المشروعات الحرة ، ورغم أنه كان مسموحاً بمزاولة العمل الخاص واقتناء المزرعة الخاصة في نظام السياسة الاقتصادية الجديدة ، إلا أن هذا الترخيص ما لبث أن ألغى أخيراً وأدخل بالاقتصاد الشيوعي نظام « انعدام المساواة في الأجر ، على شكل مكافآت تشجيعية ، ومكافآت الأسبقيات ، والامتيازات ، . . . الخ ، وعادت أيضاً بعض القيم البورجوازية كالروابط العائلية ، وتشجيع التناسل ، ومنع الإجهاض ، والتسامح الديني ، وضريبة الدخل ، واستخدام البروتوكول ، والأزياء الرسمية ، وآداب السلوك . . . . وقد قال ديبلوماسي بارز هو السير دافيد كيللي - عند عودته من موسكو في عام ١٩٥١ بعد أن قام بمهمة رسمية هناك استغرقت سنتين - في مقال نشرته صحيفة نيويورك تايمز عن « الثورة المضادة ، هناك مايلي :

«لقد حاد الثوار الأوائل عن كل الأفكار التقليدية المرتبطة بالاشتراكية الغربية مثل الدولية ، والوطنية ، والزواج ، والأسرة ، والتعليم ، والدين ، وسيادة البروليتاريا ، والتعاطف المبهم العام مع طابع حديث في الأدب والفن ، ويجرى بناء الدولة الجديدة على أساس سلبى للوقف الاشتراكي التقليدي حيال كل نقطة من هذه النقط ، ويمكن أن يطلق على هذه العملية بحق — بعد أن تكشف خطوطها الرئيسية — أنها الثورة المضادة . . . . .»

«وفي جميع الشؤون المتصلة بالأخلاق والأسرة ، أصبحت هذه الدولة دولة رجعية تماماً ، بل أكثر الدول التي عرفتها تزمناً . . . . .»

«أما التحول الأساسي الذي لم يكن منتظراً فكان يتمثل في التخلي التام عن مزاوله مجتمع البروليتاريا بمثله الأعلى الذي لا ينفصل ، وهو المساواة الاشتراكية . . . إنهم يبتعدون الآن عن المساواة الاشتراكية بنفس السرعة التي يحاول بها الغرب أن يقترب منها . . . .»

ومن المحتمل جداً أنه إذا رفع الستار الحديدي ، ولو بوصات قليلة ، فإن نسيم الهواء الطلق الداخل لن يلبث أن ينعش كل حياة خلفه ، وسوف تتوقف نتيجة معركة الأفكار المقبلة على قوة أفكار الجانبين بمجرد تحررها من قيود الدعاية ومن تأثير القوة المسلحة .

وليس هناك ما يدفع الغرب إلى الخوف من هذا النضال بلا أسلحة ، بل إن هناك جميع الأسباب التي تدفعه إلى الترحيب به ، فإذا ثبت أنه أضعف من أن يفوز فيجب أن يتقبل الهزيمة ، وإنما بمفاهيم جديدة قوية .

أما إذا كان الغرب لا يزال صحيح البنية قوياً ، فليس هناك ما يخشاه من

مثل هذا النضال ، فإن فى استطاعته أن يقدم — فى المجال المادى — مستويات معيشة أعلى ، عن طريق التقدم الصناعى الفنى ، أما فى ميدان النضال الروحى مع الشيوعية ، فإن الحضارة الغربية ما زالت تعتنق القضايا التالية التى لا تحيد عنها وهى :

- « إن الإنسان لم يخلق للدولة ، ولكن الدولة خلقت للإنسان . »
- « الشعب لم يوجد لىخدم حكاه ، ولكن الحكام يخدمون الشعب . »
- « خلق الإنسان لىخدم غاية من غايات خالقه ، ولكن الخالق لا يخدم غرض الدولة . »
- وليس الغرب هو الذى راوغ فى الماضى فى معركة الأفكار ، وهو لن يراوغ فى هذه المعركة فى المستقبل . . . . وما زال الطريق السلبى مفتوحاً .

## — ١٤ —

### طريق العنف إذا وقعت الحرب

ما زال طريق التعايش السلمى المتجانس مقترحاً إذن ، وما زال الاختيار بين الحرب والسلام رهناً بمشيئة الكرملين . والغرب بدوره يستطيع أن يعرض شروطاً معتدلة للتعاون ، ويستطيع أن يحاول خلاق موقف من القوة بحيث يعرقل العدوان ، غير أن القرار الهائى ليس فى يد الغرب . وهذا هو مصير الطريق السلمى .

إلا إنه من سوء الحظ أن سلسلة طويّلة من الأحداث أثبتت أن الشيوعية تقوم على أساس بسط نفوذها على مناطق جديدة متزايدة مادام ذلك يتم دون أن يكون له ردّ فعل ، فقد بسطت نفوذها فى السنوات العشر من عام ١٩٣٩ إلى عام ١٩٤٩ على ٧٧٠ مليون نسمة بعد أن كانوا ١٧٠ مليون نسمة فقط .

ومن ثم كان من الضرورى أن نضع فى اعتبارنا ، مع التردد ، إمكان اندماج العالمين عن طريق اشتباك الجيوش ، كما حدث فى كثير من المناسبات التاريخية الماضية .

وإذا حدث هذا الصدام المسلح ، فمن المحتمل أن تكون تلك هى المعركة الأخيرة للحضارة الغربية ، وسوف يكون دورها بمثابة الدور الذى لعبته الحرب التى دارت رحاها بين مارك أنتونى وأكتافىوس فى الحضارة

الكلاسيكية ، تلك الحرب التي أخضعت جميع المنطقة التي كانت تشملها تلك الحضارة آنذاك لزعامة واحدة ، وبذلك قامت الدولة العالمية .

ولكن البديل العصري المقابل لهذا الصراع سيكون أوسع مدى آلاف المرات ، وأكثر تدميراً . . . وليس من قبيل المبالغة أن نقول إن هذا الصدام سيكون أعظم وأعنف صدام حدث في تاريخ البشرية ، نظراً لأن أشد الأسلحة فتكاً ستستخدم فيه . صحيح أنه عندما خرج « أجزيسيس » ، Xerxes ، لغزو اليونان كان عدد الجيش الذي يقوده عشرة آلاف رجل بينما سار الإسكندر الأكبر في آسيا بجيش قوامه ٣٠,٠٠٠ مقاتل ، وعند ما سير نابليون حملته إلى روسيا كان يحشد أكبر جيش عرفه التاريخ فقد كان تعداده ٥٠٠,٠٠٠ مقاتل ، ولكن جميع هذه الأرقام تافهة إذا قورنت بالحشود الهائلة التي ستلقى إلى المعركة إذا ما نشبت الحرب العالمية الثالثة ، فقد يقف ما يربو على عشرة ملايين رجل وامرأة في زى الحرب على كلا الجانبين ، بينما يعمل مئات الملايين من المدنيين خلفهم كالعبيد لأداء المهام التي ستوكل إليهم ، وهم يقاسون صعوبات ومخاطر مؤلمة ، وسوف تدمر المدن وكل الدول .

غير أن هناك ما هو أسوأ . إنه الخضوع للطغيان ، وهي كلمة لها مغزاها الحقيقي عند الملايين التي عاشت في ظله .

وعلينا ، كرجال معقولين واقعيين ، أن نزن النتيجة : هل يستطيع الغرب أن يحرز النصر إذا فرضت الحرب عليه ؟

إنه سيحرز مهتماً ، فليس هناك أدنى شك في هذه النتيجة . ولذلك أربعة أسباب رئيسية .. اثنان منها ماديان ، والاخران روحانيان :

### الإمكانات الصناعية :

إن أول كل شيء ، هو أن الغرب يملك أعظم إمكانات صناعية ، فإذا وقعت الحرب العالمية الثالثة فستكون المعركة معركة إنتاج ، كما كانت الحال في الحرب الأخيرة ، ومعركة فنون صناعية وعلم أكثر مما كانت في الحرب الماضية ؛ والغرب متقدم في الإمكانات الصناعية الحربية والفنون الصناعية على العالم الشيوعي حتى ولو فقد احتكار القنبلة الذرية .

ويكفي أن نذكر أرقاماً قليلة لبيان تفوقه الإنتاجي (مع العلم بأن الأرقام الانتاجية الخاصة بالاتحاد السوفيتي مأخوذة من الإحصاءات التي اشتمل عليها تقرير مالمينسكوف إلى المؤتمر التاسع عشر للحزب الشيوعي في أكتوبر ١٩٥٢ ، وأكدها المنظمة الاقتصادية للأمم المتحدة وخبراء أوروبا وغيرهم من الخبراء الغربيين) .

قدر مجموع إنتاج روسيا والدول الأوروبية التي تدور في فلكها من الصلب في عام ١٩٥٢ بـ ( ٥١ مليون طن ) مقابل ١١٣ مليون طن أنتجتها أمريكا و ٧٠ مليون طن أنتجتها أوروبا الغربية . وفي عام ١٩٥٣ كانت تقديرات الأمم المتحدة هي : ٥٥ مليون طن إنتاج الاتحاد السوفيتي وتوابعه — و ١١٨ مليون طن إنتاج أمريكا — ، و ٧٢ مليون طن إنتاج أوروبا الغربية .

أما إنتاج الفحم في روسيا وتوابعها فكان في عام ١٩٥٢ أكثر من ٣٠٠

مليون طن مقابل ٥٥١ مليون طن أنتجتها الولايات المتحدة ، و٤٧٢ مليون طن أنتجتها أوروبا الغربية . وقدر إنتاج الكهرباء في روسيا وتوابعها خلال عام ١٩٥٢ بـ ١١٧ بليون كيلوات - ساعة ، مقابل ٤٠٠ بليون في الولايات المتحدة ، ونحو نصف هذا المقدار في أوروبا الغربية .

وبلغ إنتاج البترول في روسيا وتوابعها خلال عام ١٩٥٢ حوالى ١,٠٦٠,٠٠٠ برميل في اليوم أو ٨٪ من إنتاج العالم ، مقابل ٦,٧٠٠,٠٠٠ برميل في اليوم أو ٥٢٪ من إنتاج العالم في الولايات المتحدة و ( ٧٠٪ من إنتاج نصف الكرة الغربى ) و ٢,٢٥٠,٠٠٠ برميل يومياً ، أو ٦٦٪ من إنتاج الشرق الأوسط .

ولكى نضع هذه الأرقام في مكانها الصحيح ، حتى لا نستنتج منها نتائج متفائلة جداً ، يجب أن نضع في اعتبارنا عدة أمور :

أولها - أن جزءاً صغيراً من المجموع الممكن إنتاجه من المواد الخام الأساسية في الدول الخاضعة للحكم الشيوعى ، يذهب للاستهلاك المدنى على نقيض ما يحدث في الدول الديمقراطية ، ومن ثم فإن مقارنة القوة الإنتاجية القائمة على أرقام الإنتاج الكلى فقط قد تؤدي بنا إلى نتائج مغالية في التفاؤل .

وثانياً - يبدو بالإضافة إلى ذلك ، وحسب رأى الخبراء الذين درسوا هذه الشئون عن كثب ، أن متوسط الإنتاج السوفيتى من الأسلحة ، على أساس وحدة المواد الخام المستعملة ، أعلى من إنتاج الولايات المتحدة .

وثالثاً - لم يتحقق بعد - بدرجة كافية أن إنتاج السوفيت من

المواد الخام زاد في العقد الأخير بدرجة مذهشة تصل في بعض الأنواع الهامة إلى نسبة مئوية أعلى من الولايات المتحدة وأوروبا الغربية . ولقد زاد إنتاج روسيا من الصلب في عام ١٩٥٢ بنسبة ٩٠٪ تقريباً عما كان عليه عام ١٩٤٠ وزاد إنتاج الفحم بنسبة ٨٠٪ وزاد إنتاج الكهرباء بنسبة ١٤٠٪ عما كان عليه في عام ١٩٤٠ .

وأخيراً ، يجب أن نتحقق من أن الاتحاد السوفيتي في طريقه إلى — بل تجاوز — تحقيق الأهداف التي أعلنها ستالين في خطابه الذي ألقاه في مسرح بولشوى في شهر فبراير ١٩٤٦ ، بوصفها ضرورية لسلامة روسيا ، ولعله كان يعنى أنها ضرورية لإمكان المضي في حرب طويلة الأمد . ويقدم العمود الأول من الجدول التالي ، الأرقام التي أعلن ستالين أنها يجب أن تنجز حوالى عام ١٩٦٠ أو عام ١٩٦٥ ، ويبدو أن العقل لا يقبلها إذا ما قورنت ، بأرقام الإنتاج التي تحت أيدينا ، وهي أرقام عام ١٩٤٠ التي ذكرت في العمود الثانى ، أما العمود الثالث فيبين الإنتاج الفعلى في عام ١٩٥٢ ، بينما يبين العمود الرابع أهداف مشروع الخمس سنوات لعام ١٩٥٥ الذي يبدو — على أساس إنتاج عام ١٩٥٢ . ومعدل الزيادة في السنوات الأخيرة — أنه من الممكن الوصول إليه ، وجميع هذه الأرقام ، لا تشمل أرقام الإنتاج في الدول الصاعدة مع روسيا .

الهدف المعدل ١٩٥٥	إنتاج ١٩٥٢	إنتاج ١٩٤٠	الهدف الأصلي لسنوات ١٩٦٠-١٩٦٥ (بملايين الأطنان المترية)
٣٤	٢٥	١٥	٥٠ حديد خام
٤٤,٧	٣٥	١٨,٣	٦٠ صلب خام
٣٧٧	٣٠٠	١٦٦	٥٠٠ فحم
٦٩,٥	٤٧	٣١	٦٠ بترول

ولسكى ندرك إلى أى مدى تقرب أهداف عام ١٩٥٥ الكتلة السوفيتية لكل من الحد الأدنى لاحتياجات السلامة التى حدد إنجازها أصلا بعام ١٩٦٠ أو ١٩٦٥ ، يجب أن تضاف إلى الأولى أرقام إنتاج الدول الضالعة مع روسيا ، وهى أرقام يصعب التأكد منها ، ولكننا جوهريه فى بعض الأنواع.

ولقد قدر إنتاج الصلب فى هذه البلاد فى عام ١٩٥٣ مثلا بثلاثة عشر مليون طن ، فإذا افترضنا أن هذا الرقم ارتفع فى عام ١٩٥٥ إلى حوالى ١٦ مليون طن ، فيستتبع ذلك أن الإنتاج المحلى وإنتاج البلدان التابعة لروسيا فى ذلك العام قد وصل إلى كمية كان من المقرر أن يصل إليها فى عام ١٩٦٠ أو ١٩٦٥ فقط .

كذلك يمكننا أن نرى أن هدف ١٩٥٥ الجديد بالنسبة للزيت فى الاتحاد السوفيتى وحده ، بصرف النظر عن إنتاج الدول التابعة له ،

قد ارتفع ارتفاعاً كبيراً فوق هدف ١٩٦٠ — ١٩٦٥ الأصلي ولهذا ، يجب أن نفترض ، بالنسبة لبعض المواد الخام الهامة ، أن الحد الأدنى من « سلامة الاتحاد السوفيتي » الذي أعلنه ستالين في عام ١٩٤٦ سوف يتحقق قبل الوقت المحدد بفترة تتراوح بين خمس وعشر سنوات . وما دامت الإمكانية الصناعية هي العامل الأول الآن في تحديد طاقة الدولة على احتمال الحرب ، وبالتالي قدرتها على اتباع سياسة خارجية تنطوي على المغامرة بالحرب ، فإن من الصعب اعتبارنا مبالغين في تقدير الدلالة المنذرة بالشر في الأرقام السابقة .

ومع ذلك ، فحتى إذا نظرنا إلى هذه العوامل بعين الاعتبار ، فإن الأرقام السالفة الذكر تبين بجملاء أن الموارد الموجودة تحت تصرف الشيوعية مازالت أقل بكثير من تلك التي في حوزة العالم الحر ، ومن الواضح من الناحية الأخرى ، أن هذه الأرقام قد تقارب — أو ربما تفوق — أرقام نصف الكرة الغربي ، إذا سقطت أوروبا الغربية والشرق الأوسط وجنوب شرق آسيا في قبضة الشيوعية ، فإذا قدر أن يحدث ذلك ، فإن قارة أوراسيا سوف تصبح قلعة منيعة لا يمكن اقتحامها فعلاً ، وعندئذ يكون الوضع خطيراً وأليماً بالنسبة لنصف الكرة الغربي . ولقد وصف الرئيس أيزنهاور هذا الموقف في التقرير الأخير الذي قدمه بوصفه رئيساً للجيش في عام ١٩٤٨ في الكلمات التالية :

« ستصبح سلامة أمريكا معرضة لخطر داهم ، وسنجد أنفسنا ، خلال المحيط الضيق والحواجز القطبية ، أمام عازل استبدادي هائل ينتشر أمام

وخلف مناطق أوراسيا التي كانت تشغلها الإمبراطورية الرومانية ، وفارس القديمة ، وملوك الجرمان وأباطرة المغول .

### القوة البحرية والجوية :

أما العنصر الثانى الذى يتلو الفنون فى الإنتاج ويمكن أن يحقق النصر للغرب ، فهو التفوق البحرى الذى لن يلبث إن عاجلاً أو آجلاً — فى أية حرب طويلة الأجل — أن يقترن بتفوق جوى مماثل .

لقد انقضى أكثر من قرن منذ أن كتب الأدميرال « ماهان Mahan » كتابه حول « أثر البحر على التاريخ » ، أما اليوم فإن القيمة النسبية للأسطول البحرى والجيش والقوة الجوية فى الأعمال الحربية الحديثة ، مازالت موضع جدل هام ، وغالباً ما تستخدم هذه المناقشة نتيجة للمنافسة بين العاملين فى هذه الأسلحة ، وبهذا تضطرب المعايير ، ويتعذر تقدير مدى مساهمة كل سلاح فى النصر فى أية حرب أو حملة ، طبقاً للمعايير الأساسية التى وضعها « ماهان » ، فإن « ماهان » لم يزعم قط أن الأسطول يفوق الجيش ، بمعنى أن أحدهما يستطيع أن يهزم الآخر ، وأنه فى الإمكان الانتصار فى الحروب بالأسطول البحرى فقط ، ولكن ما أثبتته فعلاً هو أنه ، على مر التاريخ ، كانت الشعوب التى تتمتع بالتفوق البحرى هى التى تكسب الحرب على غيرها فى النهاية ، حتى لو كانت الأخيرة تملك جيوشاً قوية . وليس سبب ذلك أن الأسطول يستطيع أن يهزم الجيش ، وإنما لأن الجيش ، مهما كان ظافراً ، تنتهى حدوده الطبيعية عند ساحل البحر عادة ، ومن ثم فإنه لا يستطيع أن يسيطر على الساحل ما لم يكن يملك التفوق البحرى ، أما الخصم الذى

يملك هذا التفوق فيمكنه ، من ناحية أخرى ، أن ينسحب في أمان وراء المياه ، ويتلاعب بالوقت إلى أن ينشئ جيشاً متفوق القوة ؛ وفي الوقت ذاته يزعم القوة البرية الموجودة على الساحل طوال الوقت ، ويقطع عنها الإمدادات من الرجال والعتاد فيما وراء البحار ، وهي الإمدادات التي سيحتاج إليها الجيش البري حتماً على طول المدى . وعندئذ تكون القوة البرية دائماً في عجلة من أمرها ، بينما يكون الزمن دائماً في جانب القوة البحرية ، ولهذا فإنها تستطيع الانتظار ، واختيار اللحظة التي يتفوق فيها جيشها البري ، لأن النصر تحوزه دائماً الجيوش البرية .

لكن : هل لا تزال هذه القاعدة القديمة محتفظة بصحتها في عصر الجو والذرة؟ . يبدو بالنسبة للجزء الأول من السؤال أنه ليس من الضروري أن نجيب عليه ، لأنه ليس من المحتمل — إذا نشبت الحرب العالمية الثالثة — أن يعاني الغرب من نقص خطير في القوات الجوية فترة من الوقت في البداية . ويبدو أن الموقف — كما سيكون عليه إذا نشبت حرب عالمية ثالثة — هو أن يبدأ أحد الجانبين بالسيطرة على البر ، بينما يسيطر الجانب الآخر ، بتفوق مماثل ، على البحر ، ولن تكون لأحدهما السيطرة الساحقة في الجو .

وبغير التعرض لتحليل تفاصيل تجربة الحرب العالمية الثانية ، يجب أن نقرر أنه لم يكن هناك انتصار واحد في هذه الحرب يمكن أن يعتبر نقطة التحول الرئيسية فيها (بغض النظر عن الانتصارات النهائية) ، معركة بريطانيا ، ومعركة الأطلسي ، ومعركة العلبين ، وغزو شمال أفريقيا ، وغزو أوروبا ، وبيزل هاربور ، ومعارك بحر الكورال ، وميدواي — لم يكن من الميسور

كسبها بغير التفوق البحري ، وبغير توافر القوة الجوية السكافية لمنع العدو من السيطرة على الجو ، ويبدو أنه حتى في الحرب الأخيرة — بغض النظر عن الدور الهائل الذي لعبته القوة الجوية — توقفت نقط التحول ؛ على السيطرة على البحار مع تغطية كافية من الجو ؛ وهكذا لم تستطع القوة الجوية ولا الجيوش البرية وحدها أن تحول المد .

وإذا نشبت الحرب العالمية الثالثة ، فسوف تكون التجربة أكثر ضخامة مما يمكن تصوره ، بالنسبة للأهمية الحاسمة التي ستكون للقوة البحرية ، نظراً لأنه من المرجح أن تكون القوة متساوية لدى الجانبين ، مع زيادة طفيفة هنا أو نقص طفيف هناك بعد المرحلة الأولى على الأقل ( وهذا برغم تفوق الشيوعيين في الرجال ، وتفوق الغرب في قاذفات القنابل ) . ومن الواضح أنه من المفروض أن يتم التفوق العددي في البحر لصالح أساطيل الدول الديمقراطية في تلك المرحلة ، بصرف النظر عن العقبة الهائلة التي تتمثل في الغواصات السوفيتية .

أما النقطة الثانية التي يكتنفها الشك فهي : هل سيقضى استخدام الأسلحة الذرية على تأثير القوة البحرية ؟... إن الرد النهائي على هذا السؤال لا يمكن أن يعرف إلا أثناء الحرب ذاتها ، لأن الحرب الماضية لم تنهـ . لنا أية تجارب عن تأثير الأسلحة الذرية على القوة البحرية ، وكل ما يستطيع المرء أن يقوله الآن هو أن الاختبارات التجريبية التي تجرى في الوقت الحاضر تشير إلى أن القنابل الذرية لن تقضى على قيمة البحرية .

وهنا يعرض لنا سؤال ثالث أقل صعوبة في إجابته ، وهو : هل اتساع

المناطق التي يسيطر عليها الأعداء يقضى على تأثير القوة البحرية ؟ . . . لقد أشرف هتلر، حينما بلغ أوج مجده، على ما يشبه مثلثاً يمتد من جبال البرانس إلى البحر الأبيض، فالقوقاز، ودارت المجادلات فترة ما بداخل معسكر المحور حول الإقامة غير المحدودة بداخل هذه القلعة وحصر الحرب والاكتفاء برد هجمات العدو، ولكن هذا النظام لم يثمر .

وإذا شملت الحرب العالمية الثالثة المنطقة الحالية لكل من المعسكرين المتعارضين، فستكون الأراضي التي يسيطر الشيوعيون عليها أكبر مما حدث في التاريخ . وحتى إذا لم ينجح الشيوعيون في التوسع إلى ما هو أبعد من ذلك فإن الأراضي التي يسيطرون عليها ستشمل منطقة تمتد من جبال الالب إلى الباسفيك، ومن القطب الشمالى إلى جبال الهملايا، ويبلغ تعداد سكان هذه المنطقة ٧٧٠ مليون نسمة .

إلا أن أرقام إنتاج بعض السلع الضرورية التي ذكرناها من قبل في هذا الفصل، تدل على أن هذه المنطقة - برغم اتساعها الشاسع - ستفتقر بشدة، إلى حد كبير، إلى إمكانيات الحرب في قطاعات معينة، ما دامت لا تملك :  
( أ ) الإمكانيات الصناعية، والتدريب، والعمال المهرة الموجودين في أوروبا الغربية ( ب ) بترول الشرق الأوسط، ( ح ) قصدير ومطاط جنوب شرق آسيا . . . ومن ثم فإنه من الضروري جداً أن تسيطر الشيوعية على هذه المناطق الثلاث، ومن الضروري جداً أيضاً أن تحول الديمقراطيات دون هذه السيطرة، ذلك لأنه إذا وقعت هذه المناطق الثلاث الهامة في أيدي الشيوعيين، فلن يكون هناك سبب يمنع العالم الشيوعى، من حيث اتصال الأمر بالموارد، من أن يتفوق إلى النهاية، وهنا لن تكون للتفوق البحرى

أية فائدة تذكر إزاء مثل هذه القوة البرية الهائلة . لكن مهما يكن من الأمر، فستظل للقوة البحرية فائدتها إزاء قوة عملاقة كهذه، لأن القوة البرية لا يمكن أن تغزو العدو عبر البحار التي لا تسيطر عليها، أو عن طريق مجال جوى لا تسيطر عليه، بينما تستطيع القوة البحرية أن تختار المكان والزمان المناسبين للغزو، وهذا الجانب الأخير من السيطرة على البحار يمكن أن يظل صحيحاً في المستقبل كما هو الآن، وكما حدث في عام ١٩٤٤ عندما تمت حركة النقل الجوى العسكرى على نطاق واسع .

وخلاصة القول أنه يمكن أن يقال: إذا نشب صراع هائل بين الدولة البحرية والدولة البرية - إن الأولى تستطيع - إذا أبدتها قوة جوية كافية - أن تحتفظ بمعظم تأثيرها التقليدى الحاسم مادامت القوة البرية قاصرة على الأراضى الشيوعية الحالية، وفي استطاعتها أيضا أن تحتفظ بقسط من تأثيرها حتى ولو وسع الشيوعيون رقعة هذه المنطقة وضموا إليها بعض المناطق الحساسة التي تنقصهم الآن .

\* \* \*

ولكن الحروب لا تكسب بالقوة المادية والعسكرية وحدهما، برغم ضرورتهما القصوى، فالحروب تكسب في النهاية بصلافة المحاربين ومثابرتهم، وتتوقف هاتان الصفتان على اقتناع المقاتلين بأنهم يقاتلون من أجل قضية جديرة بالتضحية إذا تطلب الأمر ذلك . وجميع الحروب الكبرى تصل إلى مرحلة من التوازن العسكرى إن عاجلا أو آجلا، وعندئذ تبدأ العوامل الفكرية والروحية تتحكم في النتيجة . صحيح إنها لا تستطيع أن تهزم المدافع والدبابات وحدها، إلا أنه عند ما يبطل مفعول المدافع

والدبابات ، فإن الروح هي التي ترجح كفة الميزان ، وليس في الإمكان إخماد الروح بالقوة الغاشمة ، فمع أن من الممكن أن تمزق طلقات الرصاص الجسم إرباً إرباً ، وأن تسحقه الدبابات ، إلا أن الروح تفلت دون أن تهزم لتبث الإلهام في قلوب المئات الباقية ، وفي النهاية تكسب « الروح » المعركة .

وهذه هي الحقيقة الأساسية التي تغاضى الدكتاتوريون عنها في جميع الأزمان ، إنها الروح التي تطاردها شرطتهم السرية لأنها تفلت من أوامرهم ، ومن معسكرات اعتقالهم ، ومن أتون نظامهم .

وما دامت تبقى نفس واحدة حية ترفض أن تخضع للقوة الغاشمة ، سواء أكانت قوة حزب أو دولة ، فلن تنطفئ الروح الخلاقية ، بل سوف تنهض يوماً مرة أخرى ، لتلهم الرجال وتشجعهم على أن يتمرّدوا ضد الطغيان . وفي الصراع مع الشيوعية ، تقف إلى جانب الديمقراطيات قوتان تلعب الروح فيهما دائماً دوراً كبيراً ، وتتحطم عليهما جميع الدكتاتوريات . . . هاتان القوتان هما : الحرية ، والدين .

### الحرية :

منذ وجد البشر والإنسان تواق إلى الحرية : حرية الحق في الحياة ، وحرية التفكير ، وحرية العبادة حسب معتقداته ، فقد وهبه الخالق حق الحياة الذي لا يقبل التحول ، وحق الحرية ، وحق البحث عن السعادة . ولقد اكتسب هذا المثل الأعلى القديم معنى جديداً في عصرنا . . . إنه يعني التحرر من عيوب الحكم الجماعي ، مثل مهاجمة المنازل ليلاً ، والرحيل منها إلى غير رجعة ، وتجسس الأبناء على الآباء ، وتجسس الزوجات على الأزواج ،

والخوف من التلفظ بكلمة تثير غضب الحزب ، ومعسكرات الاعتقال ،  
وألوان التعذيب التي بلغت الذروة من ناحية التفنن العلى .

ولهذه المفاهيم معنى ضئيل بالنسبة لمن تمتعوا حتى الآن بامتياز  
الإفلات بجلاهم من الحكم الجماعى ، ولكن معناها أشد من ذلك مرارة ، بالنسبة  
لمن لم يكونوا على هذا القدر من حسن الحظ ، فهؤلاء يصلون يومياً ، اللهم  
امنحنا الحرية ، وصلاتهم تلك أكثر ضرورة لديهم من التضرع ، اللهم اعطنا  
قوت يومنا ، إنها لمأساة فيما يتعلق بالحرية أن يضم نداء الحرية دائماً تحت  
لوائه كل الذين يتوقون إليها ، غير أنهم حين يحرزون النصر وتحقق  
أهدافهم ، سرعان ما يتفككون ، ونحن الذين أصبحت الحرية عندنا كالماء  
المتدفق من ينبوع ، يجب علينا أن نعلم أنفسنا أن الحرية كنز يستلزم يقظة أبدية .  
وقبل كل شيء ، يجب علينا أن نعلم أن تلك الحرية مهددة اليوم بشكل خطير لم  
يسبق له مثيل ، لأن التهديد الحالى يأتى من نزعات مذهبية تتخذ من العالم كله هدفاً  
لها ، فإذا انتصرت ، فلن يكون هناك مهرب منها . . . إنها سترافقك  
فى الطريق ، وستلازمك فى غرفة نومك ، وستطالبك بالطاعة التامة ،  
وبكل ذرة من نشاطك وتفكيرك وقلبك . . فإذا أدركنا هذا الخطر ،  
وأوضحناه تماماً للعالم ، فستكون الحرية أقوى إنها حليف لنا ، حليف قديم قدم  
الدنيا نفسها ، غير قابل للهزيمة .

يقول هيرودوت : إن أحد الأسباب التى جعلت اليونانيين ينتصرون  
على الفرس ، برغم تفوق الفرس العددي ، أنهم شعروا بأن دعايا أى  
طاغية لا يستحقون أن يكونوا أنذاذاً لمواطنى الدولة الحرة ، لأن هؤلاء  
لا يدينون بالطاعة إلا لقانون يفرضونه على أنفسهم .

## الدين :

سوف يشد أزرنا ، إذا نشبت حرب عالمية جديدة ، حليف آخر ، هو الدين . ذلك لأن الدولة الجماعية التي لا تستطيع أن تحتل أى ولاء إلا لها ، عدو لدود قاتل للدين ؛ فهي لا تستطيع أن تعترف ، مضحية بالولاء لها ، بأن الروح تدين بطاعتها الأخيرة لخالق العالم ، ومن ثم فإن جميع المذاهب الدينية فى الصراع بين العالم الحر والشيوعية ، لا تستطيع إلا أن تقف فى النهاية فى وجه العقيدة الزائفة « الشيوعية » التى تحاول أن تحتل مكانها ، وينطبق هذا القول على الكنيستين البروتستانتية والكاثوليكية ، والإسلام والبوذية على السواء . أما بالنسبة لنا ، نحن الذين ننتمى للحضارة الغربية فإن الوصايا التى نشرت منذ ألفى سنة مضت والتى تأمرنا بحب الجار مازالت أحسن لدينا من الوصايا الشيوعية التى نشرت منذ مائة عام ، والتى تقضى بالكراهية وبالبعضاء إزاء طوائف معينة من المجتمع .

وإنه لمن المزعج أن نقول إن الأساس الدينى لحضارتنا لا يذكر فى بعض الدول بالقدر الذى تذكر به الديمقراطية باعتباره أحد أعمدة مذهبنا الرئيسى ، ومع ذلك فإنه أساسى أكثر منها وأكثر عمقاً . إن العقيدة الدينية متأصلة فى جذور ديمقراطيتنا ، فإذا أهملنا هذا الأساس ، فإن الحضارة الغربية ستصبح كالأسنان التى ماتت أعصابها ، فتبدو ، فى الظاهر أسناناً صحيحة ، ولكن تحللها لا يلبث أن يتم بعد فترة من الوقت . وبغير هذا الأساس الروحى ، لن تستطيع الحضارة الغربية أن تقف على قدميها داخل مملكتها وخارجها أمام الجماهير ، تلك الجماهير التى تعتبر الروح عندها أكثر قيمة من الديمقراطية أو الرخاء المادى .

## - ١٥ -

### مصير أمريكا

إن عظمات التاريخ واضحة ، فالحضارة الغربية في سبيل الدخول إلى طور جديد ، هو فترة حضارة العالم الواحد ، وحضارة السلم العريض ، وفي جميع الحضارات كانت تلك المرحلة هي الأخيرة ، ومن الممكن أن تكون أيضاً أعظمها إذا قيست العظمة بأعظم الخير لأعظم عدد ، ويمكن أن تكون كالعصر الأول في روما ، أو الامبراطورية الوسطى والجديدة في مصر القديمة ، فإن قيمتها بالنسبة للإنسان المعاصر والتاريخ ، وكذلك استمرارها - يتوقفان على قوتها الداخلية وقوتها الخلاقة .

وفي هذا العالم الواحد ، قدر التاريخ للولايات المتحدة أن تلعب دور الترويج سواء عن طريق السلم أو عن طريق الحرب ، ومن الإنصاف أن نقول إنها لم تكن راغبة في القيام بهذا الدور الذي فرض عليها بقوة الظروف ، ويجب أن نقول أيضاً إنه حين تحققت أمريكا من ذلك ، وأجبرت على القيام بهذا الدور القيادي الثوري ، سارعت بشكل ملحوظ إلى موازنة نفسها معه . ولقد قلنا ، في الصفحات الأولى من هذا الكتاب ، إنه بصرف النظر عن النقد والأخطاء ، فإن سياسة الولايات المتحدة الخارجية بعد الحرب العالمية الثانية ، أظهرت تطوراً وتجديداً غير معروفين في التاريخ ، وأن القوة الخلاقة الواضحة في هذه الصفحات لتفتح احتمالات لا حدود لها .

ومن الناحية الأخرى ، توجد عشرات كثيرة أمامها ، فليس هناك ما هو أسهل من أن تسقط دولة تلعب دور الزعامة — غير المشكور — من أن تتعثر نتيجة لتجاهل بعض الشروط الأساسية التي يتوقع الجميع منها أداؤها .

### مقتضيات الزعامة

ينبغي ألا ننسى إطلاقاً أن جميع القيادات ، وعلى الأخص القيادة الديمقراطية ، تستمد سلطتها من موافقة الذين تتولى قيادتهم ، وليست هناك قيادة في التاريخ ، سواء أكانت قيادة ديكتاتور ، أو ملك ، أو طبقة ، أو دولة ، بقيت بعد أن فشلت في الاستئثار برضاء أتباعها . . إن فكرة «تويني» عن الأقلية الخالقة التي توجه أغلبية مستجيبة تنطبق على مجموعة الدول ، كما تنطبق على مجموعة المواطنين .

إن دول العالم الديمقراطية الأخرى واقعية بدرجة تكفي لأن تدرك أن الولايات المتحدة التي تسهم بقوة سياسية وعسكرية واقتصادية أكثر مما تسهم به أية دولة أخرى ، يجب أن تتولى زعامة هذه الدول ، بيد أن ما تخشاه هذه الدول ، وما تستنكره وتقاومه بشدة ، هو أن تحكمها الولايات المتحدة بدلاً من أن ترشد لها ، وأن تفرض عليها إرادتها ، بدلاً من أن تتعاون معها . وتنظر هذه الدول إلى الولايات المتحدة على اعتبار أنها دخيلة ، وأنها — أي هذه الدول — لم تحارب طغيان دول أخرى لتقع تحت نير ديكتاتورية مافي مجتمعا الخاص . والسؤال الهام هو: هل ستتبع هذه الدول زعامة الولايات المتحدة بمحض اختيارها نتيجة لاقتناع داخلي ، أم ستقبلها

على كره منها تحت ضغط الضرورة ؟ ... إن الإجابة على هذا السؤال تتوقف على تجنب الولايات المتحدة لأخطاء معينة كالتى وقعت فيها القيادات العالمية السابقة ، وبذلك تجعل قيادتها مقبولة .

### القيادة الروحية :

إنها أول المقتضيات وأهمها شأنًا ، فإن انطباع القوى الموجود في أذهان العالم الآن ، يوحى بأن قيادة أمريكا تقصر عملها على تقديم منح من المساعدة المادية ، ومحاولة تحسين أحوال المعيشة .

ونحن أبعد الناس عن التقليل من أهمية هذين العاملين : فمشروع مارشال لمساعدة أوروبا مثلاً ، كان مساعدة لا غنى عنها في إصلاح اقتصاد هذه القارة بعد الحرب ، بل إن رفع مستوى معيشة الملايين الذين مازالوا يعانون أخطار التباين بين الفقر والقدارة — كما سبق أن أشرنا — ليعتبر واحداً من التحديات الثلاثة الرئيسية التي تواجهها الحضارة الغربية ، ومن ثم فإن تهيئة الطعام الذى يأكلونه ، والمسكان الذى ينامون فيه هى السبيل الوحيد للتغلب على الإحساس الذى يراودهم بالحرمان ، وهى السبيل لإثبات أهمية نظامنا الاقتصادى بالنسبة إليهم .

غير أن واحدة من هذه الخطوات لن تكفى لكسب أمة ما ، فليست هناك أمة ، أو إنسان ، يقبل توجيهاً من آخر بمجرد أن هذا الآخر أكثر ثراءً ، ولأنه يعرض عليه أن يشركه في بعض هذا الثراء ، بل على العكس ، إذ الحقيقة المرة هى أنه يبدو ، بين هذين الدول ، كما يبدو بين الأشخاص ، أن ذلك يبعث على النفور أكثر مما يبعث على الشكر والتقدير .

ولسوف يُجذب الناس ، ولكنهم لن يتأثروا بالأمل في الحصول على مزيد من أدوات الزينة أو الثلاجات الكهربائية، ومن ثم لن تكسب أمريكا المعركة من أجل الاستئثار بعقول الملايين عن طريق مجرد إفهامهم بأن الولايات المتحدة ستقدم لهم الآت أحسن ، أو سيارات أسرع ، وبالأخص في قارات كأوروبا وآسيا حيث كانت للروح دائماً المنزلة العليا . . وينطبق هذا القول ، بصفة خاصة ، على المنافسة مع غريم نيجح في مزج دعايته بصورة وردية اللون عن مجتمع لا طبق بأيديولوجية تحتل محراب الدين . وأمام هذا الدين المزعوم ، كان السبيل الوحيد لانتصار الغرب هو أن يقدم شيئاً أكثر من مجرد الخبز والتلفزيون .

وهذا الشيء الذي يملكه الغرب هو قيمتان روحيتان راسختان في أساسه ، ولن يتغلب عليهما شيء بعد، هما : الدين والديمقراطية . وفي الصورة الأمريكية التي تعرض على العالم اليوم ، تبدو الديمقراطية أكثر وضوحاً من الدين، غير أن الدين أساسى تماماً كالديمقراطية ، ليس فقط بالنسبة للحضارة الغربية ، وإنما لكل فرد تريد أن تقنعه بالديمقراطية ، فإن الروح البشرية لا تسكتني بالوقوف أمام ما تدركه العين ؛ ذلك لأن العيون لا تسكتني بما ترى ، والأذن لا تسمع بما تسمع . . . وينطبق هذا القول على سكان « كييف » انطباقه على سكان « سانتياجو » ، أو « تمبكتو » ، وهكذا ، فإن قوة الإيمان الروحي في الغرب ، وأيديولوجيته الديمقراطية هما السبيل الوحيد الذي يمكن الغرب من مواجهة التحدي الهائل لسيانته في الوقت الحاضر .

### احترام استقلال الآخرين :

على الرغم من أن كلمة « سيادة » مازالت تستعمل في مجال الوصف السياسي، فإن دلالتها الأصلية قد انطفأت في عالمنا الراهن نتيجة لترايط المصالح المتزايد ، فإن دولا قليلة من بينها الولايات المتحدة وروسيا ، هي التي تستطيع اليوم أن تتخذ قرارات دون أية مبالاة بالدول الأخرى .

وفي الوقت ذاته من الضروري ، في العالم الواحد القادم ، ألا تتلاشى جميع الأمم وتندمج في كتلة واحدة متجانسة ، فمن الوجهة السياسية ، ستحدث كارثة مخيفة إذا تركزت السلطة كلها في مكان واحد بغير أن يكون هناك ثقل مواز لها . ومن الناحية الاقتصادية أيضا ، يمكن أن يصبح الموقف غير متعادل وغير متوازن كما حدث بعد الحرب العالمية الثانية إذا عجزت مناطق كبيرة عن المحافظة على توازنها الاقتصادي واضطرت إلى الاعتماد على المساعدة الخارجية . ومن الناحية الروحية ، سيعنى ذلك تجميد الحضارة الغربية إذا جفت الموارد الكثيرة التي نبعت منها ، واستبدلت بصنبور واحد يقطر الماء النقي ، ذلك لأن التنوع كان دائما بمثابة النبع الرئيسي لثقافتنا ، ومن ثم فإن التطابق الكامل يعنى نهايتها .

ولعله من المفيد أن نعود هنا إلى أحد القوانين التي وضعها دانييلفسكي منذ قرابة قرن مضى .. لقد قال :

« تصل الحضارة إلى أوجها واكتمالها ، وتنوعها ، ودسمها ، فقط عندما تنوع مادتها الإثنوجرافية ، وعندما لا تفلح قوة سياسية واحدة في ابتلاع هذه العناصر الإثنوجرافية ، فتظل بذلك متمتعة بالاستقلال وتقيم نظاما سياسية مستقلة أو متحدة »

وحينما طبق دانييلفسكى هذا الاختبار على الواقع ، قال إن أغنى الحضارات وأكثرها امتلاء هي — حتى الآن — حضارة اليونان والأوربيين ، وذلك بسبب تنوع « ماداتها » الإثنوجرافية ، وبسبب استقلال الوحدات السياسية العادية التي بنت هذه الحضارات ودعمتها .

إن دور الدولة الزعيمة بين الشعوب كما هي الحال بين الرجال ، دور شاق لا يقابل بالشكر ، بل يوجه إليه نقد مرير ، مبالغ فيه وغير معقول ، أما التقدير فهزيل وغير واضح ، لأن الشعور بالرضاء لا يتحقق إلا عن طريق الإحساس بانجاز الواجب التاريخي ، وليس من الممكن توقع الحكم المنصف إلا بعد انقضاء عصرنا ، أو في عالم آخر غير عالمنا هذا .

غير أن عدم العرفان بالجميل ، وعدم التقدير الذي لا بد أن تلاقيه الدولة الزعيمة القائد ، يجب ألا يدفعها إلى تجاهل النقد وفرض إرادتها ، لأن الزعامة الحقيقية تقوم على الإقناع لا على القسر . ولقد عرفت بعض الأمم القيادية في التاريخ — كالرومان والبريطانيين — التي احتفظت بإمبراطوريتها عدة قرون بعناصر متغيرة ، عرفت قيمة هذه الحكمة . وفي أغلب الأحوال كانت هذه الدليل القيادية تستخدم للمكر والخداع ، بل القسوة في بعض الأحيان ، غير أنها استطاعت أن تحكم في النهاية بعد أن استأثرت برضاء المحكومين ، وليس من شك في أن ذلك يستلزم كبها هائلا — بل خارقاً — للنفس . وهذا الميل قوى بالنسبة لأي شخص يعرف أنه سيضطر في النهاية إلى تحمل نتائج فرض إرادته ، فالرجل الذي يدفع « الفاتورة » يعذب دائماً دراسة المصروفات ، ورغم ذلك فهو إذا ما دخل شريكاً في أي مشروع ، عمد إلى التزام الحكمة

والحرص الشديدين ، ولذلك فإنه لا يقدم على أى عمل إلا بعد أن يتشاور مع شركائه؛ لأنه يحترم شخصياتهم ، وفوق كل شيء ، فإنه لا يحاول أن يشكلمهم على النحو الذى يريده هو .

إن القيادة الحقيقية تخلق ما يطلق عليه توينبى « المحاكاة » ، وهو تقليد اختياري من جانب الاتباع . ولهذا فإن فى الإمكان رؤية أمريكا اليوم فى ألف جانب صغير من الحياة اليومية الحافزة فى جميع أنحاء العالم : فى أكشاك الصحف الجديدة فى باريس المكتظة بمجلات لايف وتايم ولوك ؛ وفى حفلات الكوكتيل فيما بين سنغافورة ولشبونة . ومع أن الناس فى الخارج كانوا يشمئزون من لدغة السجائر الأمريكية فى أحد الأيام ، فإنهم يعتبرونها اليوم أثمن ما يمكن تقديمه من سجائر ابتداء من رأس الرجاء الصالح حتى القطب الشمالى . وتحتل هوليوود مركز الصدارة فى دور السينما بجميع أنحاء العالم وحتى فى الدول « المعادية للاستعمار » — فى قارة آسيا — يجد الإنسان أن أهم علامة تميز النجاح هى امتلاك سيارة كاديلاك ، ولقد كان أول شيء صادف مؤلف هذا الكتاب عند وصوله إلى بانجكوك للبحث عن الجمال الفنى فى سيام هو عربات نقل ضخمة محملة بزجاجات الكوكاكولا ١١.

ومادام هذا التغلغل السلبى الذى تمارسه العادات الأمريكية ناتجاً عن عملية التقليد والمحاكاة الطبيعية ، فستعتبر عملية لا مفر منها ولا اعتراض عليها من وجهة نظر القيادة الفعالة ، برغم أن فقدان الخصائص القومية والمحلية قد يكون أمراً مؤسفاً للغاية من وجهة النظر الثقافية . هذا وتعرض القيادة للخطر عندما تحاول « الأقلية الموجهة » فرض وجهة نظرها وعاداتها . ومن الجائز أن يحدث ذلك مثلاً ، إذا حاولت أمريكا أن تفرض فى كل مكان ،

طراز الاقتصاد المعمول به في أمريكا بكل دقة وصرامة ، أو إذا حاولت إلغاء جميع نظم الحكم الملكية باعتبارها مظاهر لا تلائم العصر .

ومثل هذا الإجبار دون مراعاة للتقاليد القومية ، لا يجعل الحضارة أكثر فقراً وبالتالي أكثر ضعفاً فحسب ، بل يثير النفور من أمريكا في الوقت ذاته ، لأن احترام الأغلبية لحقوق الأقلية وخصائصها ، كاحترام الحاكمين لحقوق وخصائص المحكومين ، هو جوهر الديمقراطية .

لقد استخدم الإسكندر عبقريته الفذة لإيجاد توازن سليم بين نظام الحكم الاستعماري المتطرف والحكم الذاتي في السياسة اليونانية ، ومن ثم يجب على السياسة الأمريكية أن تتحمل كثيراً من المشاق والمتاعب الخطيرة إذا هي رغبت في أن تحقق القيادة السليمة لأن هذه القيادة تتطلب النجاح في تحقيق التوازن بين إرشاد الآخرين واحترام استقلالهم .

### المثل الحى :

هناك عثرات كثيرة بالطبع يبتها تجارب الحضارات الماضية :  
فالفساد هو أحد الأمراض التى نسفت الهيبة فى الطور الأخير من المجتمع وأكثر من ذلك خطورة ، أنه نسف النسيج الخلقى للدولة القائمة .

والثروة ، إذ تتمتع بها — بجزارة — أقلية صغيرة ، أو يحتجزها كثيرون فترة طويلة ، تكون بمثابة حشية مريحة تنام فوقها إحدى الدول الكبرى ثم سرعان ما تفقدها . وليس من المستحب أن نقول إن السعى وراء الرخاء أصبح غاية الحياة ، ومع ذلك فإنه من الضروري أن نقول ذلك ، لأن طريق التاريخ مفروش بهياكل

حضارات لم تستيقظ في الوقت المناسب ، حضارات ماتت من النخمة  
لا من المسغبة .

والمنافسة الشخصية بين القادة — وهي التي حلت محل الحروب القومية  
السابقة التي كان الرجال يبدون فيها استعدادهم للموت في سبيل مثلهم العليا  
أو في سبيل بلادهم — قد أصبحت خاصة بمائلة من خصائص المرحلة النهائية في كل  
حضارة ؛ هذه المرحلة التي تتوقف عظمتها ودوامها إلى حد كبير ، على مدى  
إبقاء قواعد الحضارة الأساسية حية ، وإخضاع المطامع الشخصية للصراع  
بين الأفكار ؛ هذا الصراع الذي يعتبر خاصية من خصائص كل حضارة حية .

#### خطر احتكار السلطة السياسية :

إن استمرار ممارسة السلطة الاقتصادية أو السياسية بغير منازع ، وبلا  
منافسة أو احتمال تغيير ، خليف بإذابة القوة التي تمارس هذه السلطة ؛ ذلك أن  
« السلطة المطلقة تخلق فساداً مطلقاً » . وينطبق هذا القول على مجتمع الشعوب  
انطباقه بداخل دولة واحدة . ومن ثم ، سوف تخسر الولايات المتحدة  
والحضارة الغربية الشيء الكثير إذا احتكرت الولايات المتحدة السلطة  
بلا منازع أو منافس ، لأن السلطة الاحتكارية خليفة بأن تثبت مكاتها  
لمصلحتها الخاصة أو لمصلحة من يتمتعون بها ، بدلاً من الاهتمام بمصلحة  
الشعب ، كما يتبين من تاريخ جميع الديكتاتوريات ، وهذا هو السبب الذي  
نحارب من أجله حكم نظام الحزب الواحد منذ عدة سنين ، وهو أيضاً  
السبب في أن كونجرس الولايات المتحدة يحذر من الاحتكارات الاقتصادية :  
وفي العالم الغربي الواحد لم يعد في استطاعة المنافسة أن تأخذ شكل

المصادمات العسكرية، غير أن ذلك لا يعنى أنه ليست هناك منافسة وليس هناك نوع من توازن القوى بداخل العالم الغربى وخارجه ، فلسوف تصبح الهند والصين وروسيا وأمريكا اللاتينية ومراكز جذب اقتصادية وسياسية . أما المنطقة الطبيعية للتوازن المضاد بداخل العالم الغربى ، فهى أوروبا . وقبل أن تتعرض لمناقشة الدور الذى يجب أن تلعبه أوروبا كثقل مقابل لأمريكا ، يجب أن تؤكد أهمية عامل حيوى آخر من عوامل زعامة أمريكا لأوروبا :

### صيانة التراث المشترك مع أوروبا :

إن أوروبا هى مصدر الحضارة الغربية ، ليس فقط لأن هذه الحضارة نشأت فى إيطاليا وفرنسا فى القرون الوسطى ، وليس فقط لأن سكان شمال وجنوب أمريكا جاءوا من أوروبا وإنما لأن جذورا كثيرة للحضارة الغربية ما زالت فى أوروبا حيث يوجد كثير من قواها الخلاقة التى لا تزال تؤدى عملها كما تبين لنا عندما حللنا تلك القوة فى القسم الثانى من هذا الكتاب . . . إنها فعالة وقوية كالقوى الاقتصادية والسياسية البحتة التى انبعثت فيها الحياة فى التربة الأمريكية ، ولسوف تكون تحسرة لا يمكن تعويضها إذا ما فصلت هذه القوى الأمريكية عن جذورها الأوروبية ، وإذا ما فقدت الفوائد التى تجنيها من جراء التأثير المتبادل بين هذين العاملين .

وقد تعيش أمريكا فترة من الوقت كدولة قوية جذابة ، ولكنها لن تستطيع ، شأنها فى ذلك شأن الدول المائلة فى الحضارات السابقة ، أن تغلب على الانفصال عن جذورها ولو أنها انفصلت عن هذه الجذور ، لأصبحت مجتمعا رائعا ولكنه متحجر : حضارة براقه تنساب عبر التاريخ كظاهرة لامعة ، وكالشهب التى تحرق نفسها ، لأنها انفصلت عن النار التى ولدتها .

## — ١٦ —

### دور أوروبا

لقد حان الوقت لنقدر ما تملكه أوروبا - لامن ناحية الممتلكات ، لأنها من نتاج الماضى . ولكن من ناحية الإمكانيات الخلاقة التى سوف تحدد مستقبلها - ولنقدر الدور الذى تستطيع أن تلعبه فى وحدة العالم الغربى :

يمكن أن نستخلص من نظام القوى الخلاقة التى عددناها فى الفصل العاشر أن أوروبا بعيدة عن درجة الإنهاك فى المجال الثقافى ، وأنها مازالت تنتج بنشاط ، فالهندسة المعمارية والموسيقى والسينما والكتب التى أنتجتها فى العقود الأخيرة ، دليل على حيويتها فى المجال الفنى ، ويبدو أنه لا بأس علينا إذا افترضنا أن أوروبا الغربية ستظل ، إلى وقت لا بأس به ، مصدراً رئيسياً للحضارة الغربية فى المجال الثقافى حتى ولو اضمحلت أهميتها السياسية والاقتصادية أكثر من ذلك ، هذا إذا لم تتحول أوروبا الغربية مرة أخرى إلى مسرح لمعركة تدمرها بحيث لا تقوم لها قائمة بعد ذلك ... فبنفس الطريقة ، بعد عهد الإسكندر الأكبر ، عم النفوذ اليونانى الأجزاء الشرقية والغربية من العالم القديم ، وكان لأعمال الإسكندر السياسية ، أثرها فى ضم مملكته المترامية الأطراف وجعلها وحدة ثقافية واحدة ذات لغة وفن وتنظيم سياسى مشترك ، وساد النفوذ اليونانى فى هذه المنطقة كلها .. وفى الامبراطورية الرومانية الشرقية بقى هذا النفوذ قائماً حتى بعد انهيار روما بألف عام ،

ومع أن ثقافة اليونان انتشرت في جميع أنحاء العالم ، فإن جذور النبات نفسه كانت قد ماتت .

فهل ترضى أوروبا بأن تجتاز مثل هذا الدور ؟  
ليس هناك ما يحملها على ذلك ، فإن القوى الاقتصادية والسياسية مكنتها من أن تخطو منذ قرون في طليعة دول ، ما زالت موجودة .

أما استمرار أوروبا في البقاء ، بوصفها عاملاً قيادياً في العالم ، يتوقف على قدرتها على تكييف نفسها ، طبقاً لضرورة التكامل ، فقد انبثقت حصيلة قوية مدهشة في أوروبا كلها للعمل في اتجاه هذا الهدف ، وأدت فعلاً إلى إنتاج ببيان معقد من التنظيمات ، ابتداءً من المجلس الأوروبي حتى حلف الدفاع الأوروبي . وهناك عقبات لانهاية لها تعترض سبيل نجاحها ولكن هذه القوى الخلاقة ما زالت قائمة وتتمتع بحياة قوية ، والأمم مرهون الآن بسرعة نجاحها لتأمين تكامل أوروبا الحرة ، واستعادة قوتها الاقتصادية والعسكرية في الوقت المناسب لإنقاذ القارة من نزاع عالمي جديد . . . إنه سباق ضد الزمن ، سباق ضد قوى العدوان ، وفي الوقت ذاته سباق ضد العوامل التي تؤدي إلى تدهورها ، فإذا نجحت أوروبا الغربية في كسب هذا السباق فعندئذ ، وعندئذ فقط ، ستصبح شعوبها التي يبلغ تعدادها ٣٠٠ مليون نسمة أنداداً لأمريكا لا يقدرون بشئ في مجتمع متوازن بشمال الأطلنطي . . . إتنا لا نفكر في خلق « قوة ثالثة » محايدة بين المعسكرين المذهبيين المتنافسين (أمريكا وروسيا) ، فستظل أوروبا تدافع دائماً عن مبادئ الحرية والديمقراطية التي ظلت تشكل دعم حياة حضارتها قبل أن توجد أمريكا بوقت طويل .

أما إذا أرادت أوروبا ألا تصبح مستعمرة لأمريكا ، فعليها أن تقرر

سياستها الخاصة وتكوينها الدستوى والاقتصادى ، وطرقها الخاصة فى الحياة ، ويمكن تحقيق هذا الهدف إذا تكاملت أوروبا سياسياً بدرجة تكفى لاتباع سياسة مشتركة ، وعليها أن تجعل الإنتاج والاستهلاك على نطاق واسع بدرجة كافية ، وأن تستقل عن المساعدة الخارجية . إنه لدليل ينطوى على أعظم الحكمة ، أن الولايات المتحدة لم تمارس ، مع أوروبا ، الحيلة الرومانية المتمثلة فى القول التالى : « فرق تسد » ، ولكنها حثتها على الوحدة .

وليس هناك ثمة خطر من حدوث صدام مسلح بين أوروبا المتحدة والولايات المتحدة ، لأن تشابك مصالحهما ووحدة مثلهما العليا كفيل بالحيلولة دون وقوع هذا الصدام ، إلا أنه من الضرورى ، كما سبق أن أشرنا ، للقيادة الصحيحة فى أى مجتمع ، أن يكون هناك ثقل مضاد لها ، قادر على تقديم النقد والمنافسة ، ومستعد لتولى زمام القيادة إذا دعت الضرورة لذلك .

« لبلوغ هذه الغاية ، سيكون من الضرورى أيضاً أن تضع أوروبا فى اعتبارها بعض المقتضيات الأخرى التى يخشى البعض التغاضى عنها فى هذه الأيام .

### عقرة التماثل الثقافى عند أوروبا

من الضرورى ، للإبقاء على علاقات أوروبا الطيبة بأجزاء العالم الأخرى ، ولأجل حيويتها الخاصة أيضاً ، أن يتخلى الأوروبيون عن اعتقادهم الفطرى بأن « ثقافتهم » أسمى من ثقافة أمريكا أو آسيا مثلاً ، فليس أبغض عند الأمريكين أو الآسيويين من المواقف الذى يتخذه الأوروبيون عادة - بلا وعى غالباً - نحو شعوب مناطق العالم الأخرى ، هذا الموقف الذى يتمثل فى اعتقادهم أنه من المفروغ منه أن الثقافة الأوروبية تقاليد أفضل ، وأنها أكثر عمقاً وتهذيباً من ثقافات الآخرين

ذلك أنه ليس هناك ما يبرر الافتراض القائل بأن المناطق الأخرى لا تملك القدرة على إنتاج ثقافات مماثلة، أو أنها لا تفعل ذلك في الواقع ، فإن ما بقي من حضارات الشرق العريقة في القدم التي طعمت بقوى من قوميتها الحديثة الولادة وبالأعمال الثقافية الأمريكية الجديدة ، يشكل تحدياً خطيراً لأوروبا حتى في الميدان الثقافي ، فليس في تاريخ الشعوب والحضارات شيء أدى إلى موت قوتها الروحية مثل ما أدى إليه الخرورو والإعجاب بالذات ، وليس هذا الموقف علامة التدهور فقط ، بل إنه — أيضاً — أصل التدهور ، فعلينا معشر الأوروبيين بين أن ندرك ، ذلك جيداً .

### عقدة القريب الفقير عثر أوروبا

يضاف إلى عقدة أوروبا المتمثلة في الشعور بالتعالى الثقافي ، وهو شعور قديم ، شعور آخر ولد منذ الحرب العالمية الثانية ، هو «عجزها» عن التخلص من اعتمادها على المساعدة الخارجية .. بل إن هناك ارتباطاً معيناً بين الاثنين ، من حيث أن الإحساس بفقدان الزعامة الاقتصادية دفع كثيراً من الأوروبيين إلى البحث عن تعويض في شكل إحساس مغرور بسمو ثقافتهم الخاصة ، وفي موقف كهذا ، يكون الاتجاه البشري دائماً نحو المعاذير التي تتمثل فيما يلي : لو قابلتني نفس الظروف المواتية لحقت نجاحاً أكثر .. واسكن الخلاص الحقيقي للشعوب العريقة مرهون بقدرتها على موازنة قيمها مع الظروف الجديدة ، وأن تعمل على أن تحقق ما يحققه الآخرون ، بل مثل ما حققه أجدادها الأولون .

وليس هناك ما يقتل المبادأة مثل عادة الرجوع إلى الآخرين

في طلب المساعدة الاقتصادية والمالية . فمن الجائز أن تكون مثل هذه المعونة ضرورية في فترات الانتقال ، وناقعة لسد الثغرات ، ولكن إذا طال بها الأجل ، وامتدت إلى ما بعد فترة الضرورة المطلقة ، فإنها تصبح مصدر ضعف . . . زد على ذلك أن عادة التهديد السارية في كثير من الدول غير الشيوعية التي تتربص من الولايات المتحدة أن تسد ما يطرأ على اقتصادها من عجز مالي لمنع اقتصادها القومي من السير في طريق التدهور ، إنما هي عادة قاتلة لقوة اقتصادها ، وكلما بادرت أوروبا إلى الاعتماد على نفسها وعلى مبادئها الخاصة ووضع حد للمساعدة الأجنبية ، كان ذلك أفضل لها .

### كنز التنوع الأوروبي

يجب ألا تضع الحاجة إلى إنتاج أوروبا واستهلاكها الجماعي ، والدفاع المشترك والسياسة المشتركة — نهاية للتنوع الذي شكل أحد مصادر ثراء الحضارة الأوروبية . . . فمن أديرة إيطاليا وفرنسا وأسبانيا ، ومن مدن عصر النهضة ، ومن مدن هانسا في ألمانيا ، وفي الأراضي المنخفضة ، ومن جامعات باريس وبولونيا وبراغ وهيدلبرج وأكسفورد — من هذه المصادر كلها في أوروبا ، إنبثقت المياه التي تجمعت في المجرى الرئيسي للحضارة الأوروبية . إن تكامل أوروبا سياسياً واقتصادياً وعسكرياً يقتضى لا محالة التضحية بكثير من المصالح المحلية والقومية ؛ لكن ينبغي ألا تهدف إطلاقاً إلى التطابق الكامل ؛ ذلك أن نهاية التنوع تعني نهاية أوروبا .

## نرات أوروبا الديني

قلنا من قبل إن مهد الحضارة الغربية وجد في الأديرة والكتدرائيات وفي القوازين المقدسة ، والفن الديني ، والعلم الرهباني في أوروبا أيام القرون الوسطى ، وليس في الإمكان فصل ذلك الأصل الديني عن الثقافة الأوروبية مثلما لا يمكن فصل تنوعها وإحساسها بالحرية . لقد كان هذا الاتجاه الديني يثبت دائماً بقوة في أوروبا ، حتى عندما كانت نزعات الإنسانية ، وما ينشأ عنها من اتجاهات مادية ، وميول « ماركسية » ، تنشط كقوى منافسة . والواقع أنه لم تعش حضارة بعد تلاشى أساسها الديني . وينطبق هذا القول تماماً على الحضارة الغربية اليوم كما انطبق على غيرها من الحضارات في الماضي . ومن البديهي أن التأثير الديني ما زال قوياً ليدعم هذه الثقافة . وليس هناك في هذا الصدد خير من كلمات ت . س إليوت في كتابه « ملاحظات حول تعريف الثقافة » :

« إننا مدينون بأشياء كثيرة لتراثنا الديني بالإضافة إلى الإيمان بالله ، فمن طريقه نحصل على مفهومنا عن القانون الروماني الذي فعل الشيء الكثير في مجال تشكيل العالم الغربي ؛ وعن طريقه حصلنا على أفكارنا عن الأخلاق الخاصة والعامة ؛ وعن طريقه حصلنا على مقاييسنا العامة عن الأدب من آداب اليونان

وروما ، وفي هذا التراث وجد العالم الغربي  
بوحدة .

« وفي ظل عقيدتنا الدينية تطورت فنونا ،  
وتأصلت قوانين أوربا إلى عهد قريب . ومن  
خلال المعارف الدينية ، تكتسب أفكارنا معانيها ،  
فقد لا يصدق الفرد الأوربي أن العقيدة  
الدينية صحيحة ، ومع ذلك فإن ما يقوله وما يفعله  
ينبع كله من تراث الثقافة الدينية ، ويعتمد  
على معنى هذه الثقافة . إن الثقافة الدينية  
هي وحدها التي استطاعت أن تنجب فولتير  
ونيتشه ، وأنا لا أعتقد أن ثقافة أوربا تستطيع  
أن تبقى بدون العقيدة الدينية ، وإنني لمقتنع  
بذلك لا لمجرد أنني أؤمن بهذه العقيدة ولكن  
لأنني درست البيولوجيا الاجتماعية ، فيوم تذهب  
عقيدتنا الدينية ، تذهب أيضاً حضارتنا بأسرها ،  
وعليك عندئذ أن تبدأ من جديد والالم يعصف  
بك ، ولكنك لن تستطيع أن تنشئ ثقافة  
جديدة « جاهزة » ؛ فعليك أن تنتظر ريثما ينمو  
العشب ليطلع الأغنام التي تقدم الصوف الذي

سيصنع منه رداؤك الجديد! عليك أن تجتاز  
قروناً طويلة من البربرية ، ولكنتنا لن نعيش  
حتى نرى الثقافة الجديدة ، بل لن يراها  
أحفاد أحفادنا ؛ وإذا رأيناها فلن يشعر  
أحد منا بالسعادة من جراء رؤيتها !

\*\*\*

وإذا استطاعت أوروبا أن تعيد تقوية قيمها الأساسية ، وبذلت جهداً  
جباراً لمواجهة تحديات أزمة القرن العشرين ، فلن يكون هناك سبب يمنعها  
من الاستمرار في أن تكون إحدى القوى القيادية في العالم . . لقد عادت  
مصر من جديد بعد خمسة عشر قرناً ، وعادت آشور بعد ستة قرون ، وعادت  
بابل بعد خمسة عشر قرناً . . . لقد قامت في كل منها إمبراطورية جديدة أكثر  
بجداً وروعة من الأولى . وفي استطاعة كل حضارة أن ترتفع إلى ذرا أعظم  
ولو في طورها الأخير المزعوم الذي لم تدخله بعد .  
وهناك مجالات فسيحة ، كما حاول هذا الكتاب أن يثبت ، للإيمان بأن  
أوروبا وأمريكا تملسان القوة الخلاقة للتغلب على أزمة الحضارة الغربية  
الحالية ، وتوجيهها إلى ذرا جديدة ، ولسوف يؤدي التعاون والتفاعل بين  
العالمين القديم والجديد — إذا صمما على ذلك — إلى مزيد من الثمار التي  
جاءت بها تلك القوة التي حركت أساتذة القرون الوسطى ، وأضمت موسيقى  
بيتهوفن ، وحركت وليام الصامت ، وجورج واشنطن . . . إنها روح  
الغرب الخلاقة .

إن هذا يمكن أن يتم ؛ ولكنه يتوقف علينا نحن .

( نتم الكتاب )









# دار الكتب

تقديم

## مشروع المكتبات العشرين

- |                       |                               |
|-----------------------|-------------------------------|
| ١ — المكتبة الثقافية  | ١١ — مكتبة « الناشئين »       |
| ٢ — المكتبة الدولية   | ١٢ — المكتبة الدينية          |
| ٣ — المكتبة الطبية    | ١٣ — المكتبة العمالية         |
| ٤ — المكتبة العلمية   | ١٤ — المكتبة الصناعية         |
| ٥ — المكتبة السياسية  | ١٥ — المكتبة القانونية        |
| ٦ — المكتبة المسرحية  | ١٦ — مكتبة « خدام الإنسانية » |
| ٧ — المكتبة الفنية    | ١٧ — مكتبة « أبطال التاريخ »  |
| ٨ — مكتبة « أطفالنا » | ١٨ — دائرة المعارف العامة     |
| ٩ — مكتبة الحضارات    | ١٩ — دائرة المعارف العربية    |
| ١٠ — المكتبة الأدبية  | ٢٠ — دائرة المعارف العامة     |

الناشر  
دار الكتب للنشر والطبع والتوزيع  
عمارة رمسيس - ميدان رمسيس (باب الحديد) القاهرة

Bibliotheca Alexandrina



0388483



الشر

مطبقة مخيم تليفون: ٤٧١٩٣